غابرييل غارسيا ماركيز

الحب.. وشياطين اخرى

ترجمها عن الاسبانية د: وليد صالح



« غابرييل غارثيا ماركيز » اسطورة الأدب العالمي

أصبح « غابرييل غارثيا ماركيز » عام ١٩٨٢ رابع أديب من « أمريكا اللاتينية » يحوز على جائزة نوبل للآداب . وقد أجمع النقد منذ بدايات بروز اسم هذا الكاتب على المستوى الرفيع لكتاباته وأشار الى قدرته وملكته البارزة ، وكانت « مائة عام من العزلة » المنشورة في عام ١٩٦٧ خير ما تمثّل انطلاقة الرواية في « أمريكا اللاتينية » .

تمتاز أعمال « ماركيز » بالتماسك الشديد الى درجة انّ نتاجه كلّه يبدو وكأنّه رواية واحدة نشرت أجزاؤها في فترات متفرّقة . وكما أشار الأديب البيرواني « فارجاس إيوسا » فانّ مؤثرات « ماركيز » هي ثلاثة : شخصية وتأريخية وثقافية . أمّا الشخصية فانّها تخصّ مكان ولادته وطفولته ومعايشاته في بلدة « كولومبيا » . أما ظروف العنف والقسوة التي تحيط بحياة السكّان في ذلك البلد ، فانّها تشكل جزءاً من المؤثرات التأريخية . وأمّا الثقافية فانّها تعود الى مصادر قراءاته مثل : « الأنجيل » و « ألف ليلة وليلة » وأعمال « كافكا » و « جيمس جويس » و «بورخيس» و « همنغواي » وغيرهم .

غير أنّ « ماركيز ككاتب يمتاز بخصوصية استثنائية لأنّه يهتم بلغته بشكل مُبالغ فيه . وقد قال في مقابلة صحفية أجريت معه عام ١٩٦٩ بأنّه كاتب خشن وقاس لأنّه يمضي أحياناً ثماني ساعات في

الكتابة لا تخرج منها سوى نصف صفحة ، وانّه يصارع الكلمات صراعاً شرساً ، وفي النهاية تكون هي الغالبة .

وقد بدأ « ماركيز » حياته الأدبية صحفياً ، هذه المهنة التي لازمته بشكل أو بآخر حتى الآن . نشر بعض القصص في أواخر الأربعينات ، غير انّ الرواية الاولى التي كشفت عن عظمة موهبته كانت بعنوان «الأوراق المتساقطة» التي نشرت عام ١٩٥٥ وكانت هذه الرواية قصيرة تبعها بقصّة رائعة عنوانها « مونولوج ايزابيل وهي ترى تساقط المطر في ماكوندو » المنشورة في نفس العام . وبعدها أخذ يعمل مراسلاً صحفياً في « اوروبا » لجريدة « الاسبكتادور » أي المتفرّج . حيث كتب في باريس « الكولونيل ليس له من يكاتبه » ونشرت عام ١٩٥٨ . وعاد بعدها الى بلده ومنه ذهب الى « نيويورك » ثم الى « المكسيك » حيث كتب احدى قصصه المهمّة المعنونة « جنازة ماما الكبيرة » ونشرت عام ١٩٦٢ . وبعد هذه الفترة أخذ في اعداد روايته الكبيرة « مائة عام من العزلة » التي ظهرت في « بوينس آيرس » في ١٩٦٧ . وقد تجاوز نجاح هذه الرواية الحدود المتوقعة ولم تقترب منها أيّة رواية أخرى من رواياته اللاحقة .

وبعد ظهور هذه الرواية تساءل النقّاد عمّا إذا كان « ماركيز » قادراً على ايجاد وسائل تعبيرية وتركيبية روائية جديدة أو انّه سيكرّر ما ابتدعه في رواية « مائة عام من العزلة » وظهرت رواية « خريف البطريرك » عام ١٩٧٥ بعد انتظار طويل من جانب القرّاء ، ولكنها لم تبلغ على كلّ حال انتشار سابقتها . وقد أثبتت هذه الرواية على انّ « ماركيز » مازال يمتلك

وسائل فنية جديدة وجذابة . وفي عام ١٩٨١ نشر روايته « قصة موت معلن » والتي خلق فيها تكاملاً دقيقاً بين القصة الأدبية والريبورتاج الصحفي . ولقد استفاد من تجربته الصحفية التي يتقنها بشكل جيد .

أمّا رواية « الحبّ في زمن الكوليرا » التي ظهرت عام ١٩٨٥ فانّها تعالج بأسلوب جديد موضوع الحبّ . وفي هذه الرواية قدر من السّحر والخرافة يوازي قدراً آخر من الواقعية وقد استطاع الكاتب أن يرسم شخصياته في هذه الرواية بأشكال مسرحية وان شخصيته الرئيسيين أصبحتا بلا شك قنوة لاتزول في تاريخ الرواية المعاصرة .

ونشرت روايته الأخيرة « الجنرال في متاهته » عام ١٩٨٩ وهي رواية تاريخية تستلهم حياة السياسي والقائد الفنزويلي « سيمون بوليفار » (١٧٨٣ - ١٨٣٠) الذي حرّر بلده من الحكم الاسباني ثم حرّر بعده « غرناطة الجديدة » وكوّن منها ومن « الاكوادور » جمهورية « كولومبيا الكبرى » ، ثم سعى في توحيدها مع « البيرو » و « بوليفيا » فلم ينجح ، وقد دعيت باسمه جمهورية « بوليفيا » وتصوّر هذه الرواية الأشهر السبعة الأخيرة من حياة الجنرال ، ويعترف الكاتب بأنّ عمله هذا انّما هو مجازفة أقدم عليها لأنّ الحديث عن قائد من خلال الوثائق التاريخية التي تركها أعداء هذا الجنرال شيء لا يخلو من التعقيد .

وهكذا فاننا نرى بأنّ « امريكا اللاتينية » تشكل أصل ومركز أعمال « ماركيز » الأدبية والصحفية وكذا مسلسلاته السينمائية

والتلفزيونية . وهذا التزاوج ما بين الخيال الاسطوري في « الأوراق المتساقطة » و « ومائة عام من العزلة » و « قصّة موت معلن » و « الجنرال في متاهته » تمنح أعمال « ماركيز » ثراء أكبر وأهمية أشمل .

قصص نادرة

في قصص هذا الكتاب التي تدور أحداثها في مدن اوروبية ، ثم يخرج « ماركيز » عن خطّه الروائي المعروف ، إذ يجد القارىء قصصاً تمّ روايتها بأسلوب مُتقن وتخيّم عليها أجواء ساحرة ومزاج ساخر ولاذع لتخلق شخصيات واقعية مدهشة ويحاول الكاتب فيها جميعاً أن يُعبّر عن الضعف الانساني وعن بؤس الحياة من خلال ما تتعرّض له شخصياته الى أمراض وموت . ومع انّ هناك بعض الأحداث التي يصعب على المرء تصديقها ، فانّها لا تخرج عن روح الأدب وخاصّة الأدب الذي يمسّ عالم الخيال . انّ نهايات القصص لا تهمّ كثيراً لأنّ سردها وحبكتها وتطور الحدث فيها هو الذي يشدّ القارىء لأنّه يعيش الحدث ويتمتع بلغة السّرد اللذيذة والجميلة .

وليد صالح

مدريد في اكتوبر (تشرين أول) ١٩٩٢

تمهيـــــد

لماذا إثنتا عشرة ، ولماذا قصص ، ولماذا نادرة ؟

كُتبت قصص هذا الكتاب الاثنتا عشرة على مرّ الثمانية عشر عاماً الأخيرة . وقبل أن تأخذ شكلها الحالي ، كانت خمس منها عبارة عن خواطر صحفية ونصوص سينمائية ، وكانت واحدة منها مسلسلاً تلفزيونياً . وأخرى رويتها منذ خمسة عشر عاماً في مقابلة مسجّلة ، وقام الصديق الذي حكيتها له بتدوينها ونشرها ، وقمت أنا الآن باعادة كتابتها انطلاقاً من ذلك النصّ . لقد كانت تجربة ابداعية غريبة تستحقّ التفسير ، حتى ولو كان للأطفال الذين يودون أن يصبحوا كتاباً عندما يكبرون ، لكي يعلموا من الآن كم هي جشعة وسامجة ورذيلة الكتابة .

انّ الفكرة الاولى التي راودتني في أوائل عقد السبعينات ، بسبب حلم مثير شاهدته بعد اقامة دامت خمس سنوات في « برشلونة » شاهدت بأنني أحضر مراسيم دفني الخاصّ على قدميّ ، ماشياً بين مجموعة من الأصدقاء لابسي الحداد المهيب ، ولكن بروح احتفالية . وكنّا جميعاً نبدو سعداء لتواجدنا معاً . وكنت أنا أكثرهم سعادة بتلك الفرصة الطيبة التي أتاحها لي الموت لكي اكون مع أصدقائي من أمريكا اللاتينية ، أقدمهم وأعزهم وكذا هؤلاء الذين لم أرهم منذ زمن بعيد . وعند

انتهاء المراسيم ، حيث أخذوا بمغادرة المكان ، حاولت مرافقتهم ، غير أنّ واحداً منهم وبقسوة حادّة جعلني أفهم بأنّ الاحتفال قد انتهى بالنسبة لي . « أنت الوحيد الذي لا تستطيع أن تذهب » ، قال لي . حينذاك فقط فهمت بأنّ الموت هو أن لا تكون بعد أبداً مع الأصدقاء .

ولا أدري لماذا فسّرت ذلك الحلم كاستعادة وعي بهويتي وظننت بأنه نقطة انطلاق جيدة للكتابة عن الأشياء الغريبة التي تحدث لأبناء أمريكا اللاتينية في اوروبا . كانت نقطة مشجعة ، حيث أني كنت قد انهيت قبل ذلك بقليل من «خريف البطريرك » ، والذي كان من بين اكثر أعمالي صعوبة ونحساً ، ولم أكن أجد الطريق للمتابعة .

خلال ما يقرب من عامين ، كنت أدوّن ملاحظاتي عن الموضوعات التي كانت تحدث لي دون أن أقرر بعدُ ماذا سأفعل بها . وبما أنني لم أكن أملك كرّاساً للملاحظات في بيتي في تلك الليلة التي قررّت فيها البدء ، أعارني أولادي دفتراً مدرسياً . وهم الذي حملوه في مزاودهم الخاصة بالكتب في سفراتنا المتعددة خوفاً من ضياعه . وصار عندي أربعة وستون موضوعاً مع الكثير من التفاصيل التي لم يكن ينقصها سوى الكتابة .

وكان ذلك في المكسيك بعد عودتي من « برشلونة » عام ١٩٧٤ ، حيث اتضح لديّ بأنّ هذا الكتاب لا ينبغي أن يكون رواية كما بدا لي في الأول ، وانّما مجموعة من القصص القصيرة التي تستلهم أحداثاً صحفيّة تنفلت من شرط الفناء بحيلة الشعر . كنت قد كتبت حتّى ذلك الحين ثلاث مجموعات قصصية ، ومع ذلك فانّ أيّاً من تلك المجاميع لم

تكن مفهومة أو معتبرة ككلٍّ متكامل ، حيث أنّ كلّ قصّة من تلك القصص كانت وحدة مستقلّة وطارئة . وعلى هذا فانّ كتابة أربع وستين قصّة كان بالامكان أن تكون مغامرة مدهشة فيما لو استطعت انجازها جميعاً ضمن تصميم واحد ووحدة داخلية في النبرة والاسلوب اللذين يجعلانها غير قابلة للانفصال في ذاكرة القارىء .

فالقصتان الأوليان : « أثر دمك على الثلج » و « صيف السيّدة فوربس السعيد » ، كتبتهما عام ١٩٧٦ ونشرتهما مباشرة في الملاحق الأدبية في عدّة بلدان . ولم أسترح ولو يوماً واحداً ، غير أني في منتصف القصّة الثالثة والتي كانت تتحدّث عن مراسيم دفني ، شعرت بأنني متعب أكثر ممّا لو كنت أكتب رواية . ففي الفقرة الاولى من أية رواية لابُدّ من تحديد كلّ شيء : التركيب ، النبرة ، الاسلوب ، الايقاع ، الطول ، وأحياناً حتى ميزات بعض الشخصيات . أمّا الباقي فليس سوى لذّة الكتابة ، وهو الأمر الاكثر خصوصية وتفرداً مما يمكن لنا أن نتخيله . واذا كان أحدنا لا يقضي بقية حياته في تصحيح كتابه ، فانّ ذلك يعود الى نفس القاعدة الحديدية التي تفرض نفسها لانهائه تماماً كما تمّ البدء به . في حين ان القصّة ليس لها بداية ولا نهاية : مكتملة أولا . فإن لم تكن مكتملة ، فانّ التجربة الخاصة وتجارب الآخرين تعلّم بأنّ من الأحسن في معظم الحالات البدء بها من جديد ومن طريق آخر ، أو رميها في سلّة المهملات . أحد ما قالها على ما أذكر في جملة سُلوانية : « والكاتب الجيّد يُقيّم بشكل أفضل باعتبار ما يرميه لا باعتبار ما ينشره » والحقّ التي لم أمزّق المسوّدات والملاحظات ، غير أنّي فعلت ما هو أسوأ : رميت بها في عالم النسيان .

أتذكر بأنّ الكرّاس كان فوق مكتبي في المكسيك ، غارقاً بين أمواج من الورق ، حتى عام ١٩٧٨ . وفي أحد الأيام إذ كنت أبحث عن شيء آخر ، انتبهت إلى عدم وجوده ، إذ لم تقع عليه عيناي منذ زمن . لم أهتم بذلك . غير أنّي حين أقنعت نفسي بأنه قد اختفى من على المكتب لمكتبي الفزع . لم يبق في البيت ركن دون أن نفتشه بعمق . حرّكنا قطع الأثاث وأفرغنا المكتبة خوفاً من أن يكون قد سقط وراء الكتب ، وأجرينا مع العاملين في البيت والأصدقاء تحقيقاً لا يرحم . ليس له أيّ أثر . التفسير الوحيد الممكن ، وربّما المستحسن ؟ وهو أني في واحد من أعمال إبادة الأوراق التي أجريها باستمرار ، قد ألقيت بالكرّاس الى صندوق القمامة .

أدهشني ردّ فعلي الخاصّ : انّ الموضوعات التي كنت قد نسيتها لما يقارب الأربعة أعوام ، تحوّلت بالنسبة لي الى قضية شرف . محاولاً استعادتها بأيّ ثمن . ونتيجة للعمل الشاقّ بهدف كتابتها ، تمكنت من اعادة كتابة الملاحظات الخاصة بثلاثين قصة . وبما أنّ الجهد الذي بذلته في سبيل تذكرها كان لي بمثابة عمل تطهيري ، أحذفت أضحي ، بلا رحمة ، تلك التي كانت تبدو لي صعبة الانقاذ ، وهكذا بقيت ثماني عشرة . وفي هذه المرّة كان قرار كتابتها دون توقّف يشجعني ، غير أنّي أدركت سريعاً بأنّي فقدت حماسي لها . ومع ذلك ، وخلافاً لما كنت اعتدت عليه في نصحي للكتاب الجدد ، لم أرم بها في سلّة المهملات ، بل احتفظت بها ، عسى أن تنفع فيما بعد حين بدأت « قصة موت معلن » عام ١٩٧٩ ، تيقنت من أنني في وقفات الاستراحة بين كتابين أفقد عادة

اللزوم على الكتابة ، وفي كلّ مرّة أجد استئناف الكتابة أصعب . ولهذا فاني التزمت بكتابة خواطر اسبوعية للعديد من صحف العالم في الفترة الواقعة ما بين شهر اكتوبر (تشرين أول) ١٩٨٠ وشهر مارس (آذار) ١٩٨٤ ، انضباطاً منّي ورغبة في الحفاظ على ذراعي ساخنة . حينما طرأت لي فكرة قوامها أنّ صراعي مع ملاحظات الكرّاس لايزال متعلقاً بالأجناس الأدبية ، وان على تلك الملاحظات أن تكون خواطر صحفية ، لا قصصاً ولم يتغير رأيي ذاك الأ بعد نشر خمس من تلك الخواطر المأخوذة من الكرّاس : انّها اكثر ملاءمة للسينما . وهكذا فقد تمّ انجاز خمسة أفلام ومسلسل تلفزيوني .

والذي لم اكن أتوقعه أبداً هو أن يبدل العمل الصحفي والسينمائي بعض آرائي عن القصص ، الى الحدّ الذي جعلني حريصاً ، الآن عند كتابتها بشكلها الحالي ، عليّ الفصل بحزم ما بين أفكاري الخاصة والأفكار التي زودني بها المخرجون خلال كتابة النصوص السينمائية . بالاضافة الى ذلك فان التعاون مع خمسة مبدعين مختلفين وبشكل متوازٍ ، أوحى اليّ باسلوب آخر لكتابة القصص : البدء بواحدة عند توفّر وقت فارغ ثمّ تركها عند الشعور بالتعب أو عند ظهور مشروع غير مخطط له ، ومن ثمّ البدء بواحدة أخرى . وفي فترة تزيد على العام بقليل ، ذهبت ستة من الثمانية عشر موضوعاً الى سلّة المهملات ، ومن بينها موضوع مراسيم دفني ، حيث لم أستطع أن أجعله تسلية كما كان في الحلم . أما القصص الباقية فعلى العكس ، يبدو أنّها استعادت أنفاسها لكي تعيش حياة طويلة .

وهي التي تشكل قصص هذا الكتاب الاثنتي عشرة . في شهر سبتمبر (أيلول) الماضي ، كانت جاهزة للنشر بعد عامين آخرين من العمل المتقطع . وهكذا كان بالامكان انهاء الرحلات المستمرّة لذهابها وعودتها ، من والى صندوق القمامة . غير أنّ الذي منع ذلك في اللحظة الأخيرة ، هو وخزة من الشكّ وتأنيب الضمير ، حيث انّ المدن الاوروبية المختلفة التي تجري فيها أحداث القصص ، كنت قد وصفتها اعتماداً على الذاكرة وعلى البعد ، وأردت أن أتحقق من وفاء ذكرياتي بعد ما يقرب من عشرين عاماً ، لذا فانّي بدأت سفرة سريعة للتعرّف من جديد على برشلونة وجنيف وروما وباريس . لم يكن لأية من تلك المدن علاقة مع ذكرياتي . كلّها صارت غريبة ، حالها حال اوروبا جميعاً بفعل الاستثمارات المدهشة : كانت ذكرياتي الحقيقية تبدو لي وكأنها أشباح من الذاكرة ، في حين انّ ذكرياتي المزيفة كانت مقنعة الى الحدّ الذي فرضت نفسها على الواقع . وأدّى بي هذا الى استحالة تمييز الخط الفاصل ما بين خيبة الأمل والحنين . وجاء الحلّ الأخير ، إذ انّي وجدت أخيراً ما كنت أبحث عنه بلا كلل لانهاء الكتاب ، والذي لم يكن يمنحه اياي سوى مرور السنوات : نظرة من خلال الزمن .

بعد عودتي من سفرتي العاصفة تلك ، أعدت كتابة جميع القصص منذ البداية خلال ثمانية أشهر محمومة ، لم أكن خلالها بحاجة الى التساؤل ، أين كانت الحياة تنتهي وأين كان الخيال يبدأ ، لأنّ الشك في عدم واقعية ما كنت عشته في اوروبا قبل عشرين عاماً قد ساعدني . وصارت الكتابة حينذاك سلسلة ميسورة ، إذ كنت أشعر أحياناً بأنّي اكتب مدفوعاً بلذّة القصّ ، وهي الحالة الانسانية التي اكثر ما تكون شبهاً

بالتحليق . ثمّ انّي كنت أعمل في جميع القصص في نفس الوقت ، أقفز من واحدة الى أخرى بحريّة كاملة . وهذا بالذات جعلني أحقق نظرة بانورامية أنقذتني من تعب البدايات المتتالية ، وساعدتني على اقتناص التكرار الفارغ والتناقض القاتل . وهكذا فاني أعتقد بأنني قد حصلت على المجموعة القصصية الأقرب الى ما كنت أتمنى كتابته دائماً .

انّه هنا ، اذن ، جاهز لكي يحمل الى المائدة بعد كل رحلات الذهاب والاياب وبعد انقاذه من عقبات الشكّ . جميع القصص ، عدا الاولى والثانية ، تمّ انهاؤها في وقت واحد ، وكل واحدة منها تحمل تاريخ البدء بها . أما ترتيبها في هذه الطبعة ، فاني حافظت فيه على الترتيب الأصلي في كراس الملاحظات .

اعتقدت دائماً بأنّ الكتابة الأخيرة لأية قصة هي أفضل من سابقاتها . كيف لنا ، اذن ، أن نعرف أيها يجب أن تكون الأخيرة ؟ انّه سرّ المهنة الذي لا يخضع لقوانين الذكاء ، بل لسحر الغرائز . وهذا شبيه بعمل الطباخة التي تعرف متى ينضج الحساء . على كل حال ، ودفعاً للشك ، فاني لا أعود الى قراءتها ، لأنّي اعتدت على عدم قراءة أيّ من كتبي خوفاً من أن أندم على كتابته . والذي يقرؤها يعرف ماذا يفعل بها . ولحسن الحظ ، فانّ عودة هذه القصص الاثنتي عشرة المهاجرة الى سلّة الأوراق ، انما هو فرح وراحة كراحة العودة الى البيت .

غابريل غارثيا ماركيز

« كرتخينا دي انديآس » ، أبريل (نيسان) ١٩٩٢

سفرة سعيدة ، سيادة الرئيس

كان جالساً على المقعد الخشبي تحت الأوراق الصفراء لأشجار المتنزّه المقفر ، يتأمل الاوزات المغبّرة وكلتا يديه متكئتان على المقبض الفضّي للعكاز ، مفكراً بالموت . عندما جاء الى جنيف للمرّة الاولى ، كانت البحيرة هادئة وشفّافة ، وكانت هنالك نوارس وديعة تقترب من الناس وتأكل من أياديهم ، وكانت هناك نساء للايجار يلبسن فساتين ذات كرانيش من القطن الأبيض الشفّاف ويحملن مظلات حريرية وكأنهنّ أشباح السادسة مساء . أما الآن فانّ المرأة الواحدة الممكنة التي تقع داخل حدود الرؤية هي بائعة الزهور في الرصيف الخاوي . كان يجد صعوبة في تصديق انّ الزمن استطاع أن يسبّب ضرراً كهذا ، ليس في حياته فحسب ، وانّما في العالم أيضاً .

كان شخصاً مجهولاً كغيره من الناس في هذه المدينة ، مدينة المشاهير المجهولين . كان يلبس البدلة الزرقاء القاتمة ذات الخطوط البيضاء وصدار الاستبرق والقبعة الصلبة التي ألِفَ استعمالها الحكّام المتقاعدون . وكان له شارب شامخ طويل الجانبين وشعر رماديّ كثيف ذو تجعدات رومانسية ، ويدان كأنهما يدا عازف حنك . وفي بنصره الأيسر حلقة

الزواج رغم كونه أرمل ، وعيناه فرحتان . والشيء الوحيد الذي كان يفضح حالته الصحيّة هو تعب بشرته . ومع هذا ، فانّه كان يشعر في ذلك الصباح بأنّه بعيد تماماً عن أيّ شعور بالخيلاء ، لقد مرّت أعوام المجد والسلطة ، ولم يبق الآن سوى أعوام الموت .

كان قد عاد الى جنيف بعد حربين عالميتين ، باحثاً عن جواب شاف لألمه الذي لم يستطع أطباء جزيرة « مارتينيكا » الكاريبية تشخيصه. كان يتوقع أنّ اقامته لن تتعدى الخمسة عشر يوماً ، وها هو مقيم هنا منذ ستة أسابيع ما بين فحوصات مهلكة ونتائج غير أكيدة ، وحتى الآن فانّه يعجز عن رؤية النهاية بوضوح.

كانوا يبحثون عن الألم في الكبد وفي الكلية وفي البنكرياس وفي البروستاتة ولكن عبثاً . الى أن وصل ذلك الخميس المشؤوم ، حيث عقد معه أحد الأطباء المغمورين موعداً على الساعة التاسعة في ردهة الأمراض العصبية . كان المكتب شبيهاً بصومعة رهبان ، وكان الطبيب هزيلاً وكئيباً ، وكانت يده اليمنى مجبرةً بالجبس لكسر في الابهام . وعندما أطفأ النور ظهرت على الشاشة صورة شعاعية مُنيرة لعمود فقري لم يكن يعرف انّها له حتى أشار الطبيب بمؤشّر الى ما دون الحزم عند التحام فقرتين ، قائلاً له :

– ألمك يكمُن هُنا .

لم يكن هذا بالنسبة له سهلاً . لأنّ ألمه كان صعب الاحتمال ومنزلقاً ، حيث كان يظهر أحياناً في جانبه الأيمن ، وأخرى تحت البطن ،

وكان يفاجئه بين الحين والآخر على شكل وخزات آنية في أعلى الفخذ .

استمع اليه الطبيب باندهاش دون أن يزيل المؤشر عن الشاشة . « لهذا خدعنا كلّ هذا الوقت » أضاف الطبيب . « لكننا الآن نعلم بأنّه يكمن هنا » . وبعدها وضع سبابته على صدغه وأردف قائلاً :

– ومع ذلك ، أقولها بدقّة صارمة ، فان أيّ ألم موطنه هنا ، سيادة الرئيس . كان اسلوبه الطبي دراميّاً الى الحدّ الذي بدا فيه حكمه الأخير رحيماً : على السيّد الرئيس أن يخضع لعملية خطرة ولا مفرّ منها . فسأله هذا عن هامش الخطر ، فجعلته اجابة الطبيب المسنّ محاطاً بأضواء من الشكّ .

– ليس بامكاننا قوله بصورة أكيدة ، قال له .

ثم أضاف ، حتى وقت قريب كانت مخاطر الأحداث المميتة كبيرة ، واكثر من ذلك امكانات الاصابة بالشلل بمختلف درجاته . غير أنّه وبعد التقدم الطبي صارت هذه المخاوف من ورثة الماضي .

ختم الطبيب كلامه بقوله : لتذهب مطمئناً ، هيئ أشياءك جيداً وأخبرنا ولكن لا تنس بأنّك كلّما أسرعت ، كان أفضل .

لم يكن صباحاً جيداً لهضم ذلك النبأ السيئ ، والأدهى من ذلك تواجده في العراء . كان قد خرج مبكراً من الفندق ، دون معطف ، لأنّه شاهد شمساً مشعّة من خلال النافذة ، وكان قد ذهب بخطواته المحسوبة

من « جمين دوبيا وسوليل » حيث يوجد المستشفى وحتّى ملجأ العُشّاق العابرين في « المتنزه الانجليزي » ومازال هناك منذ اكثر من ساعة مفكراً بالموت كعادته منذ بدأ الخريف . هاجت البحيرة وكأنّها المحيط الهادر وأفزعت الريح المهووسة طيور النوارس وأزاحت الأوراق الأخيرة للشجر . نهض الرئيس ، وبدلاً من أن يشتري زهرة من بائعة الزهور ، قطف الغردالة من أحد أحواض الزرع العامة ، ووضعها في الثقب الموجود بطيّة سترتها . اندهشت بائعة الزهور .

– هذه الزهور ليست لله ، أيها السيد . قالت منزعجة . – انّها ملك البلدية .

لم يهتم هو بقولها وابتعد بخطوات خفيفة ، ماسكاً بالعكاز من وسطه ومحركاً إيّاه احياناً بظرف خليع . وعند جسر « مونت بلانك » كانوا ينزعون بخفة أعلام الكونفيديرالية المجنونة بسبب الريح ، وكانت النافورة الأنيقة المتوجة بالرغوة قد انطفأت قبل وقتها المحدَّد . ولم يتعرف الرئيس على مقهاه الذي اعتاد الذهاب اليه على الرصيف ، لأنهم كانوا قد علقوا المظلة الخضراء من أعلى الباب وكانت الشرفات الصيفية المزهرة قد أغلقت منذ حين . كانت مصابيح الصالة مشتعلة في عزّ النهار ، وكان رباعي الوتر يتدربون بعزف قطعة موسيقية لموزارت . أخذ الرئيس من على الطاولة جريدة من بين الصحف المحجوزة للزبناء ، وضع القبّعة والعكّاز على الشمّاعة ووضع النظارات ذات الاطار الذهبي على عينيه ليقرأ هناك في المائدة الاكثر انزواء ، وحين ذاك فقط ، أدرك بأنّ الربيع كان قد حلّ . بدأ القراءةبصفحة الأخبار العالمية والتي كان يعثر فيها بين الحين والآخر

على بعض الأخبار الخاصّة بامريكا اللاتينية واستمرّ في القراءة من الخلف الى الأمام لغاية وصول العاملة التي كانت تحمل له قنينة ماء « ايفيان » التي اعتاد على تناولها يومياً . كان قد هجر عادة شرب القهوة منذ اكثر من ثلاثين عاماً بتوصية من الأطباء ، غير أنه كان يقول : « لو تملكني مرّة الشكّ على أنّي على وشك الموت ، سأعود الى تناولها » . ربما كانت الساعة قد وصلت .

– هات لي قهوة أيضاً ، طلب منها بلغة فرنسية مضبوطة . وأردف دون الانتباه الى ثنائية معنى ما قاله : على الطريقة الايطالية . كما لو كان الهدف بعث ميّت .

شرب القهوة بلا سكّر على رشفات بطيئة وبعدها قلب الفنجان في الصحن لكي يكون لترسبات القهوة ، بعد كلّ هذه السنوات ، وقت لكتابة مصيره . حرّره الطعم المستعاد ، ولو لحين ، من أفكار السوء . وبعد برهة ، وكجزء من الكهانة ، شعر بأنّ أحداً ما كان ينظر اليه ، آنذاك قلب الصفحة بحركة طارئة ، ونظر من فوق النظارات فوجد رجلاً شاحباً غير حليق اللحية ، بقبعة رياضية وصدار مصنوع من جلد الخروف ، كان يلبسه على قفاه ، والذي أبعد نظرته في الحين لكيلا تلتقي مع نظرة الآخر .

كان وجهه مألوفاً ، وكان أحدهما قد رأى الآخر اكثر من مرّة في ممّر المستشفى ، وكان قد رآه في يوم ما على ظهر درّاجة نارية في بروميناذي دولاك ، بينما كان هو يتأمل الاوزّات ، ولكنّه لم يشعر في

أيّ وقت بأنّه معروف . ومع ذلك ، فانّه لم يستبعد بأن يكون شبحاً آخر من الأشباح التي تطارده في المنفى .

أكمل قراءة الجريدة دون استعجال محلقاً مع جلو « براهمس » الفاخر ، حتى صار الألم أشدّ قوة من مُهدّئ الموسيقى . آنذاك نظر الى ساعته الذهبية التي كان يحملها في جيبه معلّقة في سلسلة ، وتناول القرصين المهدّئين الخاصين بوسط النهار مع الرشفة الأخيرة من ماء «ايفيان» المتبقي . وقبل أن ينزع نظارته ، تبيّن مصيره في مقعد المقهى وشعر بخدر مُثلج : هنالك كان الشكّ .

وأخيراً دفع الحساب مع بقشيش ضئيل ، وتناول عكّازه وقبعته من الشمّاعة وخرج الى الشارع دون أن ينظر الى الرجل الذي كان ينظر اليه . ابتعد بمشيته الفرحة الاحتفالية ، محاذياً أحواض الزهور التي حطمتها الرياح وظنّ بأنّه قد تحرّر من ذلك الساحر . غير أنّه شعر فجأة بأن أحداً ما يتبع خطواته ، فتوقف عند المنحنى ودار نصف دورة . وجد الرجل الذي كان يتبعه نفسه مضطراً الى التوقف الفجائي خوفاً من أن يصطدم به ونظر اليه فزعاً على قرب شبرين من عينيه .

– سيادة الرئيس . همس الرجل .

– قل لهؤلاء الذين يدفعون لك انّ عليهم أن يودعوا آمالهم . قالها الرئيس دون أن يتخلى عن ابتسامته وصوته الأريحي . – إنّ صحّتي ممتازة .

– لا أحد يعرف ذلك أفضل منّي ، قال الرجل ذلك مهموماً بسبب ثقل العاب الذي سقط عليه . – انني أعمل في المستشفى .

كان تلفظّه وايقاعه وحتى خجله تنمّ عن انّه رجل كاريبي خشن .

– لعلّك طبيب ، قال له الرئيس .

– ليتني كنت كذلك ، ايها السيّد . إنني سائق اسعاف .

– آسف ، أضاف الرئيس ، مقتنعاً بأنّه أخطأ التقدير . – انّه عمل شاق .

– ليس بشقة عملك ، أيها الرئيس .

نظر اليه الرئيس بدون تحرّج واتكأ على العكّاز بيديه وسأله باهتمام حقيقي :

– من أين حضرتك ؟

– من الكاريبي .

– عرفت هذا . قال الرئيس ، ولكن من أيّ بلد ؟

– من نفس بلدك ، أيّها السيد ، قال الرجل ماداً له يده : اسمي « هوميرو ري » .

قاطعة الرئيس مندهشاً ، دون أن يحرك يده .

– عجباً ، قال له ، – أيّ اسم جميل !

تنفّس « هوميرو » الصعداء .

– وأكثر من ذلك أيضاً « هوميرو ريّ ديلاكاسا » .

هجمت عليهما موجة برد شتائية وهما دون حماية في منتصف الطريق . شعر الرئيس بالخدر الذي امتدّ حتى العظام ، وأدرك بأنّه لن يستطيع السير بدون معطف ليقطع الشارعين اللذين يفصلانه عن دار الفقراء التي اعتاد على تناول غدائه فيها .

– هل تغدّيت ؟ سأل الرئيس هوميرو .

– لا أتغدّى أبداً ، قال هوميرو . – أتناول وجبة واحدة فقط في الليل في بيتي .

– ليكن استثناء هذا اليوم . قالها الرئيس مظهراً كلّ أريحته . – أدعوك لتناول الغداء .

أمسك به من ذراعه وذهب به الى المطعم المقابل الذي كان اسمه مكتوباً في أعلى الباب بحروف مذهبة « الثور المتوّج » . كان المطعم من الداخل ضيقاً ودافئاً ، ولم يكن هناك على ما يبدو أي مكان فارغ . استمّر « هوميرو ريّ » حتى نهاية الصالون لطلب المساعدة ، تتملكه الدهشة من أنّ أحداً من الموجودين لم يتعرّف على الرئيس .

– هل هو رئيس مستمرّ في منصبه ؟ سأله رئيس العمال .

– لا ، قال « هوميرو » . – انّه رئيس مخلوع .

ابتسم رئيس العمال ابتسامة رضى ، وقال :

– لهؤلاء عندي دائماً منضدة خاصّة .

قادهما الى مكان منعزل في عمق الصالون ، حيث كان بامكانهما التحدث براحة ، فشكر له الرئيس صنيعه .

– ليس هناك الكثير ممن يفهمون كحضرتك كرامة المنفى ، قال له .

كان هذا المطعم مختصاً بتهية أضلاع الثور على الفحم . نظر الرئيس ومدعوه الى الموائد القريبة فوجدا قطع اللحم الكبيرة المشوية والمحاطة بقطع من الشحم الطري . – « انّه لحم رائع » ، همس الرئيس ، غير أنّها ممنوعة عليّ لنظر الى « هوميرو » نظرة ثابتة وغيّر من نبرة صوته .

– في الواقع ، ان كلّ شيء ممنوع عليّ .

– وكذلك القهوة ، فهي ممنوعة على حضرتك . قال هوميرو ، – ومع ذلك تتناولها .

– هل انتبهت ؟ سأله الرئيس . كان هذا استثنائياً في يوم إستثنائي. لم يكن استثناء ذلك اليوم مع القهوة فحسب ، لأنّه طلب أيضاً أضلاع ثور مشوية على الفحم وسلاطة بفول طازجة بدون بهارات مع قطرات من زيت الزيتون . وطلب المدعو نفس ما طلب الرئيس ، بالاضافة

الى نصف دورق من النبيذ الأحمر . وبينما كانا في انتظار اللحم ، أخرج « هوميرو » من جيب سترته محفظة نقود خالية من النقود ومليئة بالأوراق وأرى الرئيس صورة فاقعة اللون ، فعرّف على نفسه في تلك الصورة ، حيث كان يرتدي قميصاً ، وكان أضعف مما هو عليه الآن . أما شعره وشاربه فكانا شديدي السواد ، وكان يتوسّط مجموعة من الشباب الذين بذلوا كلّ ما في وسعهم للظهور في الصورة . بنظرة واحدة عرف المكان وتذكر شعارات الحملة الانتخابية المملّة وذلك التاريخ النّحس .

– يا للعجب ! همس الرئيس . – انني اقول دائماً إن الواحد منا يشيب في الصور اكثر من الحياة الواقعية . ثم أعاد اليه الصورة مصحوبة باشارة تدل على الانتهاء .

– أتذكر ذلك جيداً ، قال الرئيس . – حدث ذلك منذ آلاف السنين في ميدان الديكة بـ « سان كريستوبال دي لاس كاساس » .

– تلك هي بلدتي ، قال « هوميرو » ، مشيراً الى نفسه ضمن المجموعة :

– هذا هو أنا .

تعرّف عليه الرئيس

– كنت غرّاً صغيراً !

– تقريباً ، أردف « هوميرو » . – كنت مع حضرتك خلال حملة الجنوب كقائد للفرق الجامعية .

وسبق الرئيس العتاب قائلاً :

– أنا ، في الواقع ، لم أنتبه اليك .

– على العكس ، كان حضرتك لطيفاً معنا ، أضاف « هوميرو » ولكنّا كنّا كثيرين مما يجعل من المستحيل تذكرنا .

– وبعد ذلك ؟

– من يعرف ما جرى أفضل من حضرتك ؟ قال « هوميرو » . – بعد الانقلاب العسكري ، يبدو انّها معجزة أن نكون نحن الاثنان هنا ، جاهزين لأكل نصف ثور . ليسوا كثيرين هؤلاء الذين كان لهم مثل حظنّا .

في هذه اللحظات ، أحضروا لهما صحون الطعام . علّق الرئيس المنديل في عنقه كميدعة الأطفال وأدرك صمت المدعو الممزوج بالدهشة فعلّقت قائلاً : لو لم أفعل ذلك ، لكنت أفقد ربطة في كل وجبة طعام . وقبل أن يبدأ بالأكل أراد أن يتأكد من نضوج اللحم ، فاستحسنه باشارة رضى وعاد الى الموضوع ليقول :

– إن الذي لا أستطيع فهمه هو لماذا لم تقترب منّي من قبل ، بدلاً من أن تتبعني كرجل مخابرات .

آنذاك ، قصّ عليه « هوميرو » بأنّه كان قد عرفه حين رآه داخلاً الى المستشفى من باب محجوز للحالات الخاصّة . كان ذلك في عزّ

الصيف، وكان يلبس بدلة كاملة من الكتان الأبيض لجزر «الأنتيل» بأمريكا الوسطى، بحطاطه ذي اللونين الأسود والأبيض، وزهرة الأقحوان في حلّة سترته وشعره الجميل المنفوش بفعل الريح. تحقّق «هوميرو» من أنّه كان وحيداً في «جنيف»، دون مساعدة من أحد. وكان يعرف المدينة من الذاكرة لأنه كان قد أنهى دراسة القانون فيها. وكانت إدارة المستشفى قد اتخذت، بناء على طلب الرئيس قراراً بالحفاظ على سريّة الأمر. وفي تلك الليلة بالذات كان «هوميرو» قد اتفق مع زوجته على الاتصال به. ومع ذلك فإنّه كان يتبعه لخمسة أسابيع متوالية باحثاً عن الفرصة المناسبة. ولم يكن ربما قادراً على تحيته لولا مواجهة الآخر له.

- يسعدني أنك فعلت ذلك، قال له الرئيس. - مع أنّ الوحدة لا تزعجني.

- ليس هذا عدلاً.

- لماذا؟ سأله الرئيس بصراحة. - الانتصار الأكبر في حياتي هو أني استطعت أن أجعل الآخرين ينسونني.

- نحن نتذكرك أكثر مما تظنّ حضرتك. قال «هوميرو» ذلك دون أن يخفي تأثّره. - أنها لسعادة أن نراك سليماً وشاباً.

فقال الرئيس بلا انفعال: ومع ذلك، فإن كل الدلائل تشير إلى أنني سأموت قريباً جداً. أجابه «هوميرو»:

- إن احتمالات خروجك بخير كبيرة جداً.

قفز الرئيس بدهشة دون أن يتخلّى عن أريحيته .

- آه . عجباً ! هل ألغي في سويسرا الجميلة قانون الكتمان الطبّي ؟

أجابه « هوميرو » : لا تُوجد في أيّ مستشفى في العالم أسرار لسائق إسعاف .

- ما أعرفه الآن ، أعرفه منذ ساعتين فقط من لسان الشخص الوحيد الذي كان عليه أن يعرف .

- على كلّ حال ، حضرتك لن تموت عبثاً ، قال « هوميرو » ، لأنّ أحداً ما سيضعك في المكان اللائق كنموذج للكرامة .

تصنّع الرئيس دهشة هزلية وقال :

- أشكرك على تحذيرك لي .

كان يأكل بنفس الطريقة التي يفعل بها الأشياء الأخرى : ببطءٍ وبعناية فائقة وفي نفس الوقت كان ينظر الى عيني « هوميرو » مباشرة ، بحيث تكون لدى هذا الأخير انطباع بأنّه كان يرى أفكاره . وبعد محاورة طويلة انصبّت على ذكريات الحنين ، ابتسم ابتسامة ماكرة وقال :

- كان قراري هو عدم الاهتمام بجثتي ، الا انني أرى الآن أنّ عليّ أن التزم الحيطة كما لو كنت في رواية بوليسية لكيلا يعثر على جثتي أحد .

قال « هوميرو » مداعباً هو الآخر : لن يقتلك ذلك في المستشفى ليس هناك أي سرّ يمكن أن يدوم اكثر من ساعة .

عندما انتهيا من شرب القهوة ، قرأ الرئيس فنجانه وعاد اليه انقباضه : كانت الرسالة هي ذاتها . ومع ذلك فانّه لم يتوتر . دفع الحساب نقداً ، غير أنّه تأكد من الجمع عدّة مرات وعدّ نقوده باهتمام خاص ومبالغ فيه ، وترك بقشيشاً ضئيلاً لم يستحقّ سوى همهمة عامل المطعم .

– كانت فرصة طيبة ، قالها لـ « هوميرو » عند وداعه إياه . – ليس عندي تاريخ محدّد لاجراء العملية ، ولم أقرر بعد ما إذا كنت سأخضع نفسي لها . ولكن إذا انتهت الامور بخير ، فاننا سنلتقي قبل ذلك ؟

امرأتي « لالارا » هي طبّاخة للأغنياء ، ولا أحد يجهّز مثلها الرُّز مع الجمبري ، ويسعدنا أن تكون حضرتك معنا في البيت في احدى هذه الليالي .

– ثمار البحر ممنوعة عليّ ، ولكنني سآكلها بسرور ، قال الرئيس ، ولكن قل لي متى ؟ أجابه « هوميرو » :

– الخميس هو يوم فراغي . فأردف الرئيس :

– حسناً ، يوم الخميس على الساعة السابعة ليلاً سأكون في بيتك ، وستكون فرصة طيبة . فقال « هوميرو » :

– سأمر أنا على حضرتك . « اقامة دابيس » ١٤ شارع الصناعة . خلف المحطّة . هل هذا صحيح ؟ أجابه الرئيس :

– صحيح ، ونهض من مكانه اكثر أريحية من ى وقت مضى . يبدو أنك تعرف حتى رقم الحذاء الذي ألبسه . أجاب « هوميرو » مسرورا:

– طبعاً ، أيها السيد : واحد وأربعون .

انّ الشيء الذي يقصّه « هوميرو » على الرئيس ، في حين أنه كان يرويه ولأعوام طويلة لكلّ من أراد أن يستمع اليه ، هو أنّ هدفه الأصلي لم يكن بتلك البراءة . كان كغيره من سائقي الاسعاف قد اتّفق مع شركات الدفن والتأمين على بيعهم بعض الخدمات المتعلقة بالمستشفى ، وخاصة فيما يتعلق بالمرضى الأجانب ذوي الدخول المحددة . وكانت الأرباح التي يكسبونها قليلة وكان عليهم أن يتقاسموها مع غيرهم من الموظفين الذين تمرّ بأيديهم التقارير السريّة الخاصة بالمرضى الخطرين . ومع هذا فانّ تلك التجارة كانت سُلواناً جيداً لرجل غريب دون مستقبل ، لا يعيش الآ بالكاد كع زوجته وابنه بمرتب يثير السّخرية .

كانت امرأته « لالارا دابيس » أكثر واقعية . وكانت امرأة سمراء من « سان خوان » في « بورتوريكو » . ناعمة وقويّة ذات بشرة تميل الى لون حلاوة السكّر المحروق وعينين كعيني كلبة شجاعة تلائم طباعها وخلقها . كانا قد تعرّفا الى بعضهما في الخدمات الخيرية للمستشفى ، حيث كانت تعمل كمساعدة في أي عمل يحتاجون اليها ، بعد أن كان أحد تجار بلدها قد ذهب بها الى جنيف لتعمل كمربية أطفال ، ولكنه تركها لتواجه مصيرها . تزوجا على الطقوس الكاثوليكية على الرغم من

كونها أميرة يوروبيّة ، وكانا يسكنان في شقة مكونة من صالون وغرفتين للنوم في الطابق الثامن باحدى البنايات التي يقيم فيها مها جرون أفارقة. كانت لديهم طفلة عمرها تسعة أعوام تدعى « باربارا » وطفل بسبعة أعوام يدعى « لاثارو » ، الذي كانت تبدو عليه بعض علائم التخلّف العقلي كانت « لاثارا » ذكية وذات طباع حادّة ، ولكنها كانت طيبة القلب. كانت تعتبر نفسها خير من يمثل برج الثّور ، وكانت تصدّق بشكل أعمى كل التكهّنات التي تقال عن برجها . وكانت تجلب الى بيتها موارد غير منتظمة ، ومهمّة في بعض الأحيان ، عندما كانت تهيئ العشاء لبعض السيّدات المُثيرات اللاتي يرغبن في الظهور أمام ضيوفهنّ بمظهر لائق ويحاولن ايهام الضيوف بأنّ تلك الأكلات الأنيقة الشهيّة هي من صنع أيديهنّ . أمّا « هومبرو » فكان خجولاً برزانة ، ولم يكن قادراً على فعل أكثر مما كان يفعل ، وكلنّ « لاثارا » لم تكن تفهم الحياة بدونه لبراءة قلبه وحجم سلاحه . كانت حياتهما الاولى مرضية ، غير أنّ السنوات التالية اكثر قسوة وأخذ الأطفال يكبرون . وفي الوقت الذي وصل الرئيس فيه . كانوا قد بدأوا بصرف المدّخرات التي عملوا على توفيرها خلال السنوات الخمس الأخيرة . ولذا فانّ « هومبرو زي » عندما اكتشف وجود الرئيس بين مرضى المستشفى غير المعلن عنهم ، وأفرطوا في الآمال .

في البداية لم يكونوا يعرفون ما الذي سوف يطلبونه منه ولا الحقوق التي سيتقاضونها . فكروا في اللحظة الاولى في أن يبيعوا له خدمات الدّفن الكامل ومن ضمنها التحنيط والنقل الى بلدة ، ولكنّهم

أدركوا شيئاً فشيئاً بأنّ موته لم يكن قريباً كما ظنّوا في الوهلة الاولى . ولكنهما كانا بعد يوم الغداء ذاك مصعوقين بشكوكهما .

والواقع أنّ « هومبرو » ماكان قائد فرق جامعية ولا أيّ شيء من هذا القبيل ، وانّ المرّة الوحيدة التي شارك فيها في حملة الانتخابات ، كانت في ذلك اليوم الذي عملوا فيه الصورة والتي عثروا عليها بشكل معجز بعد أن كانت مفقودة داخل الملابس . غير أنّ حماسة كان حقيقياً ، وكان أيضاً قد أجبر على الفرار من بلده بعد مشاركته في مقاومة الشوارع ضدّ الانقلاب العسكري ، مع انّ السبب الوحيد الذي جعله يستمرّ في العيش في جنيف بعد كل تلك السنوات هو فقرة الروحي . ولهذا فانّ كذبة أقلّ أو كذبة اكثر لا ينبغي لها أن تكون عائقاً أمام حصوله على أفضال الرئيس .

كانت المفاجأة الاولى بالنسبة لهما عندما علما بأن المنفيّ الشهير يسكن في فندق من الدرجة الرابعة في حيّ « غروتي » الكئيب ، ما بين المهاجرين الآسيويين وفراشات الليل ، وأن يأكل وحيداً في دور الفقراء ، في الوقت الذي كانت جنيف مليئة بالاقامات الجيدة اللائقة بسياسيين منكوبين . كان « هومبرو » يراه يوماً بعد آخر يكرّر نفس نشاطات ذلك اليوم . كان قد صاحبه بنظرته على مسافة كانت احيانا قصيرة وخالية من الحكمة في تنزهاته الليلية بين الأسوار الحزينة ونباتات الجريس المتدلية للمدينة القديمة . كان قد رآه مُستغرقاً خلال الساعات الطويلة أمام تمثال «كالفينو» . كان قد صعد خلفه خطوة خطوة في السلّم الحجري ، يكاد يختنق بشذى الياسمين القوي ، لتأمل ساعات الغروب البطيئة في الصيف

من على قمّة «بورغ لي فور» . ورآه في احدى الليالي واقفاً في طابور الطلبة الذين كانوا يودّون سماع كونسرت «روبنستين» . «ولا أدري كيف لم يُصب بنزلة صدرية» ، قال « هوميرو » لزوجته بعد ذلك . وفي السبت الماضي ، عندما بدأ الطقس يتغير ، كان قد رآه وهو يشتري معطفاً خريفياً ، ياقته من جلد السّمّور الاصطناعي ، ليس في المحلات المضيئة لشارع « دي رون » ، حيث يشتري الأمراء اللاجئون ، بل في « سوق البراغيث » .

– اذن ليس بامكاننا أن نفعل أيّ شيء ! قالت « لاثارا» عندما حكى لها « هوميرو » كلّ ذلك . – انّه بخيل تافه ، قد يكون مستعداً لأن يُدفن في قبر جماعي من طرف الرعاية الاجتماعية . لن نحصل منه على أيّ شيء . أجابها « هوميرو » :

– ربّما هو فقير حقاً ، بعد كل سنوات العطالة هذه . ردّت لاثارا . عليه قائلة :

– آه ، أيها الأسود ، أن يكون من برج الحوت الصاعد شيء ، وأن يكون عاهراً شيء آخر . كلّ الناس يعرفون بأنّه نهب كلّ ذهب الحكومة وانّه المنفيّ الاكثر ثراء في « مارتينيكا » . كان «هوميرو» الذي يكبر زوجته بعشرة أعوام قد نما وكبر وهو معجب بخبر أنّ الرئيس كان قد أكمل دراسته وهو يشتغل عامل بناء . في حين انّ « لاثارا » كانت قد ترعرعت بين فضائح الصحفّ المعادية ، المضخمة في أحد البيوت المعادية ، حيث كانت تعمل مربية أطفال منذ صغرها . وهكذا فان « هوميرو » الذي عاد

على وشك الاختناق من الفرح في تلك الليلة بعد أن دعاه الرئيس لتناول الغداء معه ، لم يثر غير دعوته الى مطعم غال أيّ رضى في نفسها . وأصابها الانزعاج لأنّ « هوميرو » لم يطلب منه أيّ شيء من الأشياء التي كانوا يحلمون بها ، بدءاً بمنح للأطفال وانتهاء بوظيفة أفضل لزوجها في المستشفى . وبدا لها بمثابة تأكيد لشكوكها قراره برمي جثته الى الصقور بدلاً من أن يصرف نقوده على دفن كريم ونقل جثته بالشكل اللائق . غير أنّ ماطفح بالكيل هو الخبر الذي احتفظ به « هوميرو » حتى النهاية ، خبر دعوة الرئيس الى بيته لتناول الرّز مع الجمبري ليلة الخميس –

صرخت « لاثارا » : هذا الذي كان ينقصنا ! أن يموت هنا . مسموماً بجمبري العُلب ثم نجد أنفسنا مضطرين على دفنه من مدّخرات الأطفال . غير أنّ وفاءها لزوجها جعلها أخيراً ترضخ للأمر الواقع . واستلفت من احدى جاراتها ثلاثة صحون مصنوعة من الفضّة الألمانية مع ملحقاتها ، ووعاء زجاجياً للسلطة ، وطلبت من جارة أخرى الابريق الكهربائي لعمل القهوة ، ومن ثالثة شرشفاً مطرزاً للمنضدة وفناجين القهوة . استبدلت الستائر القديمة بأخرى جديدة لم يكونوا يستعملونها الا في أيام الأعياد ، ورفعت أغطية الأثاث . وقضت نهاراً كاملاً تنظّف فيه الأرض وتزيل الغبار ، وتبدّل الأشياء من أماكنها حتى استطاعت الحصول على عكس ما كان يناسبها ، وهو اثارة عطف المدعو بفقر الأثاث .

في ليلة الخميس ، وبعد أن تنفّست من شدّة الجهد الذي بذلته لتنظيف سلالم الطوابق الثمانية . . ظهر الرئيس على الباب بمعطفه الجديد وقبعته الصفراء التي انقضى عهدها ، وبيده وردة واحدة فقط جاء بها

هدية لـ « لاثارا » . دهشت هي لرجولته الرائعة ولسلوكه الأميري ، ولكنها بعيداً عن كلّ ذلك رأته كما كانت تظنّه : مزيّف وجشع . وبدا لها قليل حياء ، لأنّها كانت قد هيّأت طبختها بعد أن فتحت نوافذ البيت لئلا يتشبع منزلها برائحة الجمبري ، ومع هذا فانّ أول ما فعله عند وصوله هو تنفّسه بعمق وكأنّه في غيبوبة فجائية ، ثم صاح بعينين مغمضتين وذراعين مفتوحين : « آه ! رائحة بحرنا ! » . وبدا لها اكثر فسحةً من أيّ وقت آخر ، لأنّه أخذ اليها وردة واحدة فقط ، وكان ، بلاشكّ ، قد سرقها من احدى الحدائق العامة . وبدا لها أيضاً عاتياً لنظرة الاحتقار التي وجّهها لقطع الجرائد التي تصور أمجاد رئاسته ، ورايات وأعلام حملته الانتخابية التي كان « هوميرو » قد ثبتها على جدار الصالة ، بحذوه نقاء قلب كبير . بدا لها قاسي القلب لأنّه لم يتوجه ولو بكلمة تحية الى ربارا و « لاثارو » اللذين كانا قد هيّآ له هديّة ، ثمّ انّه خلال ساعة العشاء ، أشار الى شيئين لم يكن يطيقهما وهما : الكلاب والأطفال . لقد كرهته . ومع ذلك فانّ معنى الضيافة الكاريبية قد فرض نفسه على أيّ اعتبار آخر . كانت قد لبست روبها الافريقي الذي اعادت على لبسه في ليالي الأعياد ، وكذا قلائدها وأساورها الدينية ، ولكنها لم تدل خلال العشاء بأيّة اشارة ولم تنطق بأية لكمة زائدة وكانت في منتهى الأدب والإلتزام .

والواقع أنّ الرّز مع الجمبري لم يكن من بين أفضل الأكلات التي تجيد طبخها ، ومع ذلك فانها هيأته باهتمام فائق وخرج بشكل جيد . ملأ الرئيس صحنه مرتين وأفرط في الثناء على الطعام ، وأعجبته كثيراً قطع

الموز الناضج المقليّة وسلطة الأفوكاتو ، رغم أنّه لم يشاركهم حبّهم . اكتفت « لاثارا » قانعة بما سمعته عند تناول الحلوى ، حين أثار «هوميرو» موضوع وجود الخالق ووجد نفسه في طريق مسدود .

– أجل ، أنا أعتقد بوجود الخالق ، قال الرئيس ، ولكنّه مختلف كلّ الاختلاف عن الكائنات البشرية . انّه مشغول بقضايا أهمّ واكبر .

– أنا أعتقد بالأبراج فقط ، قالت « لاثارا » ، وتفحّصت ردّة فعل الرئيس . ما هو يوم ولادة حضرتك ؟

– الحادي عشر من آذار .

– لم يكن ممكناً أن يكون غير ذلك ، قالت بشيء من التوتر والشعور بالنصر وسألته بنبرة لطيفة : أليس كثيراً أن يكون اثنان من برج الحوت على مائدة واحدة ؟

كان الرجلان مستمرين في حديثهما عن الخالق ، عندما ذهبت هي الى المطبخ لاعداد القهوة . كانت قد رفعت جميع لوازم الطعام وكانت ترجو أن تنتهي ليلتها على خير . وعند عودتها الى الصالون تحمل صينية القهوة ، وصلتها جملة عابرة صدرت عن الرئيس تركتها مذهولة :

– لا تشكّ ، يا صديقي العزيز ، بأنّ أسوأ ماجرى لبلدنا المسكين هو أن كنت أنا رئيساً له .

رأى « هومبرو » « لاثارا » عند الباب وهي تحمل الفناجين الصّينية وابريق القهوة المستعار وظنّ بأنّها سوف يُغمى عليها . وحدّق فيها الرئيس أيضاً وقال : « لا تنظري اليّ هكذا ، أيتها السيدة ، انني أتكلم من كل قلبي » .

وبعد ذلك توجه الى « هومبرو » منهياً :

– من حسن الحظّ انني ادفع الآن غالياً ثمن حمقي .

صَبّت « لاثار » القهوة وأطفأت مصباح المائدة الوسطى الذي لم يكن يرحم وكان يعرقل مجرى الحديث وأصبحت الصالة في شبه ظلّ مريح . واهتمت لأول مرّة بالضيف الذي لم يكن ظرفه ليبدّد حزنها . وازداد فضولها عندما انتهى هو من شرب قهوته ثم قلب الفنجان لتستقرّ ترسباتها . قصّ لهم الرئيس في المحادثة التي تلت العشاء بأنّه كان قد اختار جزيرة «مارتينيكا » مكاناً لنفيه بسبب الصداقة التي تربطه بالشاعر « أيمي سيمسايري » الذي كان قد نشر لتوه آنذاك ديوانه « كرّاس العودة الى البلد الأمّ » ، والذي وفّر له المسّاعدة لبدء حياة جديدة، وبقية الميراث الذي كانت زوجته قد استلمته ، اشتريا منزلاً مبنيّاً من الخشب في تلال « فورت دي فرانس » ، وكانت نوافذه مغطاة بالسلك المعدني ، وكان يتوفر على شرفة بحرية مليئة بالزهور الغريبة ، حيث كان النوم هناك متعة كبيرة ما بين جلبة الجداجد والنسائم المحملة بعطر عسل قصب السكّر ومشروب الروم المعمول من القصب والمطحون في مطاحن خاصة . بقي هناك مع زوجته التي كانت تكبره بأربعة عشر عاماً والتي كانت مريضة

منذ ولادتها الوحيدة ، محاصراً بمصيره ذلك ، ممضياً أوقات فراغه في قراءة الكتّاب اللاتينيين الكلاسيكيين ، وباللغة اللاتينية ، مقتنعاً بأنّ ذلك النشاط ، انما هو خاتمة حياته . وكان عليه أن يقاوم خلال سنوات اغراءات المغامرة التي كان يقترحها عليه اتباعه المبعدون .

– غير أنني لم أعد الى فتح آية رسالة أبداً ، قال ، منذ أن اكتشفت بأنّ الرسائل الأشد استعجالاً ، لم تكن كذلك حتى بعد اسبوع من استلامها ، وحتى كاتبها لم يكن يتذكرها بعد مرور شهرين من كتابتها .

نظر الى « لاثارا » من خلال الضوء الشاحب عندما أشعلت سيجارة ، فتناولها منها بحركة جشعة من أصابعه . أخذ منها نفساً عميقاً واحتفظ بالدّخان في بلعومه . أصيبت «لاثارا » بالدهشة وتناولت علبة السجائر والكبريت وهمّت باشعال أخرى ، غير أنّه أعاد اليها السيجارة المشعولة ، قائلاً : « انك تدخنين بأستاذية كبيرة يصعب عليّ معها مقاومة اغراء التدخين » . ثمّ اضطرّ على اطلاق الدخان المحتبس في بلعومه ، لأنّه أخذ يسعل قليلاً .

– تركت التدخين منذ سنوات كثيرة ، الاّ أنّه لم يتركني بشكل كامل ، ثم أضاف : وفي بعض الأحيان استطاع أن يغلبني ، كما هو الآن.

هزّه السعال مرتين أخريين ، وعاد اليه الألم . نظر الرئيس الى ساعته الجيبية وتناول قرصي الليل ثم تفحّص قعر الفنجان : لم يكن هناك أيّ

تغيير ، غير أنّه لم يصب هذه المرّة بالفزع .

– بعض أتباعي القدماء صاروا رؤساء بعدي ، قال الرئيس .

فأجابه « هوميرو » : ساباغو . ثم علّق الرئيس :

– « ساباغو » وآخرون ، كلهم مثلي ، إغتصبنا شرفاً لم نكن نستحقّه في مهنة لم نكن نجيدها . البعض يطلب السلطة فحسب ، لكن الغالبية تبحث ما هو دون ذلك : الوظيفة .

غضبت « لاثارا » وتوجّهت اليه بسؤالها :

– هل تعرف حضرتك ما الذي يقال عنك ؟

تدخّل « هوميرو » فزعاً :

– انّه كذب .

–كذب وغير كذب ، قال الرئيس بهدوء سماوي – عندما يتعلق الأمر بأحد الرؤساء ، فانّ اسوأ انواع الخازي يمكن أن تتوفر على الشيئين في نفس الوقت : الصّدق والكذب .

كان قد عاش في « مارتينيكا » كلّ أيام نفيه ، دون أن يكون له أي اتصال بالعالم الخارجي ، سوى الأخبار القليلة التي كان يطّلع عليها في الصحيفة الرسمية ، مستمراً ومواظباً على دروس اللغة الاسبانية واللاتينية في احدى المدارس الرسمية ، اضافة الى بعض الترجمات التي كان ينجزها بناء على طلب « أيمي ثيساري » كانت حرارة شهرآب لاتطاق وكان

يبقى في الارجوحة حتى منتصف النهار على ايقاع المروحة ذات الريش الموجودة في غرفة النوم . وكانت زوجته تشغل نفسها بالاعتناء بالطيور التي كانت ترعاها وهي طليقة ، حتى في ساعات الحرارة العالية ، محمية من الشمس بواسطة قبّعة عريضة من القشّ ومزينة بأثمار اصطناعية وزهور قطنية . وعندما كانت درجة الحرارة تأخذ بالهبوط ، كانت الأجساد تشتهي النسائم العليلة في الشرفة ، وهكذا فقد كان الزوج يحدّق بالبحر حتى تهبط عليه الظلمات وتبتلعه ، وأما هي فانها كانت تقبع في كرسيّها الهزّاز المصنوع من عود الصفصاف ، وقبعتها المشرومة وخواتمها الاصطناعية في جميع الأصابع ، تراقب مرور السّفن العالمية . « هذه تذهب الى بويرتوسانتو » ، كانت تقول ، « وهذه لاتكاد تستطيع الابحار بسبب حملها من عيني « بويرتوسانتو » .

وجميع السفن المارّة كانت تبدو لها بانّها ذاهبة الى بلدها . وكان هو يمنحها الأذن الطرشاء ، مع أنها في النهاية استطاعت أن تنسى أفضل منه ، لأنها فقدت الذاكرة ، وعلى تلك الشاكلة ، كانا يجلسان حتى ساعات الفجر المدويّة ، حيث كانا يدخلان الى البيت منهكين ، متعبي السيقان . وفي شهر آب لاحدى السنوات ، وبينما كان يتصفّح الجريدة في الشرفة ، قفز الرئيس مندهشاً :

– يا للعجب ! لقد متّ في « استوريل » ! فزعت الزوجة من الخبر ، رغم أنها كانت تحلّق في وسنها . كان الخبر عبارة عن ستة أسطر في الصفحة الخامسة من الجريدة التي كانت تطبع على بعد خطوتين من داره ،

والتي كانت تنشر له بعض الترجمات بين الحين والحين ، وكان مديرها يزوره بين فترة وأخرى . ومع ذلك فانها تقول في خبرها المنشور بأنّ الرئيس قد توفي في « استوريل » في « لشبونة » ، منتجع وحماية اوروبا الآيلة الى الانحطاط ، والواقع انه لم يكن هناك مطلقاً ، وربما هو المكان الوحيد في العالم الذي لا يرغب أن يموت فيه . ماتت زوجته بالفعل بعد عام واحد معذبة من الذكرى الوحيدة التي كانت تتذكرها في أيامها الأخيرة : ذكرى ولدها الوحيد الذي كان قد شارك في خلع والده ، والذي قتل فيما بعد من طرف زملائه .

تحسّر الرئيس وقال : « هكذا نحن ، وليس هناك أيّ شيء يمكن أن يحررنا » . « قارة حُبلى بحثالات الكون أجمع بدون لحظة حبّ : أولاد من ثمار الخطف والاغتصاب وتعامل السوء والخداع والعداوة » . وواجه عيني « لاثارا » الأفريقيتين اللتين كانتا تتفحصانه بلا رحمة وحاول أن يهدأها بحنكة الأستاذ المجرّب .

– انّ كلمة هجين تعني خلط الدموع مع الدماء الجارية . ما الذي يمكن أن ينتظره أحدنا من مشروب كريه كهذا ؟

حدّقت فيه « لاثارا » بصمت ثقيل كصمت الأموات . غير أنّها تمالكت نفسها قبل منتصف الليل بقليل وودعته بقبلة رسميّة . ورفض الرئيس فكرة أن يصاحبه « هوميرو » الى الفندق ، ولكنه لم يستطع منعه من مساعدته في الحصول على سيارة تكسي . وعند عودته الى المنزل ، وجد « هوميرو » امرأته منهارة من الغضب . وقالت له :

– انّه الرئيس الأشدّ انطراحاً في كلّ العالم ، انّه ابن عاهرة حقيقي .

وعلى الرغم من محاولات « هوميرو » لتهدئتها ، فانهما قضيا ليلة مروّعة كانت « لاثارا » تعترف بأنّه من أكثر الرجال الذين شاهدتهم حسناً . ذو قدرة ساحقة على جذب النساء وذو رجولة مميّزة . « انّه على شيخوخته وتعبه لابُدّ أن يكون مثل نمر في السّرير » ، قالت « لاثارا » ، مع انّها كانت تعتقد بأنّ الرئيس كان قد بذّر مواهبه التي منحها اياه الخالق في امور متصنّعة . ولم تكن تتحمل تبجحاته مدّعياً بأنّه كان أسوأ رئيس لبلدها . ولا دعاواه الزاهدة ، لأنّها كانت تعلم بأنّه كان يملك نصف ألمعية « ماريتيكا » . ولا نفاقة بدعوى احتقاره للسلطة ، لأنها كانت تدرك بجلاء بأنّه مستعد لدفع كل ما يملك في دنياه لكي يعود الى الرئاسة ولو لدقيقة واحدة ليجعل أعداءه يلعقون التراب .

– وكلّ هذا ، أضافت « لاثارا » ، لكي نخضع له ونكون عند قدمية . وعلّق « هوميرو » على كلامها قائلاً :

– وما الذي يمكن أن يكسبه من هذا ؟

– لا شيء ، قالت « لاثارا » ، غير أنّ التبجّح مرض لا علاج له. كان غضبها شديداً الى الحدّ الذي لم يستطع « هوميرو » تحملها في تلك الليلة في السرير ، فذهب لقضاء باقي ليلته على كنبة الصالون ملتفاً بدثار. نهضت « لاثارا » أيضاً في ساعات الفجر الاولى عارية من كل شيء ، تماماً كما اعتادت أن تنام يومياً وكذا عند تواجدها داخل البيت ، وأخذت تحدّث نفسها في حوار ذاتي . وخلال لحظات معدودة

أزالت من ذاكرة الانسانية كلّ أثر لذلك العشاء غير المرغوب فيه ، فاعادت عند ظهور الخيوط الاولى للنهار الأشياء المستعارة ، واستبدلت الستائر الجديدة بالقديمة وأعادت قطع الأثاث الى أماكنها ، حتى عادت الدار الى حالتها قبل الليلة الماضية بفقرها وبساطتها . وأخيراً أزالت قصاصات الجرائد والصور والرايات والأعلام الخاصّة بالحملة الانتخابية البغيضة ، ورمت بها الى صندوق القمامة ، صارخة :

– الى الجحيم !

وبعد مرور اسبوع على ذلك العشاء ، وجد « هوميرو » الرئيس في انتظاره عند باب المستشفى ، مترجّياً اياه أن يصاحبه حتى الفندق صعدا الطوابق العالية الثلاثة ، حتى وصلا الى فسحة لم تكن بها الا فتحة واحدة لدخول النّور ، وكانت مفتوحة على سماء رماديّة ، وكان هناك حبل غسيل نشرت عليه بعض الملابس لتجفّ . وكان هناك سرير كبير يملأ نصف المساحة وكرسي بسيط وابريق وحوض متنقل للغسل ودولاب ملابس ذو مرآة مغبّشة . أحسّ الرئيس بشعور « هوميرو » فقال له :

– انّه نفس الجُحر الذي قضيت فيه سنوات دراستي . قال ذلك وكأنّه يعتذر من « هوميرو » . – لقد حجزته من « فورت دي فرانس » .

أخرج كيساً مخملياً وسحب منه ما تبقى له من ثروة وفرشها على السرير : بعض الأساور الذهبية المرصّعة بأحجار مختلفة ، قلادة من اللؤلؤ بثلاث دورات وقلادتان من الذهب والأحجار الكريمة الأخرى ، وثلاث

سلاسل ذهبية بها ميداليات دينية وقرطان من الذهب المرصّع بالزمرّد وقرط آخر مزيّن بالماس وآخر بالياقوت ، ووعاءات لحفظ الذخائر الدينية ومشبكات للشعر وأحد عشر خاتماً ملبّسة بأحجار متنوعة ، وطوق للشعر مزيّن بأحجار برّاقة ربما كان في زمانه لاحدى المَلكات ، وبعدها أخرج من علبة أخرى ثلاثة أزواج فضية من أزرار القمصان وزوجين ذهبيين مع مشابكها الخاصة بالأربطة ، وساعة جيبية مطلية بالذهب الأبيض . وأخيراً أخرج من احدى علب الأحذية أوسمته الستّة : اثنان ذهبيان وواحد فضي والباقية من المعادن العادية.

– هذا هو كلّ ما تبقّى لي في الحياة ، قال لـ « هوميرو » .

لم يكن عنده أيّ اختيار آخر سوى بيع أشيائه لاكمال المصاريف الطبية ،.وكان يتمنى أن يقوم « هوميرو » بمساعدته على بيعها وكتمان الأمر تماماً . في حين أنّ « هوميرو » لم يكن يظنّ بأنّه قادر على مساعدته مالم يأته الرئيس بقوائم الشراء .

شرح له الرئيس بأنّ تلك الأشياء كانت من نفائس زوجته الموروثة من جدّة ذات أصل استعماري والتي كانت قد ورثت بدورها لامتلاكها مجموعة من الأسهم في مناجم الذهب بـ « كولومبيا » بينما كانت الساعة وأزرار القمصان ومشابك الأربطة تعود اليه هو . أما الأوسمة فانها، بالطبع ، لم تكن من قبل لأحد آخر غيره .

– لا أعتقد انّ أحداً يمكن أن تكون عنده وصولات بأشياء كهذه ، قال الرئيس لـ « هوميرو » . في حين انّ هذا الأخير لم يتزحزح عن موقفه

فكّر الرئيس ثم قال : – في هذه الحالة ليس لي سوى مواجهة الواقع . أخذ يجمع النفائس بهدوء محسوب ، وقال : « أرجوك أن تعذرني ، أيها العزيز « هوميرو » ، غير أني أودّ أن أؤكد لك بأنه ليس هناك فقر أسوأ من فقر رئيس فقير ، وحتى التمسّك بالحياة يبدو عاراً » . في هذه اللحظة رآه « هوميرو » بقلبه وتخلّى له عن شروطه .

وفي تلك الليلة ، عادت « لاثارا » الى البيت متأخرة ، وشاهدت من عند الباب تلك النفائس تلمع تحت بريق نور الصالون الزئبقي ، وكان ردّ فعلها كما لو أنها شاهدت عقرباً في سريرها ، وقالت لزوجها فزعة :

– لا تكن فظاً ، أيها الأسود ، لماذا جئت بهذه الأشياء الى هنا ؟

أقلقتها اجابة « هوميرو » اكثر وجلست تفحص الجواهر واحدة واحدة ، بدقّة كدقّة الصائغ . وفي احدى اللحظات تحسّرت وقالت : «لابُدّ أنها ثروة » .

وأخيراً بقيت تنظر الى « هوميرو » دون أن تجد مخرجاً لورطته .

– يا للعجب ! كيف يمكن للواحد ان يعرف إن كان كل ما يقوله هذا الرجل هو صحيح ؟

– ولم لا ، قال « هوميرو » ، انني رأيت منذ قليل بأنه نفسه يغسل ملابسه ويجففها في غرفته بتعليقها في سلك كما نفعل نحن .

– لبخله ، أجابته « لاثارا » .

– أو ربّما لفقره . قال « هوميرو » .

عادت «لاثارا» إلى تفحص النفائس، ولكن بدقة أقل هذه المرة لأنها اقتنعت هي الأخرى أيضاً. وهكذا ففي صباح اليوم التالي لبست أفضل ملابسها وتزينت بالمجوهرات التي كانت تبدو لها أكثر غلاء. وضعت في أصابعها كل الخواتم التي كان بإمكانها أن تضعها وحتى في إبهامها، وهكذا شأن الأساور في ذراعيها، وذهبت لبيعها. قالت عند خروجها مُتباهية ومبتسمة:

- لنرَ من يتجرأ على طلب وصولات من «لاثارا دايس».

اختارت دكان المجوهرات المناسب الذي عرف بالخيلاء أكثر من جودة السمعة.

وكانت متيقنة بأنّهم هناك كانوا يبيعون ويشترون دون طرح الكثير من الأسئلة، ودخلت مرتعبة ولكن بخطوات ثابتة.

استقبلها أحد البائعين بالحماسة مسرحية، وكان يلبس لباس الحفلات، وكان ضعيفاً وشاحباً، فقبّل يدها وهبّ لمساعدتها. كان داخل المحل أكثر إنارة من وضح النهار بسبب المرايا والأضواء القويّة، وكان الدكان كلّه يبدو وكأنّه من اللؤلؤ. ولم تنظر «لاثارا» إلا بالكاد إلى الموظف، خوفاً من أن تكتشف المهزلة، فاستمرّت حتى آخر المحلّ.

دعاها الموظف إلى الجلوس عند أحد المكاتب الثلاث الموجودة من نوع «لويس الخامس عشر»، والتي كانوا يستعملونها بمثابة طاولات فردية،

ونشر عليه منديلاً نظيفاً، ثم جلس مقابل «لاثارا» وانتظر.

- ما هي المساعدة التي يمكنني أن أقدمها لك؟

خلعت هي الخواتم والأساور والأقراط وكلّ ما كان ظاهراً للعيان، وأخذت تضعها فوق المكتب في نظام وكأنّها قطع شطرنج.

- كلّ ما أريد أن أعرفه هو ثمنها الحقيقي، قالت له «لاثارا».

ركّب الجوهري عدسته على عينه اليسرى وبدأ يفحص المجوهرات بصمت طبيّ. وبعد وقت ليس بالقليل، ودون أن يترك اختباره للنفائس سأل:

- من أين حضرتك؟

- آه، يا سيدي - تحسّرت - من مكان بعيد جداً.

- أتصوّر ذلك، قال هو.

عاد إلى صمته، بينما كانت «لاثارا» تتفحصّه بلا رحمة بعينيها اللعينتين المرعبتين.

خصّ الجوهري طوق الشعر المرصّع بالماس باهتمام استثنائي وعزله عن باقي المجوهرات.

تنهّدت «لاثارا» وقالت:

- لا شكّ أن حضرتك من برج العذراء.

لم يترك الجوهري فحصه للنفائس، ولكنه توجه اليها بسؤاله:

- كيف تعرفين ذلك؟

- من خلال التصرّف والسلوك، قالت «لاثارا».

لم يصدر منه أيّ تعليق حتى انتهى من عمله. حينذاك توجه اليها بنفس رزانته الاولى قائلاً:

- من أين جئت بكل هذا؟

- انّه ميراث جدّة، قالت «لاثارا» بصوت حاد، توفيت في السنة الماضية في «باراماريبو» عن عمر سبعة وتسعين عاماً.

نظر الجوهري حينذاك الى عينيها وقال لها:

- انني آسف جداً، ان القيمة الوحيدة لهذه الأشياء هو ما تزنه الأشياء الذهبية.

أخذ الجوهري الطوق بأطراف أصابعه وجعله يلمع تحت الضوء الساطع، وقال:

- عدا هذا، انه قديم جداً. قد يكون مصرياً ولولا سوء حالة الأحجار الكريمة التي ترصعه لكان من الصعب تقييم ثمنه. ولكن مع ذلك فان له قيمة تأريخية معينة.

في حين أحجار الجواهر الأخرى كالياقوت الحمري والزمرّد

والياقوت والأوبال ، كلها بلا استثناء كانت زائفة . « لا شكّ أنّ الأصلية كانت جيدة » قال الجوهري ، بينما كان يجمع الأشياء لاستعادتها اليها . « غير انّ انتقالها من يد الى أخرى ، جيلاً بعد جيل ، أدّى الى فقدان الأحجار الأصلية التي أستبدلت بقواعد القناني الزجاجية » . شعرت لاثارا بغثيان حاد وتنهّدت بعمق وتسلّط عليها الفزع ، غير انّ الجوهري قال لها بنبرة تعزية :

– يحدث هذا باستمرار ، ياسيدة .

– إنني أعلم ذلك ، قالت « لاثارا » بارتياح . لهذا أريد أن أتحرّر منها .

شعرت حينذاك بانها أصبحت خارج اطار المهزلة وعادت الى طباعها الحقيقية . وبدون لفّ أو دوران أخرجت من حقيبتها أزرار القمصان والساعة الجيبيّة ومشابك الأربطة وأوسمة الذهب والفضّة وباقي الحاجات الشخصية للرئيس ووضعت كلّ ذلك على المكتب .

– وهذا أيضاً ؟ سأل الجوهري .

– كل هذا . أجابته « لاثارا » .

كانت الفرنكات السويسرية جديدة الى الحدّ الذي جعلها تخاف من أن تتطلي أصابعها بحبرها الرّطب . استلمها دون أن تعدّها ، وودّعها الجوهري عند الباب بنفس مراسيم الاستقبال . وقبل خروجها بلحظة عندما كان الجوهري يمسك بالباب الزجاجي ليسمح لها بالمرور، قال لها:

– الشيء الأخير الذي أود أن أقوله لك ، ياسيدة ، هو أني من برج الدلو .

في أول الليل أخذ « هومبرو » و « لاثارا » النقود الى الفندق . وبعد أن عمل الرئيس حساباته ، وجد أنّه ما زالت تنقصه بعض النقود ، ولذا فانّه أخذ يخلع الأشياء الثمينة التي كان يحملها ويضعها على السّرير كخاتم الزواج والساعة ذات السلسة وزوج من الأزرار ومشبك الرباط التي كان يستعملها هو .

أعادت « لاثارا » له الخاتم ، قائلة :

– هذا لا ، ذكرى كهذه لا يمكن أن تباع .

قبل الرئيس ملاحظتها تلك وأعاد الخاتم الى اصبعه . وأعادت اليه أيضاً ساعته الجيبيّة ومع انّ الرئيس لم يكن متفقاً معها في ذلك ، فانّها أعادتها الى محلها في السّترة .

– كيف يمكن لأحد أن يبيع ساعات في سويسرا ؟

– لقد بعنا واحدة . أجابها الرئيس .

– أجل ، بسبب الذهب لا بسبب الساعة .

هذه الساعة أيضاً من ذهب ، قال الرئيس .

– نعم ، أضافت « لاثارا » ولكن حضرتك يمكن أن تبقى بدون اجراء العملية اللازمة ، ولكن لن تبقى دون معرفة الوقت .

ورفضت أيضاً الاطار الذهبي للنظارات ، على الرغم من أنّه كان يمتلك آخر من الباغة . وزن الأشياء بيده ووضع حداً لشكوكه قائلاً :

– ومع ذلك فاننا ببيع هذه الأشياء سنحصل على ما يكفي .

وقبل أن تخرج « لاثارا » من بيته ، تناولت الغسيل المنشور الرطب دون أن تستشيره في ذلك ، وحملته الى بيتها لتجفيفه وكيّه . غادرا على الدّراجة النارية التي كان يقودها « هومبرو » ، بينما كانت « لاثارا » راكبة خلفه ، تمسك به من خصره . كانت أنوار الشوارع العمومية قد أشعلت لتوها في ذلك المساء البنفسجي ، وكانت الريح قد أزالت الأوراق الأخيرة . أمّا الأشجار فانها كانت تبدو وكأنّها آحافير متوفة . وكان أحد الجرّارات هابطاً من « زودانوا » وكان صوت الراديو المنبعث منه عالياً جداً ، حيث كان « جورج براسنس » يغنّي :

ياحبيبي ، أمسك المقود جيداً ، لأنّ الزمن سيمرّ من هناك .

والزمن وحش من صنف « أتيلا » الذي إذا مرّ حصانه بأرض ، زال منها كلّ أثر للحبّ .

« هومبرو » و « لاثارا » كانا في طريقهما نشوانين بكلمات الأغنية وشذى زهور الزعفران الجميل . وبعد دقائق بدت « لاثارا » وكأنّها استفاقت من حلم طويل وقالت :

– اللّعنة !

– ماذا ؟

– العجوز المسكين ، ما أتعس حياته !

في يوم الجمعة التالي ، السابع من اكتوبر (تشرين أول) ، أجريت للرئيس عملية دامت خمس ساعات ، تركت الامور غامضة كما كانت ولو مؤقتاً . والحقّ أنّ العزاء الوحيد هو أنّه كان حيّاً . وبعد مرور عشرة أيام نقلوه الى غرفة مشتركة مع مرضى آخرين وتمكنوا من زيارته. كان شخصاً آخر :

مبللاً وشاحباً ، بشعر خفيف كان يتساقط بمجرد ملامسته للوسادة . ولم تبق له من خفّته السابقة سوى سلامة حركات يديه . كانت محاولاته الاولى للمشي بمساعدة عكازين طبّيّين تكسر القلب . كانت « لاثارا » تبيت عنده لتوفّر عليه أجرة ممرّضة ليليّة . وقضى أحد المرضى الموجودين معه في الغرفة ليلته الاولى يصرخ فزعاً من الموت ، واستنفدت سهرات الليالي الطويلة آخر ما تبقى لـ « لاثارا » من صبر وكتمان .

وبعد مرور أربعة أشهر على وصوله الى « جنيف » أخرجوه من المستشفى . دفع « هومبرو » الذي كان قد تحول الى مدير حسابات للرئيس ولرأس ماله الفقير ، دفع حساب المستشفى ، وأخذه في اسعافه بمساعدة موظفين آخرين ، أعانوه على الصعود به الى الطابق الثامن . استقرّ هناك في غرفة الأطفال الذين لم يعترف بهم مطلقاً . وشيئاً فشيئاً أخذ يعود اليه وعيه . اجتهد في تنفيذ تمارين اعادة التأهيل بنظام عسكري ، وعاد الى

المشي بمساعدة عكاز واحد . ولكنّه حتى عندما كان يلبس أفضل ملابسه، فانّ لم يكن يشبه كثيراً ما كان من قبل ، لا في مظهره ولا في طباعه . ونتيجة لخوفه من الشتاء القاسي الذي كان على الأبواب والذي أعتبر فيما بعد أسوأ شتاء مرّت به البلاد خلال قرن من الزمان ، فانّه قرر الرّحيل ، خلافاً لنصائح الأطباء الذين أرادوا مراقبته لفترة أخرى ، في سفينة كانت ستغادر « مرسيليا » في الثالث عشر من شهر ديسمبر (كانون أوّل) .

وفي اللحظات الأخيرة اكتشفوا بأن نقوده لم تكن تكفي ، فأرادت « لاثارا » تكملتها خفية دون علم زوجها بأخذ حفنة من مدّخرات الأطفال ، ولكنها لم تجد هناك أيضاً الاّ الشيء اليسير . حينذاك اعترف لها « هوميرو » بأنّه كان قد أخذ خفية من تلك النقود لتكملة مصاريف المستشفى .

– لابأس ، قالت « لاثارا » بنبرة تنمّ عن الصبر ، لنقُل إنّه ابننا الكبير .في الحادي عشر من ديسمبر (كانو أول) ركّبوه في قطار «مرسيليا» تحت عاصفة من الثلج ، ولم يكتشفوا رسالة الوداع الاّ بعد عودتهم الى البيت . كان قد تركها فوق منضدة الأطفال الصغيرة ، وهناك أيضاً كان قد ترك خاتم زواجه للصغيرة « باربارا » ومعه خاتم زوجته المتوفاة الذي لم يفكر في بيعه مطلقاً . وترك أيضاً ساعته ذات السلسلة لـ « لاثارو » وبما أنّه كان يوم أحد ، فانّ بعض الجيران من أصل كاريبي من الذين اكتشفوا السرّ ، كانوا قد حضروا الى محطة « كورنا ين » مع فرقة من عازفي الجنك من مدينة « فيراكروث » . كان الرئيس خامد

الهمّة، يرتدي معطفه دون اعتناء وفي عنقه لفاف ملون طويل كان من قبل لـ « لاثارا » . ومع ذلك فانّه إستمرّ في مقدمة العربة الأخيرة من القطار يحيي مودّعيه بقبعته تحت ضربات العاصفة . أخذ القطار يتحرك عندما تذكر هوميرو « بأنّ عكّاز الرئيس كان عنده . جرى حتّى طرف الرصيف ورمى به بقوّة لكي يلتقطه الرئيس في الهواء ، غير أنّه سقط تحت عجلات القطار وتحطم . وكانت لحظات مرعبة ، وإن آخر شيء شاهدته « لاثارا » ، كانت يد الرئيس المرتجفة الممدودة لتناول العكّاز الذي لم تلتقطه أبداً ، ورأت أيضاً حارس القطارالذي استطاع أن يمسك بلفّاف العجوز المغطّى بالثلج لانقاذه من السقوط في الفراغ . جرت « لاثارا » مرتعبة للقاء زوجها ، محاولة الابتسام لاخفاء آثار الدّموع.

– يا إلهي ، صرخت « لاثارا » ، هذا الرجل لن يموت أبداً .

وصل سالماً حسبما ذكر في برقية الشكر الطويلة . ولم يصل منه أيّ خبر بعد مرور عام من ذلك . وبعدها وصلت منه رسالة من ستّ صفحات مكتوبة باليد ، كان من المستحيل التعرّف عليه من خلالها . كان الألم قد عاوده ، حاداً ومحافظاً على مواعيده كالسابق . ومع هذا فانّ الرئيس كان قد قرّر عدم الاهتمام بذلك والعيش كيفما اتّفق . كان الشاعر « أيمي ثيسايري » قد أهداه عكّازاً مرصّعاً بالصّدف ، غير انّه قرّر عدم استعماله . وكان منذ ستة أشهر يأكل اللحوم بانتظام وكذا كل أصناف البحريّات ، وكان قادراً على تناول عشرين فنجاناً من القهوة المركزة . غير أنّه لم يعد يقرأ قعر الفنجان لأنّ التكهنات كانت تأتي معكوسة .

وفي يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين ، كان قد شرب عدة كؤوس من مشروب الروم اللذيذ لـ « مارتينيكا » ، شعر معها براحة كبيرة وعاد الى التدخين . لم يكن يشعر ، بالطبع ، بأيّ تحسّن ولا بأيّ تردّي . وكان سبب الرسالة الحقيقي على ما يبدو هو اخبارهم بمشاعر الاغراء التي كانت تنتابه للعودة الى بلده لتولي مسؤولية حركة مجدّدة من أجل قضية عادلة ووطن كريم ، حتى وإن لم يحصل من وراء ذلك الأ على مجد مسكين ، وهو الأ يموت من العجز على فراشه .وفي هذا المعنى كان قد ختم رسالته قائلاً إن سفرته الى جنيف كانت محروسة بالرعاية الربانيّة .

يوليو (حزيران) ١٩٧٩

١ — ملاحظة المترجم : أتيلا (Attila) ملك الهون (٤٣٢ – ٤٥٣)م .انفرد في الحكم ٤٣٤ وغزا الامبراطورية البيزنطية ٤٤١ . هاجم غاليا فكسره آيجوس في الحقول الكاتالونية ٤٥١ . اجتاح مدن ايطاليا دون أن يمسّ روما ٤٥٢ . انقرضت امبراطوريته بعد وفاته . وكان هناك اعتقاد مفاده انّ حصان أتيلا اذا مرّ بمكان ، فانّه لن ينبت فيه الزرع بعد ذلك .

القدّيسة

بعد اثنين وعشرين عاماً رأيت « مارغريتو دوارتي » من جديد . ظهر فجأة في أحد الأزقة السريّة لـ « تراستيفيري » ، وقد وجدت عناء في التعرّف عليه منذ النظرة الاولى لرداءة لغته الاسبانية ولمظهره الذي بدا وكأنه روماني قديم . كان شعره أبيض وخفيفاً ولم يبق فيه أثر من سلوكه الحزين وملابسه الجنائزية وكأنها ملابس محام من جبال الأنديز ، والتي جاء بها الى روما للمرّة الاولى . غير انّ مجرى الحديث أخذ ينقذه شيئاً فشيئاً من غدر السّنوات ، وعدت أراه كما كان في السابق : صامت ومفاجئ ومواظب كمواظبة الحجّار . قبل تناول فنجان القهوة الثاني ، في أحد باراتنا التي كنّا نرتادها في أوقات ماضية ، تجرّأت على التوجّه اليه بسؤال كان يأكلني من الداخل :

— ما الذي جرى للقدّيسة ؟

— انّها هناك ، أجابني ، تنتظر .

فقط أنا ومغني الاوبرا « رفائيل ريبيرو سلفا » كان بامكاننا أن نفهم الثقل الانساني المريع لاجابته .

كنّا نعرف مأساته الى الحدّ الذي جعلني أفكر خلال سنوات بأنّ « مارغريتو دوارتي » شخصية تبحث عن مؤلف . من تلك الشخصيات التي نبقى نحن الروائيين في إنتظارها طيلة حياتنا . واذا لم أسمح له بالعثور عليّ كمؤلف ، فانّ ذلك يعود الى أنّ نهاية قصته كانت تبدو لي مما يصعب تصوّره .

كان قد وصل الى « روما » في ذلك الربيع المشرق ، عندما كان بيو الثاني عشر . يعاني من أزمة الفواق التي عجز عن شفائها الأطباء والسّحرة رغم استعمالهم لجميع الفنون الخيّرة والشريرة التي كانوا يجيدونها . كان قد خرج ولأول مرّة من قريته ذات الانحدارات الشديدة في « توليما » بجبال « الأند » الكولومبية ، وكان هذا بادياً عليه حتى في طريقة نومه . حضر في صباح أحد الأيام الى دائرتنا القنصلية مصحوباً بحقيبة مصنوعة من خشب الصنوبر البرّاق ، وكانت تبدو وكأنّها علبة كمان جهيد ، وفسّر للقنصل السبب الغريب لمجيئه . اتّصل القنصل هاتفياً بمغني الاوبرا « رفائيل ريبيرو سلفا » ، ابن بلده ، لكي يحجز له غرفة في النّزل الذي كنا نسكن فيه نحن الاثنان . وهكذا تعرّفت عليه .

لم يكن « مارغريتو دوارتي » قد تجاوز المدرسة الابتدائية ، غير أنّ حبّه للفنون الجميلة ، كان قد ساعده على تكوين أفضل وأشمل بسبب قراءاته الشرهة لكلّ ما كان يقع بين يديه من مطبوعات . وفي الثامنة عشرة من عمره ، عندما كان يعمل كاتباً في البلدية ، تزوج بفتاة جميلة توفيت بعدها بقليل عند ولادة ابنتها الاولى . وكانت هذه أجمل من أمّها، وتوفيت هي الأخرى بسبب حمّى شديدة عندما كانت في السابعة من

عمرها . غير أنّ القصّة الحقيقية لـ « مارغريتو دوارتي » كانت قد بدأت قبل مجيئه الى روما بستة أشهر عندما اضطروا على تحويل مقبرة القرية بسبب بناء سدّ وككل سكان المنطقة اخرج « مارغريتو » عظام موتاه لنقلها الى المقبرة الجديدة . كانت الزوجة قد تحوّلت الى تراب . وفي القبر المحاذي ، كانت الطفلة على العكس ، إذ لم تتغيّر جثّتها أبداً بعد أحد عشر عاماً من وفاتها . الى درجة أنّه شعر بشذى الورود النّضرة التي دفنت معها عندما فتحوا غطاء تابوتها . والشيء المدهش حقّاً في كل ذلك كان انعدام وزن الجثّة .

امتلأت حينهاالقرية بعثات الفضوليين الذين جذبتهم ضجّة خبر المعجزة . لم يكن هناك أيّ شك في أنّ عدم تفسّخ الجثة انّما هو علامة ، لا تقبل الجدل ، على القداسة . وحتّى أسقف الأبرشية كان متفقاً على أنّ معجزة كهذه ، لا بدّ من اخضاعها الى حكم « الفاتيكان » . ولهذا فانّهم عملوا على جمع تبرعات عموميّة لكي يتمكن « مارغريتو دوارتي » من السّفر الى روما ، ليصارع من أجل قضية ليست قضيته فحسب ولا قضية تخصّ حدود القرية الضيقة ، وانّما هو أمر يتعلق بالوطن كلّه .

وبينما كان « مارغريتو دوارتي » يقصّ علينا حكايته في النّزل الكائن بحيّ « باريولي » الوديع ، فتح قفل الصندوق المحكم ورفع الغطاء ، وهكذا اطّلعنا أنا ومغني الأوبرا « ريبيرو سلفا » على المعجزة . لم تكن مثل المومياءات الذابلات الموجودة في الكثير من متاحف العالم ، بل طفلة تلبس لباس عروس وكأنّها كانت غارقة في نومها بعد اقامة طويلة تحت الأرض . كانت بشرتها ملساء ودافئة وكانت عيناها مفتوحتين وصافيتين

وكانتا توحيان بانطباع بصعب تحمله وكأنّها تنظر الينا من خلال الموت . ولم يقاوم قماش الساتان وأزهار البرتقال الاصطناعية للتاج مرور السنوات، لذا فانّها لم تكن تتمتّع بمثل صحّة بشرة الطفلة . غير أن الأوراد التي وضعت في يديها ، كانت ما تزال حيّة ونضرة . ولم ينقص وزن العلبة المصنوعة من خشب الصنوبر ، فعلاً ، عندما أخرجنا الجثة منه . بدأ « مارغريتو دوارتي » اجراءاته في اليوم التالي لوصوله ، وتلقى في البداية مساعدة دبلوماسية كانت تضامنية اكثر منها فعّالة . وفيما بعد اخذ يستعمل كلّ الحيل التي كانت تطرأ على باله لتجاوز العقبات الكثيرة التي كان « الفاتيكان » يضعها في طريقه . وكان شديد الكتمان بشأن مراجعاته ، ولكن الآخرين كانوا يعلمون بأنّها كانت كثيرة وعديمة الفائدة. كان يتّصل بكافة الجمعيات الدينية والمؤسسات الانسانية التي كان يجدها في طريقه . حيث كانوا يستمعون اليه باهتمام ولكن بدون دهشة ، وكانوا يعدونه بعمل اجراءات سريعة لم تكن تحقق مطلقاً . والواقع أنّ الوقت لم يكن مناسباً لأنّ جميع ما كان يتعلق بالسدّة البابوية ، كان يتم ارجاؤه حتى يتجاوز « البابا » أزمة الفواق التي لم تستعص على وسائل الأطباء الاكاديميين فحسب ، بل كذلك على كل أنواع العلاجات السحّرية التي كانوا يبعثون بها من أرجاء العالم أجمع .

وأخيراً ، وفي شهر يوليو (تموز) تعافى « بيو الثاني عشر » ، وذهب في إجازته الصيفية إلى « كاستيلغاندولفو » . وأخذ « مارغريتو » القدّيسة الى الجلسة الاسبوعية الاولى متأملاً عرضها عليهم . ظهر « البابا » في الفناء الداخلي ، في شرفة منخفضة الى الحدّ الذي تمكّن فيه

«مارغريتو» من رؤية أظفاره المشذّبة جيداً وشمّ نفسه الذي كان يفوح بعطر الخزامى . ولم يتمشّ « البابا » بين السيّاح القادمين من العالم كلّه ، كما كان يتوقع « مارغريتو » ، وانّما ألقى خطابه في ستّ لغات وأنهاه بالتسبيح العام .

وبعد ارجاء الأمر مرّات عديدة ، قرّر « مارغريتو » مواجهة الأمر بنفسه ، فرفع إلى سكرتارية الدولة رسالة مكتوبة بخطّ اليد من مئتين ورقة تقريباً ، ولكنّه لم يحصل من وراء ذلك على أيّة اجابة . ولكنّه كان يتوقّع ذلك ، لأنّ الموظف الذي استلمها بصورة رسمية جافة، لم يكلّف نفسه حتى بالقاء نظرة رسمية على الطفلة الميتة ، كما أنّ الموظفين الذين كانوا يمرّون بقربها ، كانوا ينظرون اليها دون أيّ اهتمام . وروى له أحدهم بأنّهم كانوا قد استلموا في السنة السابقة أكثر من ثمانمائة رسالة يطالبون فيها أصحابها تقديس جثث لم تتفسّخ في أرجاء مختلفة من العالم . وطلب « مارغريتو » أخيراً فحص انعدام وزن الجثة ، غير أنّ الموظّف الذي درس الأمر رفض الاقرار به ، قائلاً :

– ليس هذا الاّ وسوسة جماعية .

في ساعات فراغه القليلة وفي أمسيات أيام الأحد المجدبة في الصّيف، كان « مارغريتو » يقيم في غرفته منهمكاً في قراءة أيّ كتاب يبدو له مفيداً لقضيته . وفي آخر كلّ شهر وبمبادرة شخصية منه ، كان «مارغريتو» يدون في كرّاس مدرسي قائمة مفصّلة لجميع مصاريفه بخطّه الأنيق الذي يحاكي خطوط رؤساء الكنيسة ، من أجل اطلاع المتبرعين من

قريته على تلك الحسابات . وقبل اكتمال العام ، كان يعرف متاهات « روما » كما لو أنّه ولد فيها ، متحدثاً الايطالية بشكل بسيط وبكلمات قليلة مثلما يتحدّث سكان « الأند » اللغة الاسبانية وصار بالامكان مقارنته بأفضل العارفين بطرق التقديس . ولكنّه أمضى وقتاً طويلاً قبل تبديل لباسه الجنائزي وصداره وقبعته الشبيهة بقبعة الحامين ، والتي كانت في روما ، آنذاك ، خاصّة ببعض الجمعيات السريّة ذات الأهداف القطيعة. اعتاد على الخروج مبكّراً جداً مصحوباً بعُلبة القدّيسة ، وكان يعود أحياناً في الليل المتأخّر ، منهوكاً وحزيناً ، ولكنّه كان يحمل في نفسه دائماً فسحة من الأمل تشحذ همته من جديد للمتابعة في اليوم التالي .

– القديسون يعيشون في أزمنتهم الخاصّة ، كان يقول .

كنت أنا في روما لأول مرّة ، أدرس في « المركز التجريبي للسينما » ، وعشت عذابه بحدّة لا تنسى . وكان النّزل الذي تسكن فيه عبارة عن شقّة حديثة على بعد خطوات من « فيّا بورغيسي » ، وكانت صاحبته تشغل غرفتين منه ، وتؤجّر أربع غرف أخرى للطلاب الأجانب . كنّا نناديها « ماريّا الجميلة » وكانت جميلة ومزاجيّة في عزّ خريفها ، وكانت وفيّة لقاعدتها المقدسة التي مفادها أنّ كلّ واحد منّا ملك حرّ في غرفته . والواقع انّ التي كانت تتحمل أعباء الحياة اليومية هي أختها الكبرى « العمّة أنطوانيتا » . كانت ملاكاً بلا أجنحة وكانت تعمل لها ساعات محددّة خلال النهار ، متنقلة في جميع أرجاء الدار ومعها سطلها ومكنستها المصنوعة من الخيش ، تنظّف وتلمّع بكل ما أوتيت من مهارة

مرمر الشقّة وهي التي علمتنا على كل العصافير التي كان زوجها «برتوليني » يصطادها ، وكانت هذه عادة رديئة بقيت لاصقة به من زمن الحرب ، والذي أخذ « مارغريتو » فيما بعد للسكن في بيته ، عندما أصبح عاجزاً عن دفع اجور « ماريّا الجميلة » .

وكانت تلك الدار التي لا يحكمها قانون شديدة الملاءمة لطباع « مارغريتو » . في كلّ ساعة كان يفاجئنا بأمر جديد ، حتى في ساعات الفجر الاولى عندما كان الزئير المرعب لأسد حديقة الحيوانات في « فيا بورغيسي » يوقظنا من نومنا . كان مغني الاوبرا ى ريبرو سلفا » قد اطمأنّ الى أنّ سكان روما لم يكونوا يستاؤون من تدريباته الصباحية المبكرة . لذا فانّه كان ينهض على الساعة السادة ويأخذ حمامه الطبي البارد ، ويعدّل لحيته وحاجبيه الشبيهين بحاجبي « ميفستوفلس » . ولم يكن يستسلم بجسده وروحه الى تدريبات الغناء ، الاّ بعد لبس روبه ذي المربعات الاسكتلندية ولفافه المصنوع من الحرير الصيني و التعطر بالقولونيا الشخصية . كان يفتح نوافذ غرفته على مصراعيها ، في وقت كانت فيه نجوم ليالي الشتاء مازالت بادية في السماء ، يبدأ حينذاك بتسخين حنجرته ، مغنياً جملاً متدرجة الطول في موضوعات غرامية لغاية الانغماس في الغناء بكامل صوته . والشيء الذي كنا ننتظره يومياً هو أنّ مغني الاوبرا عندما كان يخرج نغمة (دو) من صدره ، كان أسد «فيابورغيسي» يجيبه بزئير يكاد يهزّ الأرض .

– انّك « القديس ماركوس » مجسداً ، يا بُنيّ ! . كانت تقول له ذلك « أنطوانيتا » مندهشة بحقّ . – انّه الوحيد الذي كان بامكانه

التحدّث مع الأسود . وفي صباح أحد الأيام ، لم يكن الأسد هو الذي أجابه بزئيره . بدأ مغني الأوبرا احدى ثنائيات الحبّ لـ « أوتيلّو » : فيما مضى وفي ليلة ظلماء ، كان النّواح كلّه واضحاً مميّزاً » . وفجأة ومن عمق القناة وصلنا الجواب بصوت أوبرالي جميل . استمرّ مغني الاوبرا ، وكلا الصوتين غنّيا القطعة كاملة لتسلية الجيران الذين فتحوا نوافذهم لتقديسها بتيّار ذلك الحبّ الذي لا يمكن مقاومته . كان مغني الاوبرا على وشك أن يغمى عليه عندما علم بأن « ديدمونته » الخفية لم تكن سوى «ماريّا كالغليا » العظيمة .

وأظنّ أنّ ذلك الفصل كان السبب الرئيسي لاندماج « مارغريتو » في أجواء البيت ، لأنّه بدأ من يومه الجلوس مع الجميع على المائدة المشتركة، وليس في المطبخ الذي اعتاد عليه منذ البداية ، حيث كانت « انطوانيتا » تدخل على قلبه السّرور بشكل يومي تقريباً بمرقها الرائع الذي يحتوي على العصافير المغرّدة ، كانت « ماريا الجميلة » تقرأ لنا الصحف بعد الانتهاء من تناول الطعام لكي تعوّدنا على التلفّظ الايطالي . وكانت تفسّر لنا الاخبار بتحيّز وظرافة تدخل فيها السّرور على قلوبنا . وفي أحد الأيام قصّت علينا ، بعد أن ورد ذكر القدّيسة ، خبر متحف كبير في مدينة « باليرمو » ، خاصّ بالجثث غير المتعفّنة . وذكرت بأنّ ذلك المتحف مليء بجثث رجال ونساء وأطفال وحتى العديد من الأساقف ، كانوا قد أخرجوا من نفس المقبرة للآباء الكبّوشيين . أقلق الخبر « مارغريتو » واكتفى هناك بنظرة سريعة ألقاها على الجثث الموزعة في الممرّات الكئيبة للمتحف ، ليكوّن لنفسه رأياً معزّياً :

– انّها حالات مختلفة ، قال ، بالنسبة لهؤلاء يلاحظ التأمل بسرعة انّهم موتى .

وبعد الغداء كانت روما تستسلم لخدر شهر آب . كانت شمس منتصف النهار تبقى ثابتة في وسط السماء ، وفي صمت الساعة الثانية ظهراً لم يكن يسمع سوى خرير الماء الذي هو الصوت الطبيعي في روما . ولكن النوافذ كانت تنفتح فجأة في حدود السابعة مساء لتستقبل الهواء العليل الذي يبدأ بالتحرّك ، وتخرج الجماهير فرحة الى الشوارع ليس لها هدف آخر سوى العيش في وسط فرقعة الدراجات النارية وصراخ بائعي البطيخ وأغنيات الحبّ بين زهور الشّرفات . لم نكن أنا ومغني الاوبرا ننام القيلولة ، وكنا نذهب في دراجته النارية لنحمل البوظة والشوكلاتة الى بنات الهوى الصيفيات اللاتي كنّ يحملن تحت زهور الغار المعمّرة في «فيّا بورغيسي» ، باحثات عن سيّاح متيقظين تحت أشعة الشمس . كنّ جميلات وفقيرات وودودات وكغالبية النساء الايطاليات في ذلك الوقت كنّ يلبسن الثياب القطنية الزرقاء أو البُبلين الوردي أو الكتان الأخضر ، وكنّ يحتمين من الشّمس بمظلات تنخرها السوس وآثار الحرب الأخيرة . كانت متعة انسانية كبيرة التواجد معهنّ ، لأنهنّ كنّ يقفزن فوق قوانين المهنة ، وكنّ يحق لأنفسهنّ ترف فقدان زبون جيدّ في سبيل الذهاب معنا لتناول قهوة مصحوبة بمحاورة مُمتعة في أحد المقاهي القريبة ، أو التنزّه معنا في العربات المؤجّرة عبر طرقات الحديقة العامّة ، أو التألم على مصائر الملوك المخلوعين وعشيقاتهم المنكوبات اللاتي كن يركبن الخيل في ساعات الغروب بميادين الخيل . واكثر من مرّة عملنا لهنّ كمترجمين ،

تنقل لهنّ حديث بعض الأجانب الغاوين . لم يكن ذهابنا مع « مارغريتو دوارتي » الى « فيّا بورغيسي » بسببهنّ ، وانّما كان هدفنا هو أن يتعرّف هذا على الأسد . كان يعيش طليقاً في جزيرة صخيرة خالية ومحاطة بخندق عميق . ولم يكد يلمحنا في الطرف الآخر ، الأ وبدأ يزأر بهياج جعل حارسه يدهش منه . اقترب زوار الحديقة مذعورين ، وحاول مغني الأوبرا الاعلان عن هويته بغناء الـ (دو) الصباحيّة : غير أنّ الأسد لم يهتم به . كان يزأر نحونا جميعاً على ما يبدو دون تفريق ، غير انّ حارسه سرعان ما انتبه الى أنّ الأسد كان يزأر وعيناه على « مارغريتو » وهكذا كان : فكلّما تحرك « مارغريتو » ، تحرّك معه الأسد ، واذا اختبأ ، ترك الأسد الزئير . اعتقد الحارس الذي كان دكتوراً في الأدب الكلاسيكي من جامعة « سينا » ، بأن « ماغريتو » لابدّ وأنه كان في هذا اليوم مع اسود أخرى عدته برائحتها . وعدا هذا التفسير الذي كان مرفوضاً لم يجد تفسيراً آخر .

– على كل حال ، قال ، إن زئيره هذا ليس زئير حرب بل زئير حنان ، غير أنّ ما أثار انفعال مغني الأوبرا « ريبيرا سلفا » ، لم يكن ذلك المشهد الاستثنائي ، بل اضطراب « مارغريتو » عندما توقفنا للتحدث مع فتيات المتنزه . روى ذلك عند اجتماعنا على المائدة ، فعلّق البعض بخبث وآخرون بتعاطف ، وكنا جميعاً متفقين على أنّ عملاً طيباً لمساعدة «مارغريتو » قد يخفف عنه وحدته . ضغطت « ماريا الجميلة » متأثرة برقّة قلوبنا على صدرها وكأنها تضم اليها طفلها بحنو ويدين محملتين بالخواتم الإصطناعية قائلة :

– كنت أفعل ذلك احساناً ، لولا عدم تمكني تماماً من هؤلاء الرجال من لابسي الصدار .

وهكذا فقد مرّ مغني الاوبرا بحيّ « فيّا بورغيسي » في الساعة الثانية بعد الظهر ، وحمل معه على دراجته النارية الفراشة التي بدت له اكثر ملاءمة لمنح « مارغريتو دوارتي » ساعة من الصحبة الطيّبة . جعلها تتعرّى في غرفته ثمّ حمّمها بالصابون المعطّر ونشّفها ثم عطرها بماء القولونيا الشخصي ورشّها بغبار الزينة من أعلاها الى أسفلها ، وأضاف الى ذلك البودرة التي كان يستعملها بعد الحلاقة والتي تنبعث منها رائحة الكافور . وأخيراً دفع لها عن الوقت الذي قضته في غرفته ، اضافة الى أجر ساعة أخرى ، ثم وصف لها ما كان عليها أن تفعله خطوة خطوة .

قطعت الفتاة الجميلة العارية فناء الدار المظلّل على أصابع قدميها كحلم القيلولة ، ودقّت دقتين خفيفتين على باب الغرفة الموجودة في آخر الفناء . فتح « مارغريتو دوارتي » الباب وكان حافياً وبدون قميص ، فقالت له :

– مساء الخير ، أيها الشاب . لقد بعثني مُغني الأوبرا . قالت له ذلك بنبرة وحركات تلميذة ثانوية .

شعر « مارغريتو » بخدش كبير في عزّة نفسه ، ولم يتجاوز ذلك الأ بصعوبة . فتح لها الباب ليسمح لها بالمرور . تمدّدت هي على السّرير ، بينما كان هو يلبس قميصه وحذاءه على عجل لاستقبالها بالاحترام اللائق، وبعد ذلك جلس على كرسي الى جانبها وبدأ معها الحديث ،

قالت له الفتاة وهي في غاية التعجّب ، إنّ عليه أن يُسرع لأنّه ليس معها الاّ ساعة واحدة ، ولكنّه لم يُرد أن يفهم .

وبعدها قالت الفتاة بأنّها كانت ، على كلّ حال ، مستعدّة للبقاء معه كلّ الوقت الذي يريده هو ، دون أن يدفع لها ولو سنتيماً واحداً ، لأنّه ليس هناك حسب قولها ، أيّ رجل في العالم يمكن أن يتصرّف أفضل منه. لم تكن الفتاة تعلم ما الذي يمكن أن تفعله ، فأخذت تتفحّص الغرفة بنظراتها فاكتشفت العلبة الخشبية فوق بناء الموقد وسألته إن كان في ذلك آلة سكسفون . لم يجبها « مارغريتو » ، بل توجه الى النافذة وفتح الأبواب الخشبية التي تغطيها لكي يدخل النور ، ثم أخذ العلبة ووضعها على السّرير ورفع غطاءها ، حاولت الفتاة أن تقول شيئاً ، غير أن فكّها ارتخى ولم تنبس بحرف . أو كما قالت لنا فيما بعد : « لقد تجمّدت مؤخرتي » . فرّت مذعورة ولكنّها أخطأت اتجاهها في الممرّ ، والتقت وجهاً بوجه مع العمّة « انطوانيتا » التي كانت ذاهبة لوضع مصباح جديد في ثريّا غرفتي . كان الخوف الذي تمكن من الاثنتين عظيماً الى الحدّ الذي أدّى بالفتاة الى الاعتصام في غرفة مغني الأوبرا ، ورفضت مغادرتها حتى ساعة متأخرة في الليل .

أمّا العمة « انطوانيتا » ، فانها لم تتوصل الى معرفة ما جرى مطلقاً، دخلت الى غرفتي في غاية الرعب ، ولم تستطع تثبيت المصباح في الثريّا لشدّة ارتجاف يديها . سألتها عمّا بها ، فأجابت : « إنّ هذه الدار مفزعة ، وكذا الآن في عزّ النهار » . ثمّ قصّت عليّ باقتناع كبير بأنّ ضابطاً ألمانيا كان يقيم في غرفة مغني الأوبرا خلال الحرب قد خنق

عشيقته في تلك الغرفة .وأضافت بأنها في أكثر من مناسبة قد رأت عندما كانت منهمكة في أشغال البيت ، ظهور القتيلة الجميلة وهي تمشي في ممرّات المنزل . ثم أردفت :

– قبل لحظات رأيتها تمشي عارية تماماً في الممرّ . كانت نسخة طبق الأصل . عادت رتابة فصل الخريف الى المدينة من جديد ، وأغلقت الشرفات الصيفية المزهرة مع بداية هبوب الرّياح الاولى ، وعدنا أنا ومغني الاوبرا الى مكاننا القديم في « تراستيفيري » ، حيث اعتدنا على تناول العشاء مع طلاب معهد الغناء « الكونت كارلو كالكاغني » وبعض زملائي من مدرسة السينما ، من بين هؤلاء الأخيرين كان « لاكس » أكثرهم مواظبة ، وكان يونانياً ذكياً ولطيفاً ، وكانت علّته الوحيدة هي خطاباته المملّة عن الظلم الاجتماعي . ولحسن الحظ ، فان مغنّي الاوبرا ، كانوا قادرين دائماً على اجتياحه بغناء أجزاء قصيرة من الأوبرا وبصوت مرتفع لم يكن يزعج أحداً ، حتى وإن كان بعد منتصف الليل . بل على العكس ، فان بعض السهارى المارّين كانوا ينضمّون الى الكورس ، وكان الجيران يفتحون النوافذ ويصفقون . وفي احد الليالي ، بينما كنّا نغنّي ، دخل « مارغريتو » على أطراف أصابعه كيلا يقاطعنا ، وكان يحمل معه العلبة الخشبية التي لم يجد الوقت الكافي لتركها في النّزل بعد أن ذهب بها لعرضها على خوريّ « سان جوان دي لتران » ، الذي كان معروفاً بتأثيره على « الرهبانية المقدسة للطقوس » . ولمحت بطرف عيني بأنّه وضع العلبة تحت منضدة مزوية ، وجلس معنا حتى ننتهي من الغناء . وكالعادة جمعنا في حدود منتصف الليل عدة منضدات الى بعضها بعد أن خمدت

همّة المجموعة ، وبقينا مجتمعين : هؤلاء الذين كانوا يغنون ونحن الذين كنا نتحدث عن السينما وأصدقاء الطرفين ، ومن بينهم « مارغريتو دوارتي » الذي كان معروفاً لدى المجموعة بالكولومبي الصامت والحزين ، ولم يكونوا يعرفون عنه شيئاً آخر غير هذا . « لاكس » . مدفوعاً برغبة حبّ الاطلاع ، سأله إنْ كان يعرف الكمان الجهيد . ارتعت أنا لما بدا لي من تهوّر يصعب تقدير نتائجه . ولم يستطع مغني الاوبرا الذي تمكّن منه القلق مثلي ، من إصلاح ذات البين . غير أن « مارغريتو » كان هو الوحيد الذي استقبل السؤال بطبيعية تامة .

– ليس هذا كماناً ، قال ، انّه القدّيسة .

وضع العلبة على المنضدة وفتح القفل ثمّ رفع الغطاء . مرت عاصفة من الذهول في أرجاء المطعم . تجمّع الزبائن الآخرون وعمّال المقهى وأخيراً الطبّاخون بصداريهم الملطخة بالدّم ، مذهولين يتأملون المعجزة . أشار بعضهم على نفسه باشارة الصليب وجثت واحدة من الطبّاخات على ركبتيها وجمعت يديها وأخذت تصلّي في صمت ، محكومة بارتجاف الحمّى التي غزت جسدها .

غير أنّنا ، وبعد زوال الانفعال الأول ، وجدنا أنفسنا مغمورين في جدال صارخ حول قصور ونقصان القدسية في زماننا ذاك ، وكان « لاكس » بالطبع اكثرنا تطرّفاً ، وان الشيء الوحيد الواضح الذي خرجنابه من جدالنا ، هو فكرته عن عمل فيلم ناقد من خلال موضوع القدّيسة .

– إنّي متأكد – قال – من أن العجوز « ثيساري » لن يسمح بأن يخرج هذا الموضوع من بين يديه .

وكان يعني « ثيساري ثيافيني » أستاذنا للنصوص والنصوص السينمائية ، وهو واحد من كبار رجال السينما ، وهو الشخص الوحيد الذي كان على صلة شخصية بنا خارج اطار المدرسة . كان يحاول أن يعلمنا ليس قواعد المهنة فحسب ، بل طريقة مختلفة لرؤية الحياة . كان يبدو وكأنّه آلة لخلق موضوعات سينمائية . كانت تخرج منه كعين الماء المتفجرة ، رغماً عن ارادته تقريباً . وكانت تأتيه على عجل مما كان يحوجه الى شخص آخر لكي يرويها له بصوت مرتفع وليصطادها وهي طائرة . وبعد الانتهاء منها فقط ، كانت همّته تخمد . وكان يقول : يؤسفني أن أجد نفسي مضطراً على تصويرها . كان يظن بأنّها كانت تفقد الشيء الكثير من أصالتها على الشاشة . كان يحتفظ بأفكاره في قصاصات مرتّبة حسب موضوعاتها ومربوطة بدبابيس من أطرافها ، وكان يملك الكثير منها ، حيث كانت تملأ غرفة في بيته .

يوم السبت التالي ، ذهبنا للقائه مع « مارغريتو دوارتي » . وبدافع رغبته الشديدة . وجدناه في انتظارنا عند باب منزله في شارع « أنجيلا ميريثي » ، مسحوراً بالفكرة التي نقلناها له بالهاتف . لم يجد الوقت لتحيتنا بلطافته المعهودة ، وأخذ « مارغريتو » الى أحد المكاتب المهيأة وفتح العلبة بنفسه وحصل آنذاك مالم نكن نتصوره ، فبدلاً من أن يجنّ فرحاً كما كان متوقعاً ، أصيب بنوع من الشلل العقلي .

– ! همس مرتعباً .

نظر الى القدّيسة بصمت لمدة دقيقتين أو ثلاث ، وبدون أن ينبس بكلمة ، أغلق العُلبة وقاد « مارغريتو » نحو الباب ، وكأنه طفل يخطو خطواته الاولى . ودّعه وربت على كتفه قائلاً : « شكراً ، يابني ، شكراً جزيلاً ، أعانك الله في صراعك » . وعندما أغلق الباب جاء الينا وسرد علينا حكمه :

– ليست مناسبة للسينما ، ليس هناك من يستطيع تصديقها .

رافقنا هذا الدرس المدهش في الترامواي في العودة . اذا كان هو الذي يقول ذلك ، فليس هناك مجال حتى في التفكير في الأمر : هذه القصّة لن تنفع . في حين أن « ماريا الجميلة » استقبلتنا بالخبر العاجل الذي مفاده أنّ « ثيابتشي » سينتظرنا في نفس تلك الليلة ، ولكن بدون « مارغريتو » .

وجدناه في أحسن حالاته . كان « لاكس » قد أخذ معه اثنين أو ثلاثة من زملائه ، ولكن « ثيابتشي » بدا وكأنّه لم يرهم عندما فتح الباب .

– وجدتها ، وجدتها ، صرخ . سيكون الفيلم كالقنبلة ، اذا رضي « مارغريتو » ببعث الطفلة .

– في الفيلم أو في الحياة ؟ سألته .

– لا تكن أحمق ، قال لي .

ولكنّنا لمحنا بسرعة وميض فكرة تستعصي على المقاومة في عينيه ، ثمّ قال مفكّراً بجدّ :

– الأ اذا كان هو قادرا على بعثها في الحياة الواقعية . إنّ عليه أن يجرّب . كانت مجرّد وساوس طارئة قبل الامساك من جديد بخيط الحديث . أخذ يمشي في المنزل مثل مجنون سعيد ، يشير بيديه ويسرد قصّة الفيلم بصوت قويّ . كنّا نستمع اليه مشدوهين ، وصار عندنا انطباع بأنّه كان يرى المشاهد والصور وكأنّها عصافير فسفوريّة تهرب منه زرافات وتطير بجنون في جميع أطراف البيت .

– في احدى الليالي – قال – وبعد أن مات حوالي العشرين من البابوات الذين لم يستقبلوه ، يدخل « مارغريتو » الى بيته متعباً وهرما ، يفتح العُلبة ويداعب وجه الميّته ويقول لها بكلّ حنان العالم : « من أجل عيني أبيك ، يابنتي ، انهضي وامشي » .

نظر الينا جميعاً وأنهى جملته بحركة تنمّ عن النصر :

– وتنهض الطفلة !

كان ينتظر منا شيئاً ما ، ولكننا كنّا في حيرة من أمرنا بحيث لم نعثر على أيّ شيء لنقوله ، سوى « لاكس » اليوناني ، الذي رفع يده كما لو كان في فصل دراسي ، يطلب الاذن بالكلام .

– مشكلتي أنني لا أستطيع تصديق ذلك . وأمام دهشتنا توجه مباشرة الى « ثيابتشي » قائلاً : اعذرني ، أيّها الأستاذ ، لكنني لا أصدّق ذلك . بدت على « ثيابتشي » علائم الحيرة وقال :

- ولِمَ لا ؟

- لا أدري ، قال « لا كس » متقبضاً . - إن هذا غير ممكن .

- ! صرخ حينها الأستاذ وبصوت يشبه الرّعد ، لابُدّ أنّه سمع في الحيّ كلّه . - إنّ هذا هو اكثر ما يؤلمني من الاسبانيين : انهم لا يعتقدون بالواقع .

في السنوات الخمس عشرة التالية ، وحسب رواية « مارغريتو » ، فانّه كان قد ذهب بالقدّيسة الى « كاستيلغندولفو » ، عسى أن يجد فرصة لعرضها ، وفي أحد اللقاءات التي ضمّ ما يقرب من مائتي حاجّ من أمريكا اللاتينية ، تمكّن من سرد قصّته ، بين دفعات الحاضرين ، على مسامع « جوان الثالث والعشرين » المعروف بلطفه - لكنّه لم يستطع أن يريه البنت ، لأنّه اضطرّ على تركها عند المدخل ، الى جانب مزاود الحجاج الآخرين ، حذراً من أن يقدم أحد على اغتياله . سمعه « البابا » باهتمام بالغ وفي حدود ما كان يسمح به اللقاء والجمهور ، وربت «البابا» على خدّه تشجيعاً له وقال :

- حسناً ، يا بُنيّ - إنّ الله سيكافئك على مثابرتك .

غير أنّه لم يشعر بقرب تحقق حلمه الاّ في عهد المملكة السريعة الزوال للمبتسم « ألبينو لوثياني » ، إذ انّ أحد اقرباء هذا ، وبسبب تأثره بقصته « مارغريتو » قرّر التوسّط . لم يهتمّ بادعاءاته أحد ، غير أنّه وبعد يومين فقط ، وبينما كانوا يتناولون طعام الغداء، اتصل أحد ما تلفونياً

بالنّزل ليترك خبراً عاجلاً وبسيطاً لـ « مارغريتو » : لا ينبغي له أن يتحرّك من « روما » ، لأنّه سيُدعى قبل يوم الخميس الى « الفاتيكان » للقاء خاص، ولم تتحقّق مطلقاً فيما اذا كانت تلك مجرّد مزحة أم لا . كان « مارغريتو » يعتقد بأنّ المسألة جادّة وبقي في حالة انذار . لم يخرج من البيت ، واذا كان يريد الذهاب الى الحمّام ، فانّه كان يُعلن عن ذلك بصوت عال ويقول : « أنا ذاهب الى الحمّام » ، فكانت « ماريّا الجميلة » الظريفة كالعادة والمشرفة على عتبة الشيخوخة ، تطلق قهقهات امرأة متحرّرة ، وتقول بصوت مرتفع :

- تعلم ذلك ، يا « مارغريتو » - قد يناديك « البابا » ، أليس كذلك؟

وفي الاسبوع التالي ، وقبل يومين فقط من الموعد النهائي للمكالمة المعلن عنها ، تهاوى « مارغريتو » أمام الخبر الرئيسي للجريدة التي دفعوا بها من تحت الباب : مات « البابا » . عاش لحظات من الأمل عندما فكّر بأنّ الجريدة يمكن أن تكون قديمة وانهم أخطأوا في جلبها في ذلك اليوم ، لأنه ليس من المعقول أن يموت « بابا » كل شهر . ولكن ، هكذا كان : المبتسم « ألبينولوثياني » الذي تمّ اختياره قبل ثلاثة وثلاثين يوماً ، كان قد أصبح ميتاً في فراشه .

عدت الى « روما » اثنين وعشرين عاماً بعد تعرّفي الأول على «مارغريتو دوارتي» ، وربّما لم أكن أتذكره لولم أكن ألتقي به بالصدفة ، لأنّ وقتي الضيّق لم يكن يسمح لي بالتفكير بأحد . كان المطر يتساقط

باصرار وكأنّه شورية دافئة ، وصارت الأضواء المشرقة القديمة عكره ، وكانت الأماكن التي كنت أحسبها ملكاً لي لأنّها تبعث الشباقي ، قد تحولت الى أماكن أخرى غريبة . كانت البناية التي يوجد بها النزل على حالها ، ولكن لم يكن هناك أحد يعرف شيئاً عن « ماريّا الجميلة » . ولم يكن هناك من يردّ على تلفونات مغني الأوبرا « ريبرو سيلفا » السنّة التي كان قد بعثها لي على مرّ تلك السنوات . وفي أحد الأيام ، ذكرت على الغداء أمام أناس السينما الجدد ، اسم أستاذي ، فخيّم صمت ثقيل على المائدة للحظات ، حتى تجرّأ أحدهم على القول :

– « ثباتيني » ! لم أسمع به مطلقاً .

وهكذا كان : لم يكن هناك من سمع به . كانت أشجار «فيابورغيسي» شحناء تحت المطر . وكان « ميدان الخيل » للأميرات الحزينات قد ابتلعته الأدغال بدلاً من الزهور ، وبدلاً من تلك الصبايا الجميلات ، كانت هناك نساء كأنهنّ بطلات رياضة مخنّثات ومتكرات لجنسهنّ كتنكّر بعض نساء مدريد . والوحيد الذي كان قد بقي حيّاً من مجموع الحيوانات المنقرضة هو الأسد العجوز المصاب بالجرب والزكام ، في جزيرته المحاطة بالماء الراكد . لم يكن هناك من يغنّي ولا من يموت من الحبّ في المطاعم المغلفة بالبلاستيك في ساحة اسبانيا . انّ « روما » التي كنّا نحنّ اليها ، كانت « روما » أخرى قديمة داخل روما القياصرة . وفجأة أدركني صوت كأنّه كان خارجاً من العالم الآخر ، والذي جعلني أتوقفّ حالاً في زقاق « تراستيفري » :

– مرحباً ، أيها الشاعر !

كان هو بعينه ، عجوزاً ومتعباً . كان خمسة بابوات قد توفّوا ، وكانت علائم التداعي الاولى بادية على « روما » ، بينما كان هو لايزال منتظراً . قال لي في الوداع بعد أربع ساعات من ذكريات الحنين : « لقد انتظرت كثيراً وليس من المعقول أن يتأخر الحلّ طويلاً » . قد يتأخر بعض الشهور . ذهب يجرّ خطواته في وسط الشارع بحذائه الحربي وقبّعته التي فقدت لونها وكأنه روماني قديم ، دون أن يحذر من الحفر المليئة بماء المطر ، والتي أخذت الأضواء تتعفّن فيها . حينذاك لم يبق لديّ أيّ شكّ ، وإنْ كنت لم أشكّ من قبل ، في أنّ القدّيس هو نفسه . وبدون انتباه منه ، ومن خلال الجثّة السّليمة لابنته ، كان يناضل في حياته منذ اثنين وعشرين عاماً من أجل قضيته المشروعة والخاصّة لاعلان قدسيته .

أغسطس (آب) ١٩٨١

طائرة الحسناء النائمة

كانت حسناء ومرنة ، ذات بشرة ناعمة بلون الخبز وعينين لوزيتين خضراوين ، وكان لها شعر أملس وأسود وطويل يغطي ظهرها حتى القفا ، وكانت محاطة بهالة من قدم الأصل ، تجعلها قابلة على أن تكون من « اندونيسيا » أو من بلاد « الأند » . كانت ملابسها تدلّ على ذوق رقيق : سترة من جلد الوشق وقميص من الحرير الطبيعي المورّد بشكل خفيف وسروال من الكتّان الخشن وحذاء بلون الورد الجهنّمي . «هذه هي أجمل امرأة شاهدتها في حياتي » ، فكّرت بذلك عندما مرّت بخطواتها الصامتة وكأنها لبؤة ، بينما كنت أنا في الطابور أنتظر لأخذ الطائرة الى « نيويورك » في مطار « تشارلز ديغول » باريس . كان ظهوراً خارقاً للعادة دام لحظات ثم اختفت وسط الجمهور في المدخل .

كانت الساعة التاسعة صباحاً ، وكانت الثلوج تتساقط منذ الليلة السابقة وكان المرور اكثر ازدحاماً من المعتاد في شوارع المدينة ، واكثر بطءاً في الطريق السيّار ، وكانت هناك شاحنات للحمل مصطفة على الأرصفة ، وسيارات ينبعث منها الدخان وسط الثلوج . في حين أنّ الحياة في ممرّات المطار كانت وكأنها استمرار للربيع .

كنت في طابور التسجيل ، خلف امرأة هولندية مسنّة والتي بقيت تتجادل لمدة ساعة تقريباً بشأن وزن حقائبها الاحدى عشرة . بدأ الملل يدبّ في نفسي عندما ظهرت فجأة وجعلتني أكتم أنفاسي ، وهكذا فانني لم أدرك متى انتهى الخصام ، حتى أيقظتني الموظفة من غيبوبتي بنبرة مليئة بالعتاب ، وسألتها معتذراً عمّا اذا كانت هي تؤمن بالحبّ من أوّل نظرة . « طبعاً » قالت لي ، « إنّ صنوف الحبّ الأخرى هي المستحيلة » . تابعت بنظراتها الثابتة شاشة الكومبيوتر وسألتني عن المقعد الذي أفضله : للمدخنين أو غير لغير المدخنين .

– لا فرق عندي . أجبتها متقصداً ، والشرط الوحيد هو الاّ يكون المقعد الى جانب صاحبة الاحدى عشرة حقيبة .

شكرت لي ذلك بابتسامة تجارية ، دون أن تبعد نظراتها عن الشاشة الفسفوريّة ، ثم قالت لي :

– اختر واحد من الأرقام التالية : ثلاثة ، أربعة ، سبعة .

– أربعة

بدت على وجهها ابتسامة هي أشبه ما تكون بابتسامة المنتصر وقالت :

– انني أعمل هنا منذ خمسة عشر عاماً ، وانّ هذه هي المرّة الاولى التي لا يختار فيها أحد الزبائن الرقم سبعة .

وضعت على بطاقة دخول الطائرة الرّقم وسلمتها لي مع باقي أوراقي ونظرت اليّ لأول مرّة بعينين بلون العنب ، كانت نظراتها تلك بمثابة سلوى لي حتى أعود لرؤية الحسناء . وعندها فقط نبهتني الى أنّ المطار كان قد أغلق للتوّ وانّ جميع الرحلات قد تمّ ارجاؤها .

– الى متى ؟

الى أن يشاء الله ، قالت لي بابتسامتها . أعلن الراديو صباح اليوم بأنّها ستكون اكبر عاصفة ثلجية خلال هذا العام .

لقد أخطأ : كانت أكبر عاصفة ثلجية خلال القرن ، غير أنّ الربيع في قاعة انتظار الدرجة الاولى كان حقيقياً ، الى الحدّ الذي كانت هناك في المزهريات ورود حيّة ، وحتى الموسيقى التي كانت تُسمع في الداخل كانت تبدو سامية ومُسكّنة . كما أراد لها مبدعوها . وفجأة خطر لي بأنّ ذلك قد يكون ملجأ مناسباً للحسناء ، وأخذت أبحث عنها في القاعات الأخرى مرتجفاً بسبب جرأتي الخاصّة . كان أغلبهم من الرجال ، من رجال الحياة الواقعية الذي كانوا يقرأون صحفاً باللغة الانجليزية ، بينما كانت نساؤهم يفكرن برجال آخرين ويتأملن الطائرات الميتة تحت الثلوج من خلال النوافذ الزجاجية الفسيحة ، ويتأملن أيضاً المصانع المغطاة بالثلوج وحقول « رويسي » الواسعة التي دمرتها العاصفة الثلجية ، ناحتة فيها أشكالاً هي أشبه بالأسود . وبعد منتصف النهار ، لم يكن هناك موضع قدم ، وصارت الحرارة في الداخل لاتطاق مما جعلني أهرب بحثاً عن مكان أتنفس فيه .

في الخارج شاهدت مشهداً مرعباً . بشر من كلّ الأجناس كانوا قد ملؤوا صالات الانتظار والممرات وحتى السّلالم ، متمددين على الأرض مع حيواناتهم واطفالهم ومستلزمات السّفر . كانت طرق المواصلات المؤدية الى المدينة قد انقطعت هي الأخرى ، وكان القصر البلاستيكي الشّفاف يبدو وكأنّه كبسولة فضائية هائلة تمخر وسط العاصفة . لم أتمكن من ابعاد فكرة انّ الحسناء يمكن أن تكون بين تلك القبائل الوديعة ، وقد شدّت هذه الفكرة من معنويتي وجعلتني قادراً على الانتظار . في ساعة الغداء أدركنا حقيقة حالتنا التي هي أشبه بحالة الغرقى .

تشكّلت طوابير لانهائية أمام المطاعم السبعة وامتلأت المقاهي والبارات ، واضطرّوا الى اغلاقها بعد أقلّ من ثلاث ساعات ، لأنّه لم يبق فيها أيّ شيء للأكل أو للشرب . والأطفال الذين بدوا في لحظة ما وكأنّهم كل أطفال العالم ، أخذوا يبكون في وقت واحد ، وبدأت ترتفع من الجماهير رائحة كأنها رائحة القطيع ، انّه زمن الغرائز ، وكل الذي حصلت عليه لسدّ رمقي وسط تلك المسابقة ، كان عبارة عن الكأسين الأخرين من البوظة المصنوعة من القشطة في محلّ خاص بالأطفال . تناولتها قليلاً قليلاً أمام المحلّ ، في الوقت الذي كان العمال فيه يضعون الكراسي فوق المناضد كلّما خوت واحدة منها ، وكانت أنظر الى نفسي في المرآة الموجودة في عمق المحلّ ، وبيدي الكأس الكرتوني الأخير والملعقة الكرتونية الأخيرة ، مفكّراً بالحسناء . أقلعت طائرة « نيويورك » التي كان من المقرر أن تطير على الساعة الحادية عشرة صباحاً ، أقلعت في الثامنة مساء ، وذلك عندما تمكنت أخيراً من ركوب الطائرة ، وكان ركّاب الدرجة الاولى قد استقروا في أماكنهم ، عندما قادتني احدى المضيفات

الى مقعدي . كتمت الأنفاس ففي المقعد المحاذي لمقعدي ، والى جانب النافذة ، كانت الحسناء تقوم بترتيب أشيائها واستغلال الفضاء المسموح لها به بمهارة الخبراء بالسفر . « لو أنّي كتبت هذا مرّة ، لما صدّقني أحد » ، فكّرت . ولم ينطق لساني المتعثر ساعتها سوى نصف تحية لم تكد تسمعها :

استقرّت في مكانها بطريقة وكأنّها سوف تقيم هناك لسنوات طويلة ، واضعة كلّ حاجة في مكانها وبشكل مرتّب ، حتى صار المكان هذا وكأنّه بيت نموذجي يسهل على اليد أن تطال أيّ شيء فيه . وبينما كانت تجهّز مكانها ، جلب لنا المضيّف مشروب الشمبانيا ترحيباً بنا . تناولت كأساً لأقدّمه اليها ، غير أنّي ندمت على فعلي هذا في الوقت المناسب ، إذا انها لم تطلب سوى كأس ماء ، ثم طلبت اليه بلغة فرنسية غير مفهومة أولاً وبلغة انجليزية أوضح من الاولى قليلاً ، الأيوقظها أحد لأيّ سبب كان طيلة الرحلة. كان صوتها حاداً ودافئاً ينمّ عن حزن شرقي .

عندما حملوا اليها الماء ، فتحت في حضنها علبة تشبه عنوان الزينة، ذات زوايا نحاسية شبيهة بصناديق الجدّات ، وأخرجت حبتين ذهبيتين من غلاف صغير كان يحتوي على حبوب بألوان مختلفة . كانت تفعل كلّ ذلك بانتظام هادىء ، كما لو كانت حياتها خالية من المفاجآت منذ ولادتها . وأخيراً أنزلت ستارة النافذة ودفعت بالمقعد الى الخلف حتى غايته القصوى ، وتغطّت بالبطانية حتى الحزم دون أن تخلع حذاءها ولبست قناع النوم ثم تمدّدت فوق المقعد على جانبها بحيث أدارت ظهرها لي ونامت بلا انقطاع أو زفرة ولم تغير وضعيتها ولو

قليلاً، خلال الساعات الثماني والدقائق الاثنتي عشرة التي دامتها رحلة « نيويورك » .

كانت سفرة مكثفة . كنت أظنّ دائماً بأنّه ليس هناك أيّ شيء في الطبيعة أجمل من امرأة حسناء ، ولهذا كان عليّ من الصعب أن أهرب ولو لحظة واحدة من سحر ذلك الكائن الاسطوري الذي كان ينام الى جانبي كان المضيّف قد اختفى بمجرّد أن أقلعت الطائرة واستبدل بمضيفة ديكارتية حاولت أن توقظ الحسناء لاعطائها علبة الزينة وسماعات الأذان لسماع الموسيقى . أعدت على المضيّفة التنبيه الذي نقله الحسناء للمضيّف، ولكنّ المضيفة ألحّت على أنها تريد سماعها بنفسها ، وفيما إذا كانت لا تريد حتى أن تتعشى . أكدّ لها المضيّف رغبة الحسناء ، ومع ذلك فانّها عاتبتني أنا لأنّ الحسناء لم تعلّق في عنقها اللوحة التي تدعو الى عدم ايقاظها .

تناولت عشائي وحيداً متلفّظاً بجميع الكلمات التي كان من الممكن أن أقولها للحسناء فيما لو كانت في حالة يقظة . كان نومها مستقراً جداً ، الى الحدّ الذي صرت أفكر بأن الحبتين اللتين تناولتهما كانا ربما للموت لا للنوم . وقبل كل جرعة ، كنت أرفع كأسي وأقول :

– بصحتك ، أيتها الحسناء .

وبعد انتهاء العشاء أطفأوا الأنوار ووضعوا فيلماً ولكن لم ينتبه اليه أحد ، وغرقنا نحن الاثنين في ظلال العالم . كانت اكبر عاصفة خلال القرن قد مرّت ، وكان ليل الأطلسي فسيحاً وشفّافاً ، والطائرة تبدو وكأنّها ثابتة بين النجوم . آنذاك تأملتها شبراً شبراً خلال ساعات عديدة ،

وكانت علامة الحياة الوحيدة التي يستطيع المتأمل أن يدركها هي ظلال الأحلام التي كانت تمرّ على جبهتها كمرور السّحاب في المياه . كانت تحمل في عنقها سلسلة رقيقة لا تكاد ترى فوق بشرتها الذهبية ، وكانت أذناها في غاية الكمال ليس بهما ثقوب للأقراط ، وكانت أظفارها ورديّة توحي بجودة صحتها ، وفي أحد أصابع يدها اليسرى كانت تلبس خاتماً أملس ، وبما أنّ مظهرها كان يوحي بأنّ عمرها دون العشرين، فانني صبّرت نفسي بفكرة أن ذلك الخاتم لم يكن حلقة زواج ، وانّما خاتم خطبة زائلة . « إنني أعلم بأنّك نائمين ، حقيقية ومتيقنة ، مجرى وفيّ للهجر ، خطّ نقيّ ، قريبة من ذراعيّ المقيّدين » تذكرت وكرّرت وأنا أحدق في فقاعات الشمبانيا هذه الأبيات من قصيدة « خيراردو دييغو » الرائعة . ودفعت فيما بعد مقعدي الى الخلف وجعلته في مستوى مقعدها ، وبقينا ممددين بقرب بعضنا وكأنّنا في سرير زواج . وكانت طبيعة تنفسها مثل طبيعة صوتها ، والشذى المنبعث من جسدها لم يكن سوى شذى جمالها الخاصّ بدا لي الأمر وكأنّه شيء غير معقول : في الربيع الماضي كنت قرأت رواية رائعة لـ « ياسوناري كاواباتا » تتحدّث عن المسنّين البرجوازيين في « كيوتو » ، والذين كانوا يدفعون مبالغ كبيرة لقضاء ليلة يتأملون فيها أجمل صبايا المدينة ، عاريات ومُخدّرات ، في حين أنّ الرجال المسنّين يحتضرون في نفس السّرير بفعل الحبّ . لم يكونوا يلمسوهنّ وليس من حقهم أن يوقظوهنّ ، ولم يكونوا في الواقع يحاولون ذلك ، لأنّ جوهر اللّذة كان رؤيتهنّ نائمات . وفي ليلتي تلك، حيث سهرت على نوم الحسناء ، لم أفهم فوق المجاز ذاك فحسب ، بل عشته بالكامل .

– من يستطيع تصديق ذلك ؟ تساءلت وقد اشتدّ شعوري بكرامتي بفعل الشمبانيا : أنا الآن عجوز ياباني .

أظنّ أنني نمت ساعات عديدة مغلوباً بتأثير الشمبانيا ووهج الفيلم الصّامت ، ثم استيقظت والصداع يكاد يشق رأسي ، ذهبت الى دورة المياه ، وكانت العجوز صاحبة الاحدى عشرة حقيبة تنام على مقعدها الكائن خلف مقعدي بصفّين . كانت منطرحة على مقعدها بشكل غير منتظم ، باعدت ما بين رجليها ، وكانت تبدو وكأنها جثّة ميّت نسيه صحبة في ساحة القتال . وعلى الأرض ، في منتصف الممر كانت توجد نظارتها الطبيّة وعقدها ذو الخرز الملوّنة ، وتمتعت للحظات قصيرة بذلك الفرح البائس ، فرح عدم رفعها واعطائها لها . وبعد أن فرّجت عن نفسي بكثرة تناول الشمبانيا ، فوجئت حين نظرت الى نفسي في المرآة ، مُخز وقبيح وتعجبت من أن تكون أضرار الحب مرعبة الى هذا الحدّ . وفجأة انحدرتْ الطائرة بشكل مستقيم ، غير أنها سرعان ما استعادت توازنها واستمّرت في طيرانها تخبّ بين المطبّات ، واشتعل الأمر بالعودة الى المقاعد . خرجت مسرعاً وفي رأسي أمل ، وهو أن تعمل الاضطرابات الربّانية على ايقاظ الحسناء ، وأن تضطرها على اللجوء الى ذراعي هروباً من الرعب . وبسبب استعجالي كنت على وشك أن أدوس نظارات الهولندية ، وكان يُسعدني أن يقع ذلك . غير أنني عُدت اليها ورفعتها ثم وضعتها في حُضنها ، وشعرت فجأة بأنني كنت محظوظاً لأنها لم تختر هي قبلي الرقم أربعة .

كان نوم الحسناء لا يُغلب ، وعندما عادت الطائرة الى استقرارها ، كان عليّ أن أقاوم بعض الوساوس التي كانت تدعوني الى هزّها بأية حجة كانت ، لأنّ الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه في تلك الساعة الأخيرة هو أن أراها يقظة ، حتى وإن كانت في حالة غضب ، لكي أستطيع أنا استعادة حريتي وربّما شبابي . غير أنني لم أكن قادراً على ذلك . « اللعنة » ، قلت لنفسي بنوع من الاحتقار . لماذا لم أولد في برج الثور ؟ . استيقظت بدون مساعدة من أحد ، عندما اشتعلت اعلانات الهبوط ، وكانت جميلة ونضرة كما لو أنها نامت في حديقة ورود . حينذاك فقط أدركت بأن الذين يجلسون الى جانب بعض في مقاعد الطائرة ، هم أشبه بالأزواج الذين مرّ على زواجهم وقت طويل ، وهم لا يحيون بعضهم عندما يستيقظون . لم تحيّني هي الأخرى ، رفعت القناع وفتحت عينيها المشرقتين وقدّمت مسند المقعد الى الأمام ، ثم دفعت بالبطانية الى جانب وهزّت رأسها ليعود شعرها المنقوش الى حالته المألوفة فينشط بذاته مدفوعاً بوزنه الخاصّ . وضعت علبة الزينة في حضنها من جديد وتزيّنت بشكل سريع وسطحي استمّر حتى فتح أبواب الطائرة لمفاداة النظر اليّ . عندها لبست سترتها المصنوعة من جلد الوشق ، وكادت أن تمرّ من فوقي متعذرة اعتذاراً شكلياً بلغة اسبانية خالصة لمتكلمي امريكا اللاتينية ، وغادرت دون أن تودعني ، ومن غير أن تشكرني على الأقلّ لكثرة ما فعلته في سبيل ليلتنا السعيدة تلك ، واختفت لغاية شمس يومنا هذا في أمازون « نيويورك » .

يونيو (حزيران) ١٩٨٢

احلام للايجار

في التاسعة صباحاً ، وبينما كنّا نتناول الفطور في شرفة « هافانا ريفيرا » ، تحت شمس مشرقة ، رفعت موجة بحرية هائلة العديد من السيارات التي كانت تمرّ في الطريق المطلّة على رصيف الشاطئ ، أو التي كانت متوقفة الى جانب الطريق ، والتصقت واحدة منها بفعل تلك الضربة بأحد جوانب الفندق . بدا ذلك وكأنّه انفجار ديناميتي زرع الرعب في الطوابق العشرين للبناية ، وحوّل الواجهة الزجاجية الملوّنة للمدخل الى تراب . واندفعت معهم قطع الأثاث ، وأصيب بعضهم بجروح بسبب تساقط الزجاج المتهشم عليهم ، كان ارتطاماً هائلاً ، بحيث انّ الطريق الواسعة ذات الاتجاهين التي تفصل ما بين رصيف الشارع والفندق ، لم تمنع وصول الموجة الى واجهة الفندق الزجاجية وتحطيمها .

جمع المتطوعون الكوبيون الذين يغلب عليهم طابع السرور وبمساعدة رجال الاطفاء بقايا الحطام في أقلّ من ستّ ساعات وأغلقوا الباب المطلّة على البحر وفتحوا أخرى وعاد كلّ شيء الى طبيعته . ولم

ينشغل أحد عمال الصباح بالسيارة التي التصقت بجدار الفندق لظنّهم بأنّها كانت من بين السيّارات المتوقفة عند الرصيف. ولكنّ الرافعة عندما أخرجتها من مكمنها، اكتشفوا جثة امرأة محجوبة في مقعد السائق ومشبوكة بحزام الأمان. كانت ضربتها شديدة الى الحدّ الذي لم يعثروا على أيّ عظم سليم في جسدها. كان وجهها قد تشوّه وحذاؤها قد تشقق وملابسها قد تمزّقت، وكان في يدها خاتم ذهبي بصورة أفعى ذات عينين من الزمرّد. توصلت الشرطة الى نتيجة أنّ تلك المرأة لم تكن سوى رئيسة الخادمات في بيت السّفير البرتغالي الجديد. وفعلاً فقد كانت قادمة مع أسرة السفير الى «هافانا» قبل خمسة عشر يوماً من الحادث، وكانت في صباح هذا اليوم قد خرجت الى السوق في سيارة جديدة. لم يعن اسمها بالنسبة لي أيّ شيء عندما قرأت الخبر في الصحف، ولكن خاتمها الذي كان على شكل أفعى وبعينين من الزمرّد أثار فضولي. ومع ذلك فانني لم أستطع التحقّق من الاصبع الذي كانت تلبس الخاتم فيه.

كانت هذه نقطة حاسمة. لأنني كنت أخاف أن تكون تلك المرأة التي لا تُنسى والتي لم أعرف اسمها الحقيقي مطلقاً.، وكانت تستعمل خاتماً كهذا في سبابتها اليُمنى، ولم يكن ذلك مألوفاً حينذاك. كنت تعرّفت عليها .قبل أربعة وثلاثين عاماً في «فيينا»، بينما كنت آكل السُجق والعصيدة الساخنة وأشرب بيرة البراميل في حانة يتردد عليها طلاب أمريكا اللاتينية. كنت واصلاً من «روما» في صباح ذلك اليوم، ومازلت أذكر دهشتي الكبيرة بحجم وسعة صدرها الشبيه بصدر مطربة اوبرالية، وذيول الثعالب الهزيلة المعلقة في عنق المعطف، وذلك الخاتم

المصري بصورة الأفعى. ظننت حينها بأنها كانت النمساوية الوحيدة في تلك الحانة الخشبية الطويلة، لتكلمها لغة اسبانية بدائية وبلدون تنفّس أثناء الحديث على طريقة باعة المردودات. غير أنّ الأمر لم يكن كما تصوّرت، لأنّها كانت مولودة في «كولومبيا»، وكانت قد ذهبت الى «النمسا» في فترة ما بين الحربين، عندما كانت طفلة لدراسة الموسيقى والغناء. في تلك الأثناء كانت في حدود الثلاثين وإن كانت تبدو أكبر، ويظهر أنّها لم تكن جميلة في أيّ فترة من فترات حياتها وبدأت تشيخ قبل موعدها. ولكنها كانت انسانة رائعة ومخيفة جداً في نفس الوقت.

كانت «فيينا» ما تزال مدينة امبراطورية قديمة، وكان موقعها الجغرافي بين عالمين لا يلتقيان كثمرة للحرب العالمية الثانية، قد جعل منها قبلة للسوق السوداء والتجسّس العالمي. لم يكن بامكاني أن أتخيّل جوّاً أفضل لابنه بلادي اللاجئة تلك التي كانت حريصة على تناول طعامها في تلك الحانة الطلابيّة الواقعة في احدى الزوايا، ولم اكن أتصور بأنّها كانت تفعل ذلك لمجرّد وفائها لأصلها، لأنّها كانت تملك من الموارد الفائقة التي تبيح لها شراء الحانة نقداً بما في ذلك الزبناء. لم تذكر اسمها الحقيقي مطلقاً، وكنّا ندعوها باسم جرماني يصعب نطقه اخترعه طلاب أمريكا اللاتينية المقيمين في «فيينا» وهو: «فراو فريدة».

وبمجرّد أن قدموها اليّ، اقترفت تلك السّفاهة السعيدة بسؤالها عن سبب استقرارها في عالم شديد الاختلاف والبعد عن قمم اقليم «الكنديّو» العاصفة، فردّت علي دفعة واحدة:

- أؤجّر نفسي لكي أحلم.

كان ذلك ، في الحقيقة ، عملها الوحيد . كانت ثالثة اخوتها الأحد عشر من أبناء صاحب متجر مزدهر من الليم « كالداس » القديم ، ومنذ أن تعلّمت الكلام قامت بتأصيل تلك العادة الحسنة بروايتها الأحلام قبل الفطور ، وهي الساعة التي تكون فيها ملكة الكهانة عندها اكثر نقاء وفي السابعة من عمرها حلمت بأن أحد اخوتها قد اكتسحه التيّار . قامت الأم ، وبدافع اعتقادها الديني ، بمنع الطفل من السباحة في النهر ، وهو اكثر شيء كان يهواه الصغير . وصار لـ « فراو فريدة » عند ذاك اسلوبها الخاصّ في الكهانة .

— هذا الحلم لا يعني بأنّ الطفل سوف يغرق ، قالت ، بل عليه ألاّ يأكل الحلوى .

انّ تفسير الحلم بتلك الطريقة كان يبدو كعقاب لطفل في الخامسة ليس باستطاعته العيش بدون حلويات أيام الأحد . وبما أنّ الأمّ كانت مقتنعة بملكات الكهانة لدى ابنتها ، فانّها احترمت تحذيرها ذاك ونفذته بيد حديدية . وفي أول فرصة توفرت للطفل حين كانت أمّه غافلة عنه ابتلع قطعة من الحلوى خفية وعلى عجل ، فاختنق بها ولم يكن بالامكان انقاذه .

ولم تفكّر « فراو فريدة » بأنّ قدرتها تلك كانت صالحة لتكون مهنة ، حتى أمسكتها الحياة من تلابيبها في شتاءات « فينا » القاسية . وعندما دقّت باب أول منزل رغبت في العيش فيه ، سألوها عن الأشياء التي تجيدها ، فأجابت ولم تكذب : « الحلم » . ولم تحتج الاّ الى تفسير

بسيط لكي تقبل بها ربّة البيت بمرتّب لم يكن يسدّ بالكاد مصاريفها القليلة ، غير أنّهم وفّروا لها غرفة جيدة وثلاث وجبات غذائية . وكان الفطور أفضل وجبة ، لأنّ العائلة كانت تجلس في تلك الأثناء لمعرفة مصائر كل فرد من أفرادها : الأب رجل مهذب يعيش من الايجارات ، الأم إمرأة سعيدة تعشق الموسيقى الكلاسيكية الرومانسية ، وطفلان بعمر أحد عشر عاماً وتسعة أعوام على التوالي . كانوا جميعاً متدينين ، ولهذا فانهم كانوا ميّالين الى الخرافات المهجورة ، فاستقبلوا « فراو فريدة » بفرح كبيرة ، وكان التزامها الوحيد تجاههم هو التكهّن اليومي بمصير العائلة من خلال الأحلام .

أجادت مهمتها لوقت طويل ، وعلى الخصوص أثناء سنوات الحرب ، عندما كان الواقع أشدّ سوءاً من الكوابيس . وكانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تقررفي ساعة الافطار ما ينبغي أن يفعله . حتى تحوّلت تشخيصاتها الى السلطة الوحيدة في المنزل ، وأصبحت سيطرتها على العائلة مطلقة : وحتى التنهّد الخفيف لم يكن بالامكان سماعه الاّ بأمر منها . وخلال وجودي في « فينا » كان صاحب المنزل قد توفي لتوّه ، وكان قد أوصى لها بجزء من موارد الايجارات ، وكان شرطه الوحيد في ذلك هو أن تدوم على رؤية الأحلام للعائلة حتى النهاية .

كنت في « فينا » لمدة تزيد على الشهر ، أشارك فيها الطلاب ظروفه القاسية ،بينما كنت أنتظر بعض النقود التي لم تصل مطلقاً . وكانت الزيارات المفاجئة والكريمة التي تقوم بها « فراو فريدة » آنذاك للحانة ، وكأنّها أعياد ترضّع حياة الفقرة التي كنّا نمرّ بها . وفي احدى

الليالي عندما كانت النفوس قد تحمست بفعل البيرة ، همست في أذني قائلة باقتناع لم يكن يسمح باضاعة الوقت :

– جئت فقط لأخبرك بأنني حلمت في الليلة الماضية بأني كنت معك . عليك أن تغادر بسرعة ، وألاّ تعود الى « فيينا » في السنوات الخمس القادمة وكان اقتناعها حقيقياً الى درجة أنّها لم يهدأ لها بال حتى ركبتني في قطار الليل الأخير المغادر الى روما . وشعرت أنا من جانبي بأنّ الوهم قد تسلّط عليّ منذ ذلك الحين ، واعتبرت نفسي ناجياً من كارثة لم أعرفها أبداً ، ولم أعد الى « فيينا » حتى الآن .

وقبل كارثة « هافانا » ، كنت التقيت بـ « فراو فريدة » في «برشلونة» ، بطريقة غير متوقعة ومن بنات الصدفة ، بحيث بدت لي وكأنّها سرّ ، حدث ذلك في نفس اليوم الذي وطئت فيه قدما « بابلو نيرودا » الأراضي الاسبانية بعد الحرب الأهلية عند توقفه هناك ضمن سفرة بحرية بطيئة الى « فالبرايسو » بتشيلي . أمضى معنا صباحاً كاملاً يطارد فيه الكتب في المكتبات المختصّة ببيع الكتب القديمة ، واشترى في «بورتر» كتاباً قديماً فقد غلافه وذبلت أوراقه ، ودفع ثمنه الذي كان يعادل مرتّبه كقنصل في « رانغون » لمدة شهرين . كان يتحرك بين الناس وكأنّه فيل عاجز ، يدفعه اهتمام طفولي بالميكانيكية الداخلية للأشياء ، بحيث أنّ العالم كان يبدو له وكأنّه لعبة وترية كبيرة تخترع الحياة بواسطتها .

لم أتعرف في حياتي على انسان شبيه به يمكن أن تنطبق عليه وجهة النظر التي يملكها أحدنا عن « بابا » نهضويّ : أكول ومهذّب .

وكان يترأس المائدة دائماً حتى وان كان مخالفاً لارادته . وكانت زوجته «ماتلدي» تعلّق على صدره مبدعة هي أشبه بصدار الحلاقين منها بمبدعة الطعام ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لتفادي أن يسبح في المرق . وكان ذلك اليوم في « كارباليراس » يوماً لن يُنسى ، فقد التهم بالكامل ثلاثاً من جراد البحر ، قطعها بأستاذية الجرّاح ، وكان في نفس الوقت يلتهم بعينيه صحون الآخرين كلّها ويتناول منها جميعاً بلذة معدية تثير الشهية للطعام : محار « جليّقيا » وهلاميّات « كانتابريا » والربيز البحري لـ « اليكانتي » والاسبرديتيا للساحل القطلوني . وكان في تلك الأثناء يتكلم مثله مثل الفرنسيين عن ملذات الأطعمة الأخرى ومنها على الخصوص رخويات وقشريات البحر لما قبل التاريخ في « تشيلي » التي كان يحملها في القلب .

وفجأة كفّ عن الطعام وأرهف احساسه مثل سرطان بحري وقال لي بصوت شديد الانخفاض :

– أحد ما خلفي يطيل النظر فيّ .

نظرت من فوق كتفه ، وكان محقّاً فعلا ، ووراءه وعلى بعد ثلاث موائد منه ، كانت هناك امرأة رابطة الجأش ، تلبس قبّعة قديمة من اللّبد ولفافاً بنفسجياً وهي تمضغ الطعام ببطء وعيناها محدّقتان فيه . عرفتها في الحين ، مع أنّ الشيخوخة قد أدركتها وسمنت ، ولكنها كانت هي نفسها ، وفي سبابتها الخاتم الذي كان على صورة أفعى . كانت مسافرة من « نابولي » في نفس الباخرة التي كانت تقلّ عائلة « نيرودا » ، غير

أنهم لم يكونوا قد التقوا في السفر دعوناها الى شرب القهوة على ما لدينا وحثثناها على الكلام عن أحلامها لاثارة دهشة الشاعر . ولكنّه لم يهتمّ بها لأنّه قرّر منذ البداية بأنّه لا يؤمن بتكهنات الأحلام . وقال :

– إنّ البصيرة لا تكمن الاّ في الشّعر .

وبعد الغداء ، وفي نزهتنا التي لا بُدّ منها في « لاس رامبلاس » ، تأخرت عن قصد لأكون مع « فراو فريدة » لبعث ذكرياتنا دون أن تسمعنا آذان غريبة . روت لي بأنّها كانت قد باعت ممتلكاتها في « النمسا » ، وذهبت لتعيش في « بورتو » بالبرتغال كمتقاعدة ، تسكن في منزل وصفته لي على أنه شبيه بقصر مزيف كائن على تلّ ، وتستطيع أن تشاهد منه المحيط كلّه لغاية أمريكا اللاتينية . وقد بدا لي بوضوح ، وإن لم تقله هي أثناء حديثها معي ، أنّها تسلّطت باحلامها المتواصلة على ثروة أرباب عملها الذين يصعب تخيلهم في « فيينا » . ومع ذلك فانّها لم تثر فيّ أيّ ردّ فعل ، لأنني اعتقد دائماً بأنه أحلامها لم تكن سوى نوع من الاحتيال في سبيل لقمة العيش . قلت لها ذلك، فأطلقت قهقهة قوية يصعب مقاومتها وقالت لي : « ما زلت جريئاً كما كنت » . ولم تزد على ذلك لأنّ باقي المجموعة كانوا قد توقفوا لانتظار « نيرودا » لكي ينهي كلامه مع ببغاوات وباللهجة الشيلية في سوق الطيور في « لاس رامبلاس » . وعندما عدنا الى حديثنا ، غيّرت « فراو فريدة » الموضوع وقالت لي :

– بالمناسبة ، يمكنك الان أن تعود الى « فيينا » .

وعندها فقط تذكرت بأنّه كانت قد مرّت ثلاث عشرة سنة منذ أن تعرّفنا .

– مع انّ أحلامك مزيفّة ، قلت لها ، فانني لن أعود أبداً للحيطة والحذر . افترقنا عنها في الساعة الثالثة ، إذ صاحبنا « نيرودا » الى قيلولته المقدّسة . نام قيلولته في بيتنا بعد اجراء بعض الترتيبات الاحتفالية التي كانت تذكّر بشكل ما بحفلات الشاي في « اليابان » . استلزم فتح بعض النوافذ وغلاق أخرى للحصول على درجة الحرارة المطلوبة بالضبط ، والحصول على نوع خاص من الضوء في اتجاه محدّد ، وأن يخيّم الصمت التام . نام « نيرودا » في الحين واستيقظ بعدها بعشر دقائق كالاطفال ودون أن نتوقع . ظهر في الصالون وقد استعاد قواه وقد التصقت علامة الوسادة بخدّه .

– حلمت بتلك المرأة التي تحلم ، قال .

طلبت منه « ماتيلدي » أن يروي لها حلمه ، فقال :

– حلمت بأنّها كانت تحلم بي

– هذا تراث « بورخيس » ، قلت له .

نظر اليّ متزعجاً .

– هل هو مكتوب ؟

– إن لم يكن مكتوباً ، فانّه سيكتبه مرّة ما ، قلت له . سيكون واحد من متاهاته .

ولم يكد «نيرودا» أن يصعد الى ظهر السفينة، حتى ودّعنا على عجل وجلس الى منضدة منزوية وبدأ يكتب الشعر بالطلاق بريشته ذات الحبر الأخضر التي كان يرسم بها الزهور والأسماك والطيور الى جانب كلمات الاهداء في كتبه. وعندما سمعنا صفير الباخرة التحذيري الأول، بحثنا عن «فراو فريدة»، وأخيراً عثرنا عليها على ظهر الباخرة مع بعض السيّاح وكنّا على وشك مغادرة الباخرة دون أن نودّعها. كانت هي الأخرى قد استيقظت من قيلولتها للتوّ.

– حلمت بالشاعر، قالت لنا.

طلبت منها، مندهشاً، أن تروي لي الحلم.

– حلمت بأنّه كان يحلم بي.

سبّب لها وجهي الذي بدت عليه علائم الاندهاش نوعاً من الحيرة، فقالت:

– ماذا تريد؟ يتسرّب أحياناً بين هذا الكم من الأحلام حلم قد لا تكون له أيّة صلة بالحياة الواقعية.

لم أرها بعد ذلك ولم أسأل عنها حتى سمعت بقصّة الخاتم الذي هو بصورة أفعى ويعود لامرأة توفيت في تلك العاصفة عند فندق «ريفيرا». ولهذا فانني لم استطع مقاومة رغبتي الجامحة في توجيه الأسئلة الى السفير البرتغالي عندما التقينا في احدى الحفلات الدبلوماسية بعد الحادث بشهور.

تحدّث السفير عنها بحماس واعجاب كبيرين: «لا يمكن أن تتصوّر كم كانت رائعة»، قال هذا وأضاف: «كنت بالتأكيد ستكتب عنها قصّة، لو أنّك عرفتها».

واستمرّ يتحدث عنها بنفس الحماس، ذاكراً تفاصيل مدهشة، ولكن دون أن يعطيني أيّ دليل يساعدني على استخلاص نتيجة نهائية. سألته أخيراً:

– ماذا كانت تفعل بالتحديد؟

– لاشيء، قال لي بنوع من خيبة الأمل. – كانت تحلم.

مارس (آذار) ١٩٨٠

ما جئت إلاّ للتحدّث بالهاتف

في أمسية ربيعية ممطرة ، عندما كانت « ماريا دي لالوث ثرباتس » مسافرة تسوق سيارتها المستأجرة نحو « برشلونة » ، أصيبت مركبتها بعطل في صحاري « لوس مونيغروس » ، كانت « ماريا دي لالوث » فتاة مكسيكية جميلة وجادة في السابعة والعشرين من العمر . وكانت قبل ذلك بأعوام قليلة قد اشتهرت نوعًا كممثلة تقوم بأدوار مختلفة ، وكانت متزوجة من ساحر ومشعوذ يؤدي عمله في الصالونات والحفلات ، وكانت ذاهبة للقائه مساء ذلك اليوم بعد أن زارت بعض أقربائها في مدينة « سرقسطة » . وبعد ساعة من الاشارات اليائسة للسيارات وشاحنات الأحمال التي كانت تمرّ مسرعة وسط العواصف ، عطف عليها سائق حافلة نصف مستهلكة وتوقّف لها . وقد حذّرها ، في الواقع بأنّه لم يكن يقصد مكاناً بعيداً .

– لا يهمّ ، قالت ماريا ، فالشيء الوحيد الذي أحتاج اليه هو التلفون . كانت صادقة لأنّ الشيء الوحيد الذي كانت تريده هو اخبار زوجها بعدم وصولها قبل السابعة مساء . كانت تبدو مثل عصفور مبلول، بمعطفها الطلابيّ وحذاء الشاطئ في شهر أبريل ، وكان ذهولها

بسبب الحادث كبيراً مما أنساها مفاتيح السيارة . والى جانب السائق كانت توجد امرأة ذات هيئة عسكرية ولكن بسلوكية لطيفة ، فسحت لها مجالاً الى جانبها وأعطتها منشفة وبطانيّة . وبعد أن نشّفت « ماريّا » نفسها جزئياً ، جلست والتفّت بالبطانية ثمّ حاولت اشعال سيجارة ولكن علبة الكبريت كانت مبللة أشعلت لها جارتها اللفافة وطلبت منها واحدة من السجائر القليلة التي لم تبتلّ . استسلمت « ماريّا » لرغبتها في الترويح عن نفسها فخرج صوتها أقوى من صوت المطر وطقطقة الحافلة ، فقاطعتها المرأة باشارة منها بوضع سبابتها على شفتيها ، ثم همست :

– انّهن نائمات .

نظرت « ماريا » من فوق كتفها ورأت بأنّ الحافلة كانت تحمل نساء بأعمار مختلفة وطبقات متنوعة متدثرات ببطانيات شبيهة ببطانيتها، انتقلت اليها عدوى الهدوء فتهاوت في مقعدها واستسلمت لصوت المطر . وعندما استفاقت وجدت بأنّ الوابل قد انتهى الى برد رتيب . لم تكن « ماريا » تعرف كم من الوقت استغرق نومها ولا في أي مكان من العالم كانت توجد في تلك اللحظات . كانت جارتها في المقعد تبدو اكثر احتراساً وتوترا :

– أين نحن ؟ سألتها « ماريّا » ، فأجابت المرأة قائلة :

لقد وصلنا .

كانت الحافلة تدخل فناء حجرياً لبناء ضخم ومكفهرّ كأنّه دير قديم

في غابة من الأشجار العظيمة . كانت المسافرات جالسات في أماكنهنّ دون حركة ولم يكن في الحافلة سوى ضوء هزيل ، ولم يتحركن الاّ بأمر المرأة ذات الهيئة العسكرية التي طلبت منهنّ النزول بانتظام شديد وكأنهنّ تلميذات في روضة أطفال . كنّ كبيرات وكنّ يتحركن بتقتير شديد في ظلام الفناء وكأنهن أشباح حلم . كانت « ماريّا » آخر من نزل وظنّت بأنهنّ راهبات ، ولكنّ فكرتها هذه تغيّرت عندما شاهدت العديد منهنّ بلباس موحّد يتمّ استقبالهنّ عند باب الحافلة وتغطّى رؤوسهنّ بالبطانيات لكي لا يتبللن ثم يقفن في طابور ويقودونهنّ بضربات ايقاعية وسريعة على الأكف ، وبعد أن ودّعت «ماريّا» جارتها في المقعد ، أرادت أن تعيد اليها البطانية ، ولكن الجارة نصحتها بأن تغطي رأسها بها لتقطع الفناء ثم تتركها عند البوّاب .

– هل يوجد تلفون ؟ سألتها « ماريا ».

– طبعاً ، قالت المرأة . هناك سيدلونك .

وطلبت من « ماريا » سيجارة أخرى ، فأعطتها هذه العلبة المبلّلة بما فيها من سجائر ، وقالت لها : « ستجفّ في الطريق » . أشارت المرأة بيدها مودّعة من سلّم الحافلة وقالت بصوت مرتفع « حظّاً سعيداً » ، وتحرّكت الحافلة بعدها دون تباطؤ .

أخذت « ماريّا » تجري نحو مدخل البناء ، ولكن أحد الحراس أراد ان يستوقفها بضربة قوية على كفّه ثم أردفها بصرخة قوية : « قلت لك توقّفي » .

نظرت « ماريا » من تحت البطانية فرأت عينين زجاجيتين جامدتين وسبّابة آمرة تشير الى الطابور ، فأطاعت . وعندما وصلت الى دهليز البناء ، افترقت عن المجموعة وسألت البواب عن التلفون ، غير أنّ أحد الحراس أعادها الى الطابور رابتاً على كتفها وقائلاً لها بأسلوب مهذّب :

— من هنا ، أيتها الجميلة ، من هنا التلفون .

تبعت « ماريا » النساء الأخريات في ممر مُعتم ، وأخيراً دخلت الى صالة نوم جماعية ، وهناك استلم الحرّاس الأغطية وبدؤوا بتوزيع الأسرّة ، وأخذت امرأة أخرى ، بدت لـ « ماريا » أكثر انسانية وأعلى رتبة من جارة الحافلة ، أخذت تدور على الطابور من أوله وحتى آخره وبيدها قائمة للتأكد من أسماء الواصلات الجديدات اللاتي كنّ يحملن أسماءهن مكتوبة على قطعة من ورق الكرتون المعلقة في صدرياتهنّ . وعندما وصلت الى « ماريا » استغربت لأنها لم تكن تحمل أية ورقة تعرّف بها .

— إنني جئت للتحدّث بالهاتف فقط . قالت لها « ماريا » .

حكت لها على وجه السّرعة بأنّ سيارتها كانت قد تعطلت في الطريق العام وان زوجها ، ساحر الحفلات ، كان ينتظرها في « برشلونة » لاداء ثلاثة التزامات متتالية حتى منتصف الليل ، وانّها كانت تريد اخباره بعدم تمكنها من الوصول في الوقت المناسب . كانت الساعة تقترب من السابعة ، وكان على زوجها الخروج من البيت بعد عشر دقائق ، وكانت « ماريا » تخشى أن يلغي كل التزاماته بسبب تأخرها . وبدا لها بأنّ الحارسة كانت تستمع اليها باهتمام:

— ما اسمك ؟ سألتها .

نطقت « ماريا » اسمها مشفوعاً بحسرة ارتياح ، ولكن المرأة لم تعثر على اسمها على الرغم من مراجعة القائمة عدّة مرات . سألت الحارسة وقد سيطر عليها القلق . امرأة أخرى ، ولكنّ هذه هزّت كتفيها دون أن تنبس بكلمة .

— إنني جئت للتحدث بالهاتف . قالت « ماريا » .

— حسناً ، أيتها الغندورة ، قالت لها الرئيسة وقادتها نحو سريرها بأسلوب لطيف ومتكلف . — اذا تصرّفت جيداً ، ستستطيعين التحدّث بالهاتف مع من تشائين ، ولكن غداً وليس الآن .

حدث آنذاك شيء في ذهن « ماريا » جعلها تفهم لماذا كانت النساء في الحافلة يتحركن بطريقة وكأنهن في عمق حوض من الماء . كانوا قد استعملوا بعض المسكّنات لتهدئتهنّ ، وان ذلك القصر الغارق في العتمة ذا الجدران السميكة المبنيّة من الحجر والسلالم الباردة ، لم يكن سوى مستشفى للمصابات بالأمراض العقلية . هربت « ماريا » مرتعبة من صالة النوم ، وقبل أن تصل الباب قبضت عليها حارسة عملاقة كانت تلبس بدلة ميكانيكي ووجهّت لها ضربة بالمفتاح العمومي الذي كانت تحمله فطرحتها أرضاً . نظرت اليها « ماريا » بطرف عينيها وهي مشلولة من الخوف .

— في سبيل الله ، قالت . أقسم لك بأمي المرحومة ، بأنني لم أجئ الى هنا الاّ للتحدّث بالهاتف .

وكفتها رؤية وجهها لتعلم بعدم جدوى التوسّل بها ، تلك المجنونة، لابسة البذلة التي كانوا يسمونها « هرقلة » لقوتها الفائقة . كانت مكلفة بالحالات الصعبة ، وكانت اثنتان من النزيلات قد ماتتا من قبل مخنوقتين بذراعها الشبيه بذراع دبّ قطبي مدرّب على فنّ القتل بسبب الاهمال ، وتمّ حل القضية الاولى على أنها حادث متحقق منه ، وكانت الثانية أقلّ وضوحاً .

وقاموا بتوبيخ « هرقلة » وتحذيرها من أنهم في المرّة القادمة سيتحققون بعمق من ظروف الموت . وكانت الأقوال الشائعة تحكي بأن تلك الشاه الضالّة ذات الألقاب الكبيرة ، كانت ذات سيرة عكرة مليئة بالحوادث الغامضة في العديد من مستشفيات المجانين في « اسبانيا » .

ولم تنم « ماريا » في تلك الليلة الا بعد أن حقنوها بمنوم ، وعندما استفاقت قبل طلوع الصباح مدفوعة بشهيّة التدخين ، وجدت نفسها مربوطة من معصميها وكعبيها الى قوائم السرير ، ولم يحضر أحد لنجدتها رغم صراخها . وفي الصباح وبينما لم يجد لها زوجها أيّ أثر في «برشلونة » ، اضطروا الى أخذها الى المستشفى لأنهم وجدوها قد فقدت الاحساس ، وانها كانت غارقة في وسط بحيرة من القذارات الشخصية .

وعندما عاد اليها احساسها لم تكن تعلم حقيقة الوقت الذي مرّ ، وكان العالم قد تحول الى غدير من الحبّ ، وكان يوجد مقابل سريرها عجوز كأنّه التمثال . يمشي على باطن قدميه وله ابتسامة تبعث على الخدر والذي أعاد اليها سعادة العيش بالسماح لها أمرين . انّه مدير المستشفى .

وقبل أن تكلمه « ماريا » أو تحيّيه ، وطلبت منه سيجارة ، فاعطاها واحدة بعد اشعالها ثمّ أهداها العلبة التي كانت شبه مملوءة . لم تتمكن « ماريا » من كبح نشيجها .

– استغلّي الفرصة الآن وابكي قدر ما استطعت . قال لها الطبيب ذلك بصوت يبعث على النوم . – ليس هناك علاج أفضل من الدموع .

روّحت « ماريا » عن نفسها بدون خجل ، ولم تكن من قبل قد بكت بتلك الطريقة ، حتى مع عشاقها العابرين في لحظات الضّجر التي تعقب ممارسة الحبّ . وفي الوقت الذي كان الطبيب يستمع اليها ، فانّه كان يرتّب شعرها في نفس الوقت ويصلح وضع الوسادة لكي تستطيع التنفّس بشكل أفضل ، وكان يقودها في متاهة شكوكها بحكمة ولطف لم تحلم بهما أبداً . كانت المرّة الاولى في حياتها أن تحصل معجزة كهذه ، وهو أن يفهمها انسان ويستمع اليها بكل روحه دون أن ينتظر لقاء ذلك بأن يضاجعها . وبعد ساعة طويلة ، حيث روّحت عن نفسها ، طلبت منه أن يسمح لها بالتحدث مع زوجها بالهاتف .

عاد الطبيب الى هيبته التي تخوله اياه منزلته وقال لها : « ليس الآن، أيّتها الملكة » . وداعب خدّها بحنان لم تشعر بمثله من قبل مطلقاً . « سيكون كل شيء في وقته » ومن عند الباب قام لها بحركة أسقفية واختفى الى الأبد بعد أن قال :

– ثقي بي .

في مساء ذلك اليوم تمّ تسجيل « ماريّا » في ذلك الملجأ تحت رقم متسلسل ، اضافة الى تعليق سطحي بخصوص طريقة وصولها الغامضة والشكوك الخاصة بهويتها . وعلى الهامش بقيت ملاحظة المدير المكتوبة بخطّ يده : هائجة . ومثلما توقّعت « ماريّا » كان زوجها قد خرج من شقته المتواضعة الكائنة في حيّ « أورتا » بعد نصف ساعة من موعده المقرّر لتنفيذ التزاماته الثلاثة .

كانت المرّة الاولى التي لم تصل فيها في الوقت المحدد ، في مدة تقارب العامين حيث ربطتهما علاقة حرّة ومنسجمة . وقد فهم هو ذلك التأخير على أنّه نتيجة للأمطار الشديدة التي عصفت بالاقليم في نهاية ذلك الاسبوع . وقبل مغادرته ، ترك لها رسالة ثبّتها على الباب ، يصف فيها تحركاته لتلك الليلة .

في الحفلة الاولى حيث تنكّر جميع الأطفال بصورة حيوان الكنغر ، استغنى عن المكيدة النجمية للأسماك التي لا تُرى ، لأنّه لم يكن يستطيع تنفيذها بدون مساعدتها ، وكان التزامه الثاني في بيت امرأة عجوز لها ثلاثة وتسعون عاماً ، كانت تتحرك على كرسي ذي عجلات وتفتخر لاحتفالها بكل عيد من أعياد ميلادها للسنوات الثلاثين الأخيرة بحضور ساحر جديد . وكان هو مرتبكاً بشكل كبير لتأخر « ماريا » ممّا أفقده التركيز ولم يوفّق حتى في أبسط ألعابه ، وكان ثالث التزاماته التزاماً ثابتاً و ليلياً ينفذه في مقهى تُعزف فيها موسيقى « الكونشرت » في « لاس رامبلاس » ، حيث قام بعمله دون الهام بحضور مجموعة من السيّاح الفرنسيين الذين رفضوا تصديق ما كانوا يرون لأنهم لم يكونوا يؤمنون

بالسّحر . وبعد الانتهاء من كل التزام ، كان يتّصل ببيته بالهاتف وينتظر بيأس أن تردّ عليه « ماريّا » .

وفي طريق عودته الى بيته بشاحنته الصغيرة المعدّة لتقديم الحفلات العمومية ، شاهد بوادر فصل الربيع على أشجار النخيل التي تزيّن شارع باسيودي غراثيا ، وأفزعته فكرة تعسة مرّت بذهنه تصوّر خلالها المدينة بدون « ماريّا » . وتلاشى أمله الأخير عندما وجد رسالته المثبتة على الباب في مكانها ، وسبّب له هذا ارتباكاً كبيراً جعله ينسى تقديم الطعام الى القطة . وبسبب كتابتي لهذا الآن ، فانّني أنتبه الى جهلي لاسمه الواقعي ، لأنّنا في « برشلونة » كنا ندعوه باسمه المهني « ساتورنو الساحر » ، كان غريب الأطوار ويمتاز ببلادة اجتماعية تأبى الاصلاح ، غير أنّ الاحساس والظرافة اللذين كانا ينقصانه ، كانت « ماريا » تتمتّع بقدر كبير منهما . فهي التي تقوده من يده في تلك الأجواء ذات الأسرار الكبيرة ، حيث يصعب الالتقاء بشخص آخر غيره يقوم بالاتصال بالآخرين هاتفياً للسؤال عن زوجته . فعل « ساتورنو » ذلك أكثر من مرة في بداية محيّرة . ولكنّه اكتفى في هذه الليلة بالاتصال بـ « سرقسطة » ، حيث ردّت عليه احدى الجدّات نصف نائمة ، وبهدوء مثير بأنّ « ماريّا » قد غادرت بعد طعام الغداء . لم ينم الا ساعة واحدة ، رأى أثنائها حلماً ثقيلاً أشبه بالكابوس ، بدت فيه « ماريّا » مرتدية ثوب عرس ممزّق وملطخ بالدماء . وعندها استيقظ مستسلماً لشكوكه المرعبة بأنّ « ماريّا » عادت الى تركه لوحده ، ولكن بصورة نهائية هذه المرّة ، في هذا العالم الفسيح بدونها .

كانت قد فعلت ذلك من قبل ثلاث مرّات مع ثلاثة رجال مختلفين، بمن فيهم هو ، في الأعوام الخمسة الأخيرة . كانت قد هجرته في مدينة « المكسيك » بعد تعرفهما بستة أشهر حيث كانا يحتضران من السعادة بفعل حبّ مجنون في غرفة الخدم باقامة « الثوريس » . وفي صباح أحد الأيام افتقدوا « ماريّا » التي لم تعد الى البيت بعد قضائها ليلة خليعة وفاضحة . تركت كلّ ممتلكاتها وحتى خاتم زواجها السابق مع رسالة تقول فيها انها غير قادرة على تحمّل عذابات ذلك الحبّ الغاوي . ظنّ « ساتورنو » بأنها قد عادت الى زوجها الأوّل ، أحد زملاء الدراسة ومُدرس بمدرسة ثانوية ، والذي كانت قد تزوجت به خفية قبل بلوغها سنّ الرّشد ، والذي تركته بعد عامين وذهبت مع آخر دون أن تربطهما علاقة حبّ . ولكن مهلاً : كانت قد عادت الى منزل والديها ، وذهب «ساتورنو» الى هناك للبحث عنها بأيّ ثمن ، توسّل بها بدون أية شروط ووعدها بالجاز اكثر مما كان يعمله في السابق ، ولكنّه اصطدم بقرارها الذي لارجعة فيه : « هناك علاقات حبّ قصيرة وأخرى طويلة » ، قالت له وختمت كلامها بلا رحمة قائلة : « وعلاقتنا هذه كانت قصيرة » . استسلم هو أمام قرارها الحازم . ومع ذلك ، وفي فجر « يوم جميع القديسين » لدى عودته الى مسكنه اليتيم ، وبعد حوالي عام من النسيان ، وجدها نائمة على تخت الصالة وعلى رأسها اكليل من الزّهر ، مرتدية فستان عروس طويل الحاشية ترتديه عادة العرائس العذراوات .

روت له « ماريّا » الحقيقة . كان خطيبها الجديد أرمل وبدون أطفال . صاحب مركز مالي معقول وعلى استعداد للزواج والى الأبد عن طريق الكنيسة الكاثوليكية ، الاّ أنه تركها تنتظره بلباس العرس عند

المذبح. قررّ والداها عمل الحفلة بأيّ حال ، وتبحت هي اللعبة فرقصت وغنّت مع فرقة الموسيقى الشعبية وأفرطت في الشّرب وفي حالة من الندم الفظيع والمتأخر ، ذهبت عند منتصف الليل لتبحث عن « ساتورنو » . لم يكن في البيت ، ولكنها عثرت على مفاتيح البيت في المزهرية الموجودة في الممّر ، حيث كانوا يخفونها باستمرار . وفي هذه المرّة استسلمت هي له بدون شروط . « وهذه المرّة الى متى ؟ » ، سألها ، فأجابته هي ببيت شعري للشاعر « بنيثيوس دي موراليس » : « الحبّ خالد ما دام مستمراً » . ورغم مرور عامين فانّه مازال مستمّراً .

كانت « ماريا » تبدو أكثر نضوجاً تخلّت عن أحلامها في أن تُصبح ممثلة وتفرّغت له هو سواء في العمل أو في السرير . وفي أواخر العام الماضي كانا قد حضرا الى مؤتمر خاص بالسّحرة في « بربغنان » بفرنسا ، وفي طريق العوّدة مرّا ببرشلونة ، فأعجبتها كثيراً وأقاما فيها ، وقد مرّت على ذلك ثمانية أشهر ، تحسّنت فيها أوضاعهما فاشتريا شقة في الحيّ القطلوني « أورتا » ، والكائنة في مكان صاخب وفي عمارة بلا بوّاب ، ولكنها كانت كبيرة تكفي لايواء خمسة أبناء . كانت السعادة ممكنة حتى نهاية الاسبوع الماضي ، عندما استأجرت « ماريّا » سيارة وذهبت الى « سرقسطة » لزيارة بعض أقربائها ، واعدة بالعودة في الساعة السابعة من مساء يوم الاثنين . وحتى صباح يوم الخميس لم يصل عنها أي خبر .

وفي يوم الاثنين من الاسبوع التالي ، اتصلت شركة التأمين على السيارات المستأجرة هاتفياً ببيتها للاستفسار عن « ماريّا » . — « ليس لي

أيّ علم بها » ، قال « ساتورنو » ، « ابحثوا عنها في « سرقسطة » ، واعاد سماعة التلفون الى مكانها . وبعد مرور اسبوع ذهب شرطي مدني الى بيتهما يحمل خبر العثور على هيكل السيارة في طريق ضيّق قرب « قادش » ، على بعد تسعمائة كيلومتر من المكان الذي تركتها فيه « ماريا ». وأراد الشرطي أن يعرف اذا كانت « ماريّا » تعرف تفاصيل أخرى عن السّرقة . كان « ساتورنو » حينذاك يطعم قطّته ، ولم يكد ينظر الى الشرطي عندما قال له بوضوح إن عليهم الاّ يضيعوا الوقت في البحث عنها ، لأنّ زوجته كانت قد هربت من البيت ، وانه لا يعلم مع من ولا الى أين . كان مقتنعاً الى الحدّ الذي شعر فيه الشرطي بنوع من عدم الارتياح واعتذر منه على الأسئلة التي وجهها اليه . واعتبر الأمر مغلقاً .

انّ الريبة بأن تكون « ماريا » قد هربت مع رجل آخر قد تسلّطت على « ساتورنو » في فترة أعياد الفصح ببلدة « كاداكيس » ، حيث كانت « روسا ريغاس » قد دعتهما للتنزّه بقارب شراعي . كنّا في «الماريتيم» ، وهو بار مزدحم وبائس لـ « اليسار المقدّس » في عمق العهد الفرانكوي . مجتمعين حول مائدة حديدية تكفي بالكاد لستة أشخاص ، في حين اننا كنا عشرين شخصاً. وبعد الانتهاء من العلبة الثانية للسجائر في ذلك اللقاء ، وجدت « ماريا » نفسها بدون كبريت . امتدّ ذراع هزيل مغطّى بشعر رجولي وسوار برونزي رومانيّ ليفتح الطريق بين جمهور المائدة وليشعل لها سيجارتها ، فشكرته هي دون أن تنتبه الى شخصه ، ولكن « ساتورنو » الساحر رآه . كان مراهقاً بارز العظام وأمرد ، عليه

شحوب الموت ، وله شعر أسود وطويل على شكل ذيل الحصان يصل الى محزمه . كانت الواجهات الزجاجية للبار تتحمل بالكاد ريح الشمال الربيعية ، ومع هذا فانّه كان يلبس بجامة تصلح للخروج بها الى الشارع مصنوعة من القطن الصلب ونعلاً يلبسه الفلاحون عادة .

لم يروه بعد ذلك حتى نهاية الخريف في مطعم مختص بتقديم الأسماك في شارع « لاابرتيلونيتة » ، يرتدي نفس لباسه السابق ولكنه استبدل ذيل الحصان بضفيرة . سلّم على الاثنين وكأنّه يحيي صديقين قديمين . وبسبب الطريقة التي قبّل بها « ماريّا » وقبلته هي ، صعقت «ساتورنو» شكوك مفادها أنهما كانا يلتقيان سراً . وبعد أيام عثر بالصدفة على اسم جديد ورقم تلفون مكتوبين من طرف « ماريّا » في دفتر عناوين العائلة . وبدافع البصيرة الجليّة للغيرة ، اكتشف لمن كانت . ثم ان حالة هذا الطفيلي الاجتماعية عززّت من قناعته : اثنان وعشرون عاماً ، ولد وحيد لعائلة غنية ، صانع ديكورات لمعارض الموضة ، معروف بعلاقاته بالجنسين اضافة الى تقديمه الخدمات الجنسية المرفوعة الأجر للنساء المتزوجات . ولكنّه تمالك نفسه لغاية الليلة التي اختفت فيها « ماريا » ولم تعد الى البيت . حينذاك بدأ بالاتصال به هاتفياً بشكل يومي ، كل ساعتين أو ثلاث وابتداً من السادسة صباحاً وحتى فجر اليوم التالي، وبعد ذلك كان يتصل به كلما وجد هاتفاً قريباً منه ، غير انّ عدم ردّ أحد على الهاتف قد زاد من عذابه .

وفي اليوم الرابع ردّت عليه امرأة اندلسية أخبرته بأنها لم تكن هناك الاّ لتقوم بأعمال التنظيف ، « لقد ذهب الآنس » ، قالت له ذلك بنبرة فيها

الكثير من التفاصيل مما هيّج جنونه اكثر، ولم يستطع مقاومة اغراء سؤالها عمّا اذا كانت الآنسة « ماريا » موجودة بالصدفة هناك .

– لا تسكن هنا أيّة فتاة بهذا الاسم ، أجابته المرأة . – ربّ البيت أعزب .

– إنني اعلم ذلك ، قال لها ، لا تسكن هناك ، ولكنها تذهب احياناً الى هذا البيت ، أليس كذلك ؟ .

انفعلت المرأة وصاحت :

– ولكن من هذا الأحمق الذي يتكلم معي ؟

أعاد « ساتورنو » السماعة الى مكانها ، وبدا له ردّ المرأة السلبي بمثابة تأكيد لشكوكه التي أصبحت الآن يقيناً حارقاً . فقد السيطرة على نفسه ، وبدأ في الأيام التالية بالاتصال حسب الحروف الهجائية بجميع المعارف في « برشلونة » ولم يجد عندهم أيّ دليل يمكن أن يساعده ، وكانت كل مخابرة من مخابراته تزيد من حدّة مأساته ، وصار هذيانه بدافع الغيرة شائعاً بين سهارى بار « اليسار المقدّس » ، وكانوا يجيبونه بأنواع من المزح لاثارة معاناته . حينذاك فقط أدرك قسوة وحدته في تلك المدينة الرائعة المجنونة والمستغلقة ، والتي لن يجد السعادة فيها مطلقاً . وعند الفجر وبعد اطعام القطّة عصر قلبه لئلا يموت واتّخذ قراراً بنسيان « ماريا » .

وبعد مرور شهرين . لم تكن « ماريا » بعد قد ألفت حياة

المستشفى . لم تكن تأكل اكثر مما يسدّ رمقها لتبقى حيّة ، من ذلك الطعام اليومي الذي يقدم لهن في صحون مثبّتة على المائدة الكبيرة المصنوعة من الخشب القاسي ، ونظراتها ثابتة على الصورة الحجرية للجنرال « فرانسيسكو فرانكو » التي كانت تترأس قاعة الطعام الكئيبة وكأنّها تعود الى القرون الوسطى . كانت في البداية ترفض النظام الزمني ورتابته الغبية لاداء صلوات الفجر والمدائح وصلوات العشاء وغير ذلك من أوامر الكنيسة التي كانت تشغل الجزء الاكبر من الوقت . وكانت ترفض اللعب بالكرة في فناء الاستراحة أو أن تشتغل في معمل الزهور الاصطناعية الذي كان يُدار من قبل مجموعة من نزيلات المستشفى بحرص مسعور . ولكنها واعتباراً من الاسبوع الثالث ، أخذت تنسجم مع جوّ المستشفى . وعلى كلّ حال فان الأطباء كانوا يقولون بأنهن يبدأن هكذا جميعاً، وانهن ينتهين الى الانسجام مع الأخريات عاجلاً أم آجلاً .

ثمّ حل مشكلة الحاجة الى السجائر في الأيام الاولى لوجودها ، اذ كانت احدى الحارسات تبيعها السجائر بسعر الذهب ، ولكن هذه المشكلة عادت لتقلقها عندما نفذ ما كان لديها من مال قليل . وأخذت تسلّي فيما بعد بالسجائر المصنوعة من ورق الجرائد ، والتي كانت بعض النزيلات يصنعنها من أعقاب السجائر التي يجمعنها من القمامة ، وقد صار هاجس التدخين عندها مثل هاجس التلفون .

ثمّ انّ النقود الضئيلة التي حصلت عليها من صناعة الزهور الاصطناعية، أتاحت لها فرحاً سريع الزوال .

ووحشة الليالي كانت من أكثر الأمور قسوة . كانت الكثيرات من النزيلات يبقين ساهرات مثلها ، ولكن دون أن يجرأن على فعل أيّ شيء، لأنّ الحارسة الليلية كانت هي الأخرى تسهر عند الباب الرئيسي المغلق ، بسلسلة وقفل وفي احدى الليالي عندما كانت « ماريا » تشعر بالضيق والكآبة سألت بصوت مسموع جارتها التي تحاذي سريرها :

– أين نحن ؟

ردّت عليها جارتها بصوت حاد وواضح :

– في أعماق الجحيم .

– يقولون إن هذه هي أرض غريبة ، قال صوت آخر من بعيد سُمع في كل أجواء القاعة . – ولابُدّ أن يكون هذا صحيحاً ، لأننا في ليالي الصيف المقمرة نسمع أصوات كلاب تنبح جهة البحر (١) .

سُمع صوت السلسلة داخل الحلقات ، كأنه صوت مرساة الغلاوين وانفتح الباب . كانت الحارسة الجهنميّة تبدو في هذه اللحظات وكأنّها الحيّ الوحيد في ذلك الصمت المطلق وبدأت تمشي في قاعة النوم جيئة وذهاباً من طرف الى آخر . ارتاعت « ماريا » وكانت هي وحدها التي تعرف لماذا .

منذ الاسبوع الأول لوجودها في المستشفى ، كانت الحارسة الليلية قد عرضت عليها بدون لفّ أو دوران أن تنام معها في غرفة الحراسة . وبدأت بنبرة تجارية محدّدة : مقايضة الحبّ بالسجائر أو بالشكولاته أو

بأيّ شيء آخر . « سيكون عندك كلّ شيء » كانت تقول لها مرتجفة : « ستكونين الملكة » . وأمام رفض « ماريا » استبدلت الحارسة اسلوبها ، اذ كانت تترك لها أوراقاً تحمل كلمات حبّ تضعها تحت وسادتها أو في جيوب صدارها أو في أماكن أخرى يصعب التفكير بها . كانت رسائل تحذيرية تمزّق القلب ، قادرة على أن تفزع الحجر . وكان قد مضى على ذلك أكثر من شهر ، بدت فيه صابرة على هزيمتها لغاية تلك الليلة التي وقعت فيها تلك الحادثة في قاعة النوم .

وعندما اقتنعت بأنّ جميع النزيلات كنّ يغطن في نوم عميق ، اقتربت الحارسة من سرير « ماريا » وهمست في أذنها كلّ انواع الهواجس الحنونة وكانت تقبلها في وجهها وعنقها الذي توتر من الفزع وذرعيها المتخشبين وساقيها المنهكين ، وأخيراً عندما ظنّت بأن شلل ماريّا لم يكن بسبب فزعها بل ربّما هو علامة رضى ، تجرّأت على اكثر من ذلك . وجهت لها «ماريا» حينذاك ضربة بظاهر كفّها فاندفعت الى الوراء واصطدمت بسرير جارتها . نهضت الحارسة وهي في أشدّ حالات الغضب وسط اضطراب النزيلات الهائجات .

– يا ابنة العاهرة ، صرخت . ستتعفّن سوية في هذا الاصطبل حتى تُصبحي مجنونة في حبّي .

وصل فصل الصيف بدون اعلان في الأحد الأول لشهر يونيو (حزيران)، واضطروا الى اتخاذ اجراءات الطوارئ ، لأنّ النزيلات وبسبب شعورهن بالحرارة العالية بدأن يخلعن ملابسهن ، بما في ذلك معاطفهن

الصوفية أثناء الصلوات . وحضرت ماريّا متمتعة بمشهد المريضات العاريات اللاتي كانت الحارسات تبهمنّ في الصحن وكأنهن دجاجات عمياء . ووسط حالة الاضطراب هذه وهرباً من الضربات الضائعة ، وبدون أن تعلم « ماريا » كيف ، وجدت نفسها وحيدة في مكتب مهجور فيه جهاز هاتف يرنّ دون انقطاع وكأنّه يتوسل . ردّت « ماريّا » عليه دون تفكير وسمعت صوتاً بعيداً وباسماً يتسلّى بالاعلان عن الوقت:

– السّاعة الآن هي الخامسة والأربعون واثنان وتسعون دقيقة ومائة وسبع ثوان .

– لوطي ! قالت « ماريا » .

أعادت السّماعة الى مكانها متسلية ، وهمّت بالذهاب ، غير أنها انتبهت الى انّ بين يديها فرصة لا تعوض كانت على وشك اضاعتها ، حينذاك رفعت السماعة وأدارت القرص ستّ دورات وهي في غاية التوتر والعجلة ، بحيث انها لم تكن متأكدة مما اذا كان ذلك الرقم هو رقم هاتف بيتها . انتظرت وقلبها يكاد ينطلق من صدرها ، وسمعت ذلك الصوت المألوف لهاتف بيتها الشَّره والحزين ، مرة ، مرتين ، ثلاثاً ، وأخيراً سمعت صوت رجل حياتها في البيت بدونها .

– ماذا ؟

اضطرّت الى الانتظار كي تنزل كرة الدموع التي تشكلت في حلقها .

– غزالي ، حياتي ، تنهّدت .

غلبتها الدموع . وفي الطرف الآخر من الخط ، كان هناك صمت مخيف ، وبصق الصوت المشتعل من الغيرة كلمة :

– عاهرة .

وقطع الخطّ بجفاف .

في تلك الليلة وفي نوبة من الهياج ، أنزلت « ماريا » الصورة الحجرية للجنرال المعلقة في قاعة الطعام ورمت بها بكلّ قواها نحو الواجهة الزجاجية المطلّة على الحديقة ، وتهاوت سابحة في دمائها . ومع ذلك فقد وجدت نفسها قادرة على مواجهة الحارسات ، موجهة لهن ضربات متتالية . وقد حاولن اخضاعها ولكنهنّ لم يبلغن هدفهنّ ، حتى أبصرت « هرقلة » ثانية في فتحة الباب وبذراعين متقاطعين وهي تنظر اليها . استسلمت « ماريّا » فقدنها الى جناح المجنونات الهائجات وأنهكن قواها بواسطة انبوب ماء قويّ وبارد سلّط عليها ، ثمّ حقنّها بمادة التربنتين في ساقيها . وحين شعرت بعجزها عن السّير لتورم الساقين ، فكّرت بأنّه ليس هناك أي شيء في العالم يمكن أن يمنع هربها من ذلك الجحيم . في الاسبوع التالي وبعد عودتها الى قاعة النوم المشتركة ، نهضت « ماريّا » على أصابع قدميها ودقّت باب غرفة الحارسة الليلية .

كان الثمن الذي طلبته « ماريّا » مقدماً هو أن توصل الحارسة

رسالة الى زوجها . قبلت الحارسة على شرط أن يبقى الاتفاق سرياً . وأشارت بسبابتها اشارة حازمة وقالت :

– لو اطلع أحد على هذا السرّ ، فانك ستموتين .

وهكذا فقد ذهب « ساتورنو » الساحر الى مستشفى المجنونات يوم السبت التالي ، بشاحنة الحفلات الصغيرة ، وأعدّها لاقامة احتفال بمناسبة عودة « ماريّا » . استقبله المدير شخصياً في مكتبه النظيف والمنظم وكأنّه سفينة حربية ، وقدّم له تقريراً عطوفاً عن حالة زوجته . ليس هناك من يعرف مصدر قدومها أو كيف ومتى ، لأنّ المعلومات الاولى الخاصة بوجودها هناك ، كانت عبارة عن التسجيل الرسمي الذي أملاه هو نفسه على الموظفة بعد اجراء مقابلة لـ « ماريا » . وانّ التحقيق الذي تمّ بدؤه في نفس ذلك اليوم ، لم يتوصل الى أيّة نتيجة . وعلى كل حال ، فان الشيء الذي كان يثير فضول المدير هو كيف عرف «ساتورنو » المكان الذي توجد به زوجته . وقد حاول « ساتورنو » حماية الحارسة :

– أخبرتني بذلك شركة التأمين على السيارات . قال له .

اقتنع المدير وقال بلهجة المنبسط : « لا أعرف كيف تفعل شركات التأمين لتعرف كل شيء » . ألقى المدير نظرة على الملفّ الذي كان فوق مكتبه وكأنّه مكتب زاهد وختم قائلاً :

– انّ الحقيقة الوحيدة هي خطورة حالتها .

كان مستعداً للسماح له بزيارتها مع اتخاذ اجراءات الحذر الضرورية ، فيما اذا التزم « ساتورنو » الساحر ، لمصلحة زوجته ، بقواعد التصرّف التي سيرسمها هو له .

وخاصّة في طريق تعامله معها ، لتفادي سقوطها في نوبات الهياج التي صارت تنتابها بصورة اكثر وأخطر .

– انّه شيء غريب . قال « ساتورنو » . كانت دائماً شديدة الطبع، غير أنّها كانت تسيطر على انفعالاتها .

أشار الطبيب اشارة عالم وقال : « هناك تصرّفات تبقى كامنة خلال سنوات طويلة ، ثمّ تنفجر في يوم ما . ومع هذا فانّها محظوظة لوجودها هنا ، لأنّنا مختصون في الحالات التي تحتاج الى شيء من الشدّة وأخيراً تنبه الى هاجس « ماريا » الخاصّ بالهاتف ، وقال له :

– دعها تقل ما تشاء ولا تعارضها .

– حاضر ، يا دكتور ، قال « ساتورنو » باسلوب فرح . – انّ هذا هو اختصاصي . كانت قاعة الزيارات ، وهي خليط بين سجن ومكان للاعتراف، كانت في الأصل غرفة المحادثات القديمة للمدير . لم يكن دخول «ساتورنو» اليها انفجاراً للفرح كما كان منتظراً . كانت « ماريا » واقفة في وسط القاعة الى جانب منضدة مع كرسيين ، وعلى المنضدة مزهرية بلا زهور. كان من الواضح أنها قد تجهّزت للذهاب ، مرتدية معطفها البالي ذا اللون الأحمر القاتم ، وحذاء قذراً كانوا قد أعطوه لها من

تبرّعات المحسنين . وفي زاوية لا تكاد تُرى ، كانت « هرقلة » بذراعيها المتقاطعين . لم تحرك «ماريا» عندما شاهدت زوجها يدخل ، ولم يظهر أيّ انفعال على وجهها الذي مازالت آثار جروح الزجاج بادية عليه . قبّل أحدهما الآخر بشكل رتيب .

– كيف حالك ؟ سألها هو .

– سعيدة بمجيئك أخيراً ، يا غزالي . قالت له . انّ هذا هو الموت بعينه.

لم يكن عندهما وقت للجلوس ، وروت له « ماريّا » وهي تروّح عن نفسها بالدموع ، تعاسة المستشفى وقسوة الحارسات والطعام الذي لا تأكله حتى الكلاب والليالي الطويلة التي لا تستطيع فيها اغماض عينيها من الرعب .

– لا أعرف منذ كم يوم أو شهر أو سنة وأنا في هذا المكان ، ولكنني أعلم بأنّ كل يوم كان أسوأ من الآخر . قالت له ذلك وهي تتحسّر من الأعماق وأضافت :

– أعتقد أنني لن أعود الى حالتي الاولى مطلقاً .

– لقد انقضى كلّ ذلك ، قال لها وهو يداعب بأطراف أصابعه آثار الجروح بوجهها . – سأقوم بزيارتك كلّ يوم سبت ، بل اكثر من ذلك إذا سمح لي المدير ، وسترين بأنّ كلّ شيء سينتهي على خير .

حدّقت هي في عينيه الغائرتين . وحاول « ساتورنو » استعمال فنّه لاحتفالي ، فقصّ عليها بنبرة صبيانية مُفتعلة أقوالاً معسولة بخصوص تشخيصات الأطباء .

– « وبايجاز » قال لها ، « مازلت بحاجة الى أيام أخرى لتشفي تماماً » . فهمت « ماريّا » الحقيقة .

– ما هكذا ، يا غزالي ! قالت له مبهورة . حتى أنت تظنّ بأنّي مجنونة؟!

– كيف يمكنك أن تفكري هكذا ؟ قال لها محاولاً الضحك . كل ما في الأمر هو انّ من الأفضل للجميع أن تستمرّي لوقت آخر هنا ، ولكن بظروف أفضل ، بالطبع .

– ولكنّني قلت لك بأنني لم آتي الى هنا سوى للتحدّث بالهاتف، قالت « ماريا » .

لم يعرف هو كيف عليه أن يتصرّف أمام هاجسها المخيف . نظر الى «هرقلة» ، فاستغلّت هذه الفرصة وأشارت الى ساعتها اليدوية لتذكره بانتهاء وقت الزيارة . انتبهت « ماريا » الى الاشارة ونظرت الى الوراء فرأت « هرقلة» وهي على أهبة الاستعداد للهجوم . حينذاك تعلّقت برقبة زوجها وبدأت تصرخ مثل مجنونة حقيقية . أزاحها عنه بكل رقّة ممكنة وتركها لرحمة «هرقلة» التي هجمت عليها من الخلف وبدون اعطاء فرصة لردّ الفعل ، ضربتها بالمفتاح الذي كان في يدها اليسرى ودفعتها

نحو ذراعها الحديدي الآخر وأمسكت بها من رقبتها ثمّ صاحت بـ «ساتورلو» الساحر :

- اذهب .

هرب « ساتورلو » مرتعباً

ومع ذلك ففي يوم السبت التالي وبعد أن تملّل من رعب الزيارة السابقة، عاد « ساتورلو » الى المستشفى وحمل معه قطته التي ألبسها لباساً شبيهاً بملابسه :

نسيج الحياكة الأحمر والأصفر لـ « ليوناردو » الكبير ، والقبّعة المرتفعة ومعطف بدورة ونصف وكأنّه للطيران . دخل بشاحنته الصغيرة الخاصّة بالحفلات الى فناء الدّير ، وهناك قدّم حفلة مدهشة دامت حوالي ثلاث ساعات، تمتّعت بها النزيلات من خلال الشّرفات ، وأطلقن صرخات متنافرة وهتافات غير لائقة ، كلهنّ حضرن عدا « ماريا » التي لم ترفض استقبال زوجها فحسب . بل حتى رؤيته من الشرفات ، شعر « ساتورلو » بأنّه جرح جرحاً مُميتاً ، وعزاه المدير على ذلك بقوله :

- انّه ردّ فعل معروف . ستتغيّر بلا شكّ .

لكنّها لم تتغيّر مطلقاً . فبعد محاولاته المتكرّرة لرؤيتها دون نجاح ، حاول « ساتورلو » بكلّ الوسائل أن تستلم رسالة منه ، ولكن دون جدوى . أعادتها اليه أربع مرّات متتالية وبدون أي تعليق . كفّ «ساتورلو » عن ذلك ، ولكنّه استمرّ في أخذ علب السجائر الى بوّابة

المستشفى ، دون أن يعلم ما إذا كانت تصل « ماريا » أم لا ، حتّى استسلم للواقع .

انقطعت أخباره تماماً ، ولم يُعرف عنه سوى زواجه من جديد وعودته الى بلده . وقبل أن يغادر « برشلونة » ، ترك قطته نصف ميتة من الجوع الى احد خطيباته العابرات التي وعدت بأخذ السجائر الى « ماريا » باستمرار . ولكنها اختفت هي الأخرى . وكانت « روساريغاس » تتذكّر انّها التقت بها في مخازن « الكورت انجلس » منذ حوالي اثني عشر عاماً. كان رأسها حليقاً وكانت تلبس معطفاً برتقالي اللون لأحد المذاهب الشرقيّة ، وكانت في أيام حملها الأخيرة ، روت لـ « روساريغاس » بأنّها استمرّت في أخذ السجائر الى « ماريا » كلّما سنحت لها الفرصة ، وانّها قامت بمساعدتها لحلّ بعض الامور العاجلة والطارئة . حتى اليوم الذي ذهبت فيه الى هناك ولم تشاهد سوى حطام المستشفى الذي كان هُدم كذكرى سيّئة من ذلك الزمن النكد . بدت « ماريا » لها مُشرقة في المرّة الأخيرة التي شاهدتها ، أدركتها السّمنة قليلاً ، ولكنّها كانت مسرورة بهدوء المستشفى . في ذلك اليوم أخذت لها القطّة أيضاً ، لأنّ النقود التي تركها لها « ساتورلو » لاطعام القطّة ، كانت قد نفدت .

أبريل (نيسان) ١٩٧٨

١ - ملاحظة المترجم : يشير المؤلف هنا الى مثل اسباني معروف يقول : «هناك غرب على الساحل» .يضرب هذا المثل للتحذير من العواقب السلبية للكلام ، لأنّ هناك احتمالاً بأن يسمعه من لا ينبغي له أن يسمعه.

اشباح شهر آب

وصلنا الى « أريتْو » (١) قبل منتصف النّهار بقليل ، وتُهنا لأكثر من ساعتين نبحث عن القلعة التي يعود تاريخها الى عصر النهضة والتي كان قد اشتراها الكاتب الفنزويلي « ميغيل أوتيرو سلفا » في تلك المنعرجات الرعوية لحقول « توسكانا » . كان يوم أحد في أوائل شهر أغسطس (آب) ، وكان يوماً ساخناً وصاخباً ، ولم يكن من السّهل العثور على أحد يعرف شيئاً في تلك الشوارع المكتظّة بالسّيّاح . وبعد محاولات عديدة ، عدنا الى السّيّارة وتركنا المدينة وتبعنا طريقاً محاطاً بأشجار السّرو وبدون علامات مرور وسألنا إمرأة عجوز ترعى قطيعاً من الأوزّ فدلّتنا بدقة على مكان القلعة . وقبل أن تودّعنا سألتنا عمّا إذا كنّا نفكّر في المبيت هناك ، فأجبناها ، حسب خطّتنا ، بأنّنا ذاهبون الى القلعة لتناول طعام الغداء فقط .

— هذا أفضل ، قالت . لأنّ تلك الدار ترعب .

سخرنا أنا وزوجتي من اعتقادها ، لأننا لا نؤمن بأشباح وسط النهار ، غير أنّ ولدينا الاثنين خمسة وسبعة أعوام على التوالي فرحا بفكرة التعرّف على شبح وجهاً لوجه .

بالاضافة الى كون « ميغيل أوتيرو سلفا » كاتباً جيداً ، فانّه مضيّف في غاية الكرم وضليع بلذيذ الطعام واصول الأكل . كان ينتظرنا على طعام لن ننساه . وبما أن الوقت كان متأخراً ، فاننا لم نتعرّف على القلعة من الداخل قبل جلوسنا الى مائدة الطعام ، ولكنّ مظهره الخارجي لم يكن يثير أيّ نوع من الرعب ، وانّ أيّ احتمال للقلق كان يتبدّد بمنظر المدينة التي كنّا نراها بالكامل من الشرفة التي كنّا نأكل فيها . كان من الصعب تصديق أنّ في تلك الربوة ذات البيوت المرتفعة التي لا تكفي الاّ بالكاد لتسعين ألف شخص ، قد وُلد ذلك العدد من الرجال ذوي العبقرية الخالدة . ومع ذلك ، فان « ميغيل أوتيرو سلفا » قال لنا بظرافته الكاريبية إنّه ليس هناك ، على كثرة هؤلاء ، من اشتهر كثيراً في « أريثو » ثمّ عبّر عن رأيه قائلاً :

– أكبرهم كان « لودوييكو »

هكذا بدون ألقاب : « لودوييكو » ، كبير سادة الفنّ والحرب ، الذي كان بنى تلك القلعة على حساب مأساته ، والذي تحدّث عنه «ميغيل» طوال فترة الغداء ، تحدّث لنا عن سلطته الواسعة و عن حبّه المتناقض وموته الفظيع . قصّ علينا كيف انّه طعن في لحظة جنون القلب ، زوجته في نفس السرير الذي تحابا فيه قبل ذلك بقليل ، ثم كيف حرّض على نفسه كلابه المفترسة للمقاتلة فقطّعته إرباً بأسنانها . وأكّد لنا بجديّة بأن شبح « لودوييكو » ، كان يطوف بعد منتصف الليل أرجاء البيت في جنح الظلام ، بحثاً عن السكينة من عذاب الحبّ .

كانت القلعة في الواقع هائلة وكئيبة . غير أنّ رواية « ميغيل » لم تبدُ لنا ونحن في تلك الحالة من امتلاء البطون وفرح القلوب ، سوى مجرّد نادرة من تلك النوادر الكثيرة التي كان يرويها لتسلية ضيوفه . كانت الاثنتان والثمانون غرفة التي زرناها بعد القيلولة دون أن ننبهر ، قد عانت كل انواع التغييرات من قبل مالكيها المتوالين . كان « ميغيل » قد جدّد الطابق السفلي بالكامل ، وبنى غرفة نوم حديثة بأرضية من المرمر وأجنحة لحمام الساونا والتربية البدنية ، وكذا الشرفة المليئة بالأزهار ذات الألوان الصارخة ، حيث تناولنا طعام الغداء . أما الطابق الثاني الذي تمّ استعماله اكثر من أيّ طابق آخر على مرّ القرون ، فانّه كان عبارة عن مجموعة من الغرف المتتابعة وبلا أيّة علامات فارقة . وبها أثاث من مختلف العصور ، تركت لتواجه مصيرها . وفي الطابق الأخير ، لاحظنا غرفة كأنّ يد الزمان لم تطلها . وكانت غرفة نوم «لودوييكو» .

كانت لحظة ساحرة . رأينا السرير ذا الستائر المطرّزة بخيوط من ذهب وغطاءه العجيب المصنوع من القياطين الذي مازال متصلّباً بفعل الدم الجاف لحبيبته المذبوحة . ورأينا الموقد ورماده البارد والقطعة الأخيرة من الحطب التي تحوّلت الى حجر ، والدولاب الذي يحتوي على أسلحته وهي في أحسن حال، وصورته المرسومة على لوحة زيتية في حالة تأمل وفي اطار ذهبي ، بيد أحد كبار فنّاني « فلورنسا » من الذين لم يحالفهم الحظّ لنيل شهرة كبيرة . غير أنّ الذي أثار دهشتي بقوة هو رائحة الفراولة الطازجة التي بقيت محصورة في جنبات الغرفة دون أن يجد أحد لذلك تفسيراً .

انّ نهارات فصل الصيف طويلة وفسيحة في منطقة « توسكانا » ، ويبقى خطّ الأفق في مكان حتى التاسعة مساء ، وعندما انتهينا من رؤية القلعة، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ، غير أنّ « ميغيل » ألحّ على أخذنا لمشاهدة اللوحات الجصيّة لـ « بييرو ديلا فرانثيسكا » في كنيسة «سان فرانثيسكو » ، وبعدها تناولنا قهوة مصحوبة بمحادثة طويلة تحت تعريشات الساحة العمومية ، وعندما راجعنا لأخذ حقائبنا ، وجدنا العشاء جاهزاً ، وهكذا فقد بقينا للعشاء .

وبينما كنا نتناول عشاءنا تحت سماء بنفسجية مليئة بالنجوم ، أشعل الطفلان بعض الفوانيس في المطبخ وذهبا لاكتشاف الظلمات في الطوابق العليا، وكنا نسمع من مكاننا على المائدة خببهما وكأنهما خيول جبلية تجري على السلالم ، صرير الأبواب وصرخاتهما الفرحة وهما يناديان « لودوفيكو » في الغرف الدّاجية . وكانا هما اللذان اقترحا فكرة المبيت السيئة ، وساندهما «ميغيل أوتيرو سلفاه في ذلك ، ولم نتجرأ نحن على رفض ذلك .

وعلى العكس ممّا كنت أخشاه ، فقد نمنا جيداً ، أنا وزوجتي في غرفة بالطابق السفلي ، وولدانا في غرفة تجاور غرفتنا . وكان قد تمّ تجديد الاثنين ولم يبق بهما أيّ أثر للعتمة ، وبينما كنت أغلب النّعاس ، عددت الدقّات الاثنتي عشرة الساهرة لساعة الصالة ذات الرقاص وتذكّرت التحذير المخيف لراعية الأوز. ولكن لشدّة تعبنا ، نمنا بسرعة وغرقنا في نوم عميق ومستمرّ واستيقظت بعد السابعة على شمس مشرقة كانت تتخلّل لبلاب النافذة . والى جانبي ، كانت زوجتي تعوم في بحر هادئ من

البراءة . - « يا للحمق ، قلت لنفسي . - مازال هناك من يؤمن بالأشباح في هذا الزمن » . حينذاك فقط أرعبتني رائحة الفراولة الطازجة ورأيت الموقد برماده البارد وقطعة الحطب المتحولة الى حجر ، وصورة الرّجل الحزين الذي كان نظر إلينا عبر قرون ثلاثة وفي اطار ذهبي . لم نكن ، في الواقع ، في غرفة الطابق السفلي حيث نمنا في الليلة الماضية ، بل في غرفة نوم « لودوفيكو » ، تحت الافريز والستائر المتربة والشراشف المشرّبة بالدّم الذي مازال ساخناً في سريره اللعين .

اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٠

١ - ملاحظة المترجم : « أريثّو » مدينة في وسط ايطاليا في منطقة «توسكانا» . يسكن فيها حوالي مئة ألف نسمة ، وهي مركز تجاري للمنتجات الزراعية فيها آثار رومانية وقوطيّة مهمة .

ماريّا دوس برازيرس (١)

وصل موظّف مؤسّسة دفن الموتى في الوقت المحدّد بالضبط ، بحيث أنّ « ماريّا دوس برازيرس » كانت ما تزال ترتدي برنس الحمّام ورأسها مليء بماسكات لفّ الشَّعر ، غير أنّها وجدت لنفسها بالكاد وقتاً لتضع وردة حمراء فوق أذنها كيلا تبدو مُنفّرة كما كانت تشعر . وتأسّفت أكثر على حالتها عندما فتحت الباب ورأت بأنّ الموظف لم يكن رجلاً كئيباً كما ينبغي أن يكون تجار الموت حسب ظنّها ، بل شاباً خجولاً يرتدي سترة بمربعات وربطة بها عصافير ملوّنة. ولم يكن يحمل معطفاً على الرغم من ربيع برشلونة المتقلّب المعروف بأمطاره المصحوبة بالعواصف الهادئة التي تجعله أشدّ إزعاجاً من الشتاء . جلست « ماريّا دوس برازيرس » وهي تشعر بخجل شديد ، على الرغم من تعوّدها على استقبال الكثير من الرجال في مختلف ساعات اليوم . كانت قد أكملت لتوّها السادسة والسبعين ، وكانت مقتنعة بأنها ستموت قبل حلول أعياد الميلاد ، وعلى الرغم من ذلك ، فإنّها كانت على وشك اغلاق الباب بوجه تاجر الدّفن ، طالبة منه أن ينتظر قليلاً بينما ترتدي هي ملابسها لتستقبله كما يجب ، ولكنها عَدلت عن الفكرة لظنّها بأنّه سوف يتجمّد برداً في بسطة السلّم المعتمة فدعته الى الدّخول .

– أرجو المعذرة على مظهري هذا الذي يشبه مظهر الخفّاش ، قالت له ، ولكنّني أعيش في « قطالونيا » منذ خمسين عاماً ، وهذه هي المرّة الاولى التي يصل فيها انسان الى الموعد بالوقت المحدّد تماماً .

كانت تتكلّم اللغة القطالونيّة بصورة مضبوطة وبنقاء قديم ومهجور نوعًما ، ومع ذلك فانّها لم تتخلّص تماماً من موسيقية لغتها البرتغالية المنسيّة ، وعلى كبر سنّها وعضلاتها الشبيهة بالأسلاك ، فانّها مازالت تلك المرأة السمراء الحيويّة ذات الشعر النابت والعينين الصفراوين الشرّستين وكانت قد فقدت شعور الرأفة بالرّجال منذ زمن طويل . لم يصدر عن تاجر الموت الذي استعان على رؤية طريقه بضوء الشارع الذي يصل الى المكان ، لم يصدر عنه أي تعليق ، بل نظّف حذاءه بحصيرة الجوت وقبّل يدها وانحنى احتراماً لها .

– إنك رجل شبيه برجال زماني ، قالت له « ماريّا دوس برازيرس» بقهقهة مجلجلة . – اجلس .

ورغم حداثته في هذه المهنة ، فانّه كان يجيدها تماماً ولهذا فانّه لم يستغرب من ذلك الاستقبال الثامنة صباحاً ، وخاصة من امرأة عجوز خالية من الرحمة بدت له للوهلة الأولى وكأنها مجنونة مشرّدة من أمريكا الجنوبية . ولهذا فانّه جلس على بعد خطوات من الباب دون أن يعلم ماذا يقول ، بينما كانت « ماريا دوس برازيرس » تزيح ستائر النوافذ الخشبية . كان الشراق الربيع الخفيف ينير الأجواء الدقيقة للصالة التي كانت تبدو وكأنّها معرض لبيع الأثاث القديم . وكلّ ما كان يوجد هناك لم يكن

سوى حاجات الاستعمال اليومي لا أكثر ولا أقلّ ، وكلّ حاجة منها كانت موضوعة في مكانها الطبيعي وبذوق دقيق يجعل من الصعب العثور على دار أخرى أحسن تنظيماً في مدينة قديمة وسريّة مثل «برشلونة » .

– معذرة ، قال ، يبدو أنني أخطأت في العنوان .

– حبّذا ، قالت هي ، ولكنّ الموت لا يخطئ .

فتح التاجر فوق مائدة الطعام ورقة كثيرة الطيّات وكأنّها رسالة ألغاز ، بها أجزاء ملوّنة بمختلف الألوان ، وفي كلّ لون صلبان وأرقام . فهمت « ماريا دوس برازيرس » بأنّ تلك لم تكن سوى خريطة مقبرة «مونتخويج» الشاسعة وتذكّرت بفزع قديم جداً مقبرة « ماناوس » تحت وابل أمطار اكتوبر ، حيث كانت حيوانات التابير (٢) تتخبّط في المياه بين قبور بلا أسماء وأضرحة لمغامرين مغطاة بزجاج فلورنسي . في صباح أحد الأيام حين كانت صغيرة جداً ، استيقظ الناس على فيضان « نهر الأمازون » الذي تحوّل الى مايشبه بحيرة كريهة ، وشاهدت آنذاك توابيت محطمة وطافئة في فناء دارها وأجزاء من ملابس وشعر الموتى في الشقوق ، وكانت تلك الذكرى سبباً في اختيارها مقبرة «مونتخويج » المرتفعة مكاناً لدفنها ، بدلاً من مقبرة « سان خرباسيو » القريبة والمألوفة .

– أريد مكاناً لن يصله الماء مطلقاً ، قالت .

– هذا هو المكان اللائق ، قال التاجر ، مشيراً الى مكان محدّد في الخريطة بمؤشّر قابل للمدّ كان يحمله في جيبه وكأنه قلم من الفولاذ . – ليس هناك بحر يمكنه الارتفاع الى هذا المستوى .

تعرّفت هي على اتجاهات الخريطة الملوّنة لغاية عثورها على المدخل الرئيسي ، حيث كانت توجد القبور الثلاثة المتجاورة والمتشابهة التي لا تحمل أيّ اسم والتي دُفن فيها « بوينابنتورة دورّوتي » واثنان آخران من القواد الفوضويين الذين قُتلوا في « الحرب الأهلية » . وفي كلّ ليلة كان هناك من يكتب أسماءهم على اللوحات الحجرية البيضاء سواء بقلم الرصاص أو بالصّباغة أو بالكربون أو بصبغ الحواجب أو الأظافر ، بجميع حروفها وبترتيب سليم . وفي كلّ صباح كان الحرّاس يمحون تلك الأسماء لكي لا يعرف أحد من هو المدفون الحقيقي في كلّ قبر منها ، تحت ذلك المرمر الأخرس . كانت « ماريّا دوس برازيرس » قد حضرت مراسيم دفن « دورّوتي » ، وكان أكثر المآتم حزناً وصخباً ، لم تشاهد «برشلونة» مثله من قبل ، وكانت ترغب في أن تُدفن الى جانب قبره .ولكن لم يكن هناك أيّ قبر فارغ في تلك الجزء الفسيح من المقبرة والمليء بالقبور ، ولهذا فقد صبرت ورضيت بما هو ممكن . « ولكن بشرط أولاً تحشروني في واحد من تلك الجارورات لمدة خمسة أعوام ، كما لو كان الواحد في صندوق بريدي » . وتذكّرت بعدها الشرط الأساسي فختمت بقولها :

– من الضروري أن أدفن وأنا منطرحة .

وفعلاً ، فقد كان هناك ردّ فعل صاحب على بيع عدد من القبور بالدفع المقسّط ، وما صاحبة من اشاعات تقول بأنّهم كانوا يبيعون قبوراً يدفن فيها الميّت عمودياً ، أي واقفاً ، اقتصاداً في المساحة . فسّر التاجر بدقّة الخطيب الذي يعلّم خطبته من الذاكرة وكرّرها حتى الاعياء ، بأنّ تلك الأقوال ليست سوى اشاعات فاسدة تطلقها شركات الدّفن التقليدية بهدف اساءة سمعة الدفعة الجديدة من القبور التي تباع بالتقسيط . وبينما كان الرّجل يفسّر لها ، دقّ الباب ، إذ سمعت ثلاث ضربات خفيفة ، فتوقّف هو بشيء من القلق ، الاّ أنّ « ماريّا دوس برازيرس » أشارت عليه بالاستمرار .

– لا تهتّم ، قالت له ، إنّه « نوي »

تناول التاجر خيط الكلام من جديد حتى اقتنعت « ماريا دوس برازيرس» بكلامه ، ولكنّها قبل أن تفتح الباب ، أرادت أن توجز له فكرة أخيرة كانت قد نضجت في قلبها على مدى أعوام كثيرة وفي تفاصيل حياتها الخاصة ، منذ فيضان « مالاوس » القديم ، فقالت له :

– كل ما أريد قوله هو إنني أبحث عن مكان أدفن تحت أرضه ، دون أن يكون هناك خطر الفيضان ، واذا كان بالامكان أن يكون تحت ظلال الأشجار في الصيف ، وألاّ يخرجوني بعد فترة معلومة ويرموا بي في المزبلة .

فتح باب البيت ودخل كلب مبلول بماء المطر ، ذو مظهر قبيح لا يتناسب مع ما يوجد في البيت . كان عائداً من نزهته الصباحية في الحيّ،

وعند دخوله أصيب بنوع من هياج الغبطة ، فقفز على المائدة وأخذ ينبح بدون سبب معلوم وكان على وشك تدمير خريطة المقبرة بقوائمه القذرة الموحلة ، وكفته نظرة واحدة من صاحبته لكبح اندفاعه .

– « نوي » ! قالت له دون أن تصرخ . انزل من هنا !

تقلّص الحيوان ونظر اليها خائفاً وانزلقت من عينيه دمعتان صافيتان على خطمه . حينذاك عادت « ماريا دوس برازيرس » للتحدّث الى التاجر فوجدته في حيرة من أمره ، وقال مستغرباً :

عجباً ! لقد بكى .

– لقد هاج لأنّه وجد شخصاً غريباً هنا في هذه الساعة . اعتذرت « ماريا دوس برازيرس » منه بصوت واطئ . – انّه يدخل عادة الى البيت بعناية تفوق عناية الرجال ، باستثنائك على ما رأيت .

– ولكن ، يا للعجب ، لقد بكى ! كرّر التاجر قوله ذلك ولكنّه انتبه بسرعة الأسلوب المنفعل الذي يستعمله في كلامه فاعتذر خجلاً :

– أرجو المعذرة ، ولكنّ هذا الأمر لا يمكن مشاهدته حتى في السينما .

– كلّ الكلاب تستطيع أن تفعل ذلك اذا درّبت ، قالت هي . – الآ أن الذي يحدث هو أنّ أصحابها يقضون حياتهم في تعليمها عادات تجعلها تعاني، مثل الأكل في الصحون وقضاء حاجاتها في ساعات

محدّدة وفي مكان معيّن . ولكنهم لا يعلمونها الأشياء الطبيعية التي تعجبها مثل الضحك أو البكاء . أين وصلنا في حديثنا ؟

لم يبق الآ القليل ، بحيث انّ « ماريا دوس برازيرس » وجدت نفسها مضطرّة على قبول تحمل حرارة الصيف بدون ظلال الاشجار ، لانّ الأشجار الوحيدة التي كانت موجودة في المقبرة ، كانت ظلالها محجوزة لرجال النظام، في حين أنّ شروط العقد الأخرى غير ضرورية في نظرها ، لأنّ الذي كان يهمها هو الحصول على تخفيض بسبب الدّفع النقدي المقدّم .

وعند الانتهاء فقط ، حيث كان التاجر يعيد أوراقه الى المحفظة ، حينذاك امتحن الدّار بنظرة واعية فأدهشه النّفس السّحري لجمالها . عاد الى النظر الى « ماريا دوس برازيرس » وكأنّه ينظر اليها لأول مرّة . وقال :

– هل تسمحين لي أن أسألك سؤالاً خاصاً ؟ ، قادته هي نحو الباب .

– بالطبع ، قالت ، بشرط ألاّ يكون متعلقاً بالعمر .

– إنني ولوع بالتكهّن بمهن الناس من خلال الأشياء الموجودة في بيوتهم ، والواقع انني هنا لا أصيب هدفي ، فما الذي تفعليه ؟

أجابته « ماريا دوس برازيرس » وهي غارقة في الضحك :

– انّني عاهرة ، يا بنّي . ألم يبد هذا بادياً عليّ ؟

احمرّ وجه التاجر وقال :

– انني آسف .

– كان ينبغي لي أن اكون أسفاً ، قالت له وتناولته من ذراعه لتمنع اصطدامه بالباب ، وعلّقت بعدها قائلة :

– حذار من أن يتحطّم راسك قبل أن تدفنني جيداً .

وبعد اغلاقها الباب مباشرة حملت الكلب وأخذت تدلّله وبدأت تغنّي بصوتها الأفريقي الجميل منضمّة الى غناء كورس الأطفال الذين شرعوا بالغناء في تلك اللحظة في روضة الأطفال القريبة . وقبل هذا الوقت بثلاثة أشهر كانت قد رأت في منامها بأنّها ستموت قريباً ، ومنذ ذلك الحين وجدت نفسها أكثر التصاقاً بذلك الحيوان في وحدتها . واهتمّت بشكل فائق بوصيّتها لتقسيم حاجاتها بعد موتها وكذا بمصير جثّها لكيلا تسبّب أيّ ازعاج لأيّ أحد لو أنّها ماتت بعد ذلك . كانت قد تركت مهنتها بشكل إرادي بعد أن جمعت ثروة يوماً بعد آخر ولكن دون أن تقصّر على نفسها ، ثم اختارت لنفسها كملاذ نهائي قرية «جراثيا» القديمة والنبيلة والتي أخذ امتداد المدينة يبتلعها . وكانت قد اشترت الدّور الذي يفصل بين الطابق الأرضي والطابق الأول في حالة شبه خربة وتنبعث منه بشكل دائم رائحة سمك مُبخّر ، وكانت جدرانه متآكلة بسبب رطوبة البحر وبها آثار طلقات بعض المعارك التي لم تتوّج بأيّ نصر . لم يكن في العمارة بوّاب وكانت سلالمها الرطبة المعتمة تنقصها بعض الدرجات ، على الرغم من أن جميع شققها كانت

مسكونة. قامت « ماريا دوس برازيرس » بتجديد الحمّام والمطبخ وغطّت جدران المنزل بورق ملوّن مبهج وركّبت زجاجاً ذا رسومات ومتالز من الحمل على النوافذ ، وأخيراً حملت اليه الأثاث الجميل والأدوات المنزلية الأخرى وقطع الديكور والصناديق المغلّفة بالحرير والمطرّزات التي كان الفاشستيون سرقوها من المنازل المهجورة للجمهوريين الذين هربوا منها بعد هزيمتهم ، والتي قامت هي بشرائها شيئاً فشيئاً خلال سنوات طويلة بأسعار زهيدة وباتّفاقات سريّة . وكانت صلتها الوحيدة التي تربطها بالماضي هي صداقتها مع قومس « كردوناه الذي استمرّ بزيارتها ، فكان يذهب اليها في يوم الجمعة الأخير من كل شهر لتناول العشاء معها وممارسة لعبة الحبّ الفاتر معها بعد العشاء . ولكن حتى تلك الصداقة التي تعود أصولها الى فترة الشباب قد بقيت سريّة لأنّ القومس كان يترك سيارته التي تحمل الشعار العائلي على بُعد يزيد عمّا تقتضيه الحكمة ، وكان يذهب الى منزلها ماشياً تحت الظلال حفاظاً على سمعتها وسمعته هو . لم تكن «ماريا دوس برازيرس» تعرف أحداً في العمارة ، باستثناء الدار المقابلة لدارها حيث كانت تعيش عائلة شابة منذ زمن ليس بالطويل وكانت لهم ابنة بتسعة أعوام . والحقيقة ، وإن كانت تبدو غريبة ، هي أنّها لم تلتق بأحد غير هذه العائلة عند صعودها أو نزولها في السلّم.

ومع ذلك فان تقسيمها لميراثها اظهر لها بأنّها كانت متغلغلة أكثر مما كانت هي نفسها تتصور ، في ذلك المجتمع القطلوني الجاف الذي ترتكز قيمته الوطنية على مفهوم الشرّف والخجل . وحتى مخردوات بيتها

الأشدّ تفاهة ، كانت قد أوصت بها الى الناس الذين كانوا أقرب الى قلبها وكانوا أيضاً أقرب الى بيتها . وفي النهاية لم تكن مقتنعة تماماً بعدالة التوزيع ، ولكنها كانت متأكدة من عدم نسيان أيّ أحد يستحق شيئاً من ميراثها ، لأنّها هيأت ذلك بصراحة ودقّة بحيث انّ موثّق العقود الكائن في شارع « أربول » ، كان يعتقد بأنّه يعرف كلّ شيء ، ولم يصدّق عينيه عندما شاهدها تملي من الذاكرة على كتبه قائمة ممتلكاتها المفصّلة والاسم الدقيق لكل حاجة باللغة القطلونية للعصور الوسطى ، ثمّ القائمة الكاملة لأسماء الورثة ومهنهم وعناوينهم والمكانة التي يشغلونها في قلبها. وبعد زيارة تاجر الدفن لها ، صارت تزور المقبرة كغيرها كلّ يوم أحد ، وزرعت كما كان يفعل جيرانها في القبر زهوراً دائمة في أحواض الزّرع ، وكانت تسقي العشب النّابت حديثاً وتقطعه وتساويه بمقصّ خاصّ بالزراعة حتى يصبح شبيهاً بسجاد البلدية . وألفت المكان الى درجة استغربت فيها من سبب رؤيتها المكان في البداية كئيباً . في زيارتها الاولى للمقبرة . وانقبض قلبها عندما شاهدت القبور الثلاثة المتقاربة والخالية من الأسماء ، ولكنّها لم تتوقّف للتمعّن فيها ، لأنّ الحارس كان يراقب على بعد خطوات منها . غير أنّها في يوم الأحد الثالث استغلّت انشغال الحارس لتحقّق واحداً من اكبر أحلامها ، إذ أخذت أحمر الشّفاه وكتبت على اللوحة الحجرية للقبر الأول المغسولة بماء المطر : « دورُوتي » . ومنذ تلك الساعة كانت تعود الى فعل ذلك كلّما استطاعت ، فتكتب على قبر واحد أحيانًا أو على اثنين أو على الثلاثة جميعاً ، ولكن بخطو ثابت وقلب هائج لشدّة الشّوق.

وفي أحد أيام الأحد في شهر سبتمبر (أيلول) . حضرت أول مراسيم دفن في ذلك التلّ ، وبعدها بثلاثة أسابيع وفي أمسية كانت تهبّ فيها رياح شديدة البرودة ، دفنوا شابّة حديثة الزواج في أحد القبور المجاورة لقبرها ، وفي نهاية العام كانت سبعة من القبور مشغولة ، غير أنّ الشتاء القصير قد مرّ دون أن يفسد نظام حياتها . لم تكن تشعر بأيّ تردّ في حالتها الصحيّة . وكان ارتفاع الحرارة التدريجي وتزايد ضوضاء الحياة الذي يسمع من النوافذ المفتوحة ، يزيد من رغبتها في الحياة وتجاوز ألغاز أحلامها . وقد رآها « فوسى كردونا » بعد عودته من الجبل حيث كان يقضي أشهر الصيف الحارّة ، أكثر جاذبية حتى من فترة شبابها المتأخرة والدهشة عندما كانت في الخمسين .

وبعد محاولات فاشلة عديدة ، استطاعت « ماريا دوس برازيرس » أن تجعلْ « توي » يميّز قبرها من بين تلك القبور المتشابهة في ذلك التلّ الفسيح . وعلّمته بعد ذلك البكاء على القبر الفارغ لكي يعوّد على فعل ذلك بعد موتها، وذهبت به مرّات كثيرة مشياً من البيت حتى المقبرة ، وكانت تثير انتباهه الى نقاط محدّدة في الطريق لكي يحفظه من الذاكرة، وهو نفس الطريق الذي تتخذه الحافلة الذاهبة الى هناك من « لاس رامبلاس » ، ولم تتخلَّ عنه قبل تأكدها من قدرته على الذهاب وحده الى هناك .

وفي يوم الأحد عندما قامت بتجربتها الأخيرة مع الكلب ، نزعت عنه دثار الرّبيع لأنّ الصيف كان على الأبواب من ناحية . ولعدم اثارة الانتباه من ناحية ثانية ، وتركته على هواه ، فشاهدته يبتعد وهو يجري

على الرصيف المظلّل بخبب خفيف وبمؤخرة منقبضة وحزينة تحت الذنب الهائج ، واستطاعت هي أن تمنع نفسها بصعوبة من البكاء عليها وعلى الكلب وعلى الأعوام الكثيرة المُرّة المليئة بالعديد من الأحلام المشتركة ، لغاية انحرافه نحو البحر عند زاوية شارع « كاميي مايور » .
وبعد ربع ساعة ركبت في حافلة « لاس رامبلاس » في الساحة القريبة « بلاثادي ليسيبس » ، بهدف رؤيته من نافذة الحافلة دون أن يراها هو ، وفعلاً فقد رأته بين مجاميع الأطفال الذين يخرجون في أيام الأحد ، وكان ينتظر حزيناً وعلى البعد تغيّر اشارة المرور لعبور شارع « باسيو دي جراثيا » .

- يا إلهي ! قالت متحسّرة . ما أشدّ وحدته !

اضطرّت الى انتظاره ما يقارب الساعتين تحت شمس «مونتخويج» القاسية ، وحيّت الكثيرين من الحزانى الذين التقت بهم في أيام الآحاد الماضية والأقلّ أهمية من هذا الأحد ، مع أنها لم تعرفهم الآ بصعوبة ، لأنّ وقتاً طويلاً كان قد مرّ على رؤيتها لهم ، ولم يعودوا يلبسون الحداد على موتاهم ولا يبكونهم ، وكانوا يتركون الزهور فوق القبور دون التفكير بمن فيها . وبعدها بقليل عندما غادر الجميع سمعت دوياً حزيناً أفزع النّوارس ورأت في البحر الواسع باخرة من عابرات المحيطات ، بيضاء تحمل علم « البرازيل » ، وتمنّت من كل قلبها أن تجلب لها تلك الباخرة رسالة من أحد مات لأجلها في سجن « برمانبوكو » . وفي الخامسة والثنتي عشرة دقيقة ظهر « نوي » في التلّ وهو يلهث من التّعب والحرارة ولكن بخيلاء الطفل المنتصر ، وغلبت « ماريّا دوس برازيرس »

في هذه اللحظة الفكرة المرعبة لعدم وجود أحد يبكي على قبرها بعد موتها .

وفي الخريف التالي أخذت تلاحظ بعض العلامات المشؤومة التي لم تستطع فكّ ألغازها ، ولكنّها أدّت الى شعورها بوزن زائد في قلبها . وعادت الى تناول القهوة تحت أشجار الطلح المذهّبة في ساحة « بلاثا ديل ديلوخ » وهي ترتدي معطفها بياقته المصنوعة من ذيول الثعالب ، وقبّعتها المزيّنة بالزهور الاصطناعية التي لقدمها عادت لتصبح من جديد « موضة » حديثة . أرهفت غريزتها محاولة فهم ضيق قلبها وكآبتها الخاصّة ، وأخذت تتقصّى أحاديث بائعات الطيور في « لاس رامبلاس » وهمسات بائعي الكتب الذين تركوا التحدث عن كرة القدم لأوّل مرة بعد سنوات طويلة والصمت الطويل لمشوهي الحرب الذين كانوا يرمون بقطع الخبز الى الحمائم ، وشاهدت في كل مكان علامات للموت لا تقبل الخطأ . وفي «أعياد الميلاد» أنيرت الأضواء الملوّنة بين أشجار الطّلح وارتفعت من الشّرفات الموسيقى وأصوات الفرح وغزت مجموعة من السياح الغرباء عن مصائرنا ، المقاهي المقامة في الهواء الطلق ، ولكن مع ذلك فقد كان هناك حتى داخل الاحتفالات نفسها شعور بتوتّر مقموع شبيه بالذي سبق الفترة التي تسلّط فيها الفوضويون على الحياة العامّة . ولم تكن « ماريّا دوس برازيرس » التي عاشت تلك الأوقات المليئة بالعواطف الكبيرة ، لم تكن تستطيع كبح جماح قلقها ، واستيقظت لأول مرة وهي غارقة في نومها على صوت ضربات مرُوّعة . ففي احدى الليالي قام رجال أمن الدولة بقتل أحد الطلاب بالرصاص أمام نافذة بيتها ، لأنّه كتب بفرشاة

عريضة للصباغة على الجدران : « انعش » فطلونيا « حرّة » ! .

– يا إلهي ! قالت لنفسها وهي في غاية الدهشة . – كأنّ كلّ شيء يموت معي ! لم تكن قد عرفت مثل ذلك الضيق الأ حينما كانت طفلة في « ماناوس » . فقبل طلوع الفجر بدقائق ، كانت أصوات الليل العديدة تنقطع فجأة وتنحبس المياه ويتلجلج الطقس وتغرق غابات الأمازون في صمت سحيق لا يشبه الأ صمت الموت . وفي وسط ذلك التوتّر الذي لا يطاق ، ذهب قومس « كردونا » الى بيتها يوم الجمعة الأخير من شهر أبريل (نيسان) لتناول العشاء معها .

كانت زيارته لها قد تحولت الى طقس ثابت وكان يصل في مواعيده المحدّدة بين السابعة والتاسعة مساء ، يحمل قنينة من الشمبانيا المحليّة ملفوفة بجريدة المساء لكي لا يلاحظها الناس ، وعلبة من الشكولاتة المحشّاة . وكانت « ماريا دوس برازيرس » تهيّء له معجنات محشوّة في صلصة ودجاجة طازجة مطبوخة في مرقها . وكانت هذه الاكلات المفضّلة للعوائل القطلونيّة المعروفة في أوقات عزّها ، بالاضافة الى طبق من الفواكه المشكّلة الموجودة في ذلك الحين . وبينما كانت هي تهيّء الطعام في المطبخ ، كان هو يستمع في الفوتوغراف أجزاء من الأوبرا الايطالية المسجلة في مناسبات تاريخية خاصة ، وكان يرتشف ببطء من كأس بها نبيذ برتغالي يكفيه حتى نهاية الاسطوانا .

وبعد العشاء الذي كان يدوم عادة وقتاً طويلاً تدور فيه الكثير من الأحاديث ، كانا يمارسان الحبّ بشكل رتيب وهما جالسان في

مكانيهما، وكان هذا يترك في نفسيهما ترسبات مخربة . وقبل ذهابه عندما يبدأ القلق ينفذ الى نفسه لقرب منتصف الليل ، كان القومس يترك خمساً وعشرين بسيتة تحت المزهرة الموجودة بغرفة النوم ، وكان هذا المبلغ هو ثمن « ماريّا دوس برازيرس » عندما تعرّف عليها في أحد الفنادق التي مرّ بها في « برازيلو » ، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يعطله صدأ الزمان . لم يكن أيّ من الاثنين قد سأل صاحبه مطلقاً عن أسس هذه الصداقة . كانت « ماريّا دوس برازيرس » تدين له ببعض الأفضال البسيطة، إذ كان ينصحها لكي تُحسن التصرّف في مدّخراتها ، وكان قد علّمها على معرفة القيمة الحقيقية لممتلكاتها وطريقة حفظها لئلاّ تكتشف لكونها حاجات مسروقة ، ثم أنّه هو الذي دلّها على الطريق الذي ينبغي لها أن تختاره لشيخوختها والسكن في « جراثيا » ، بعد أن تم اعتبارها في الماخور الذي قضت فيه معظم حياتها على أنّها لم تعد صالحة للاستعمال في ظلّ الذّوق الحديث ، وأرادوا ارسالها الى احدى دور المتقاعدين السريّة التي كانوا يعلّمون فيها الأطفال ممارسة الحبّ لقاء خمس بسيتات . كانت قد روت للقومس بأنّ أمها قد باعتها عندما كانت في الرابعة عشرة من العمر في ميناء « ماناوس » ، وان الضابط المسؤول في أحدى البواخر التركية قد تمتّع بها بلا رحمة خلال عبور المحيط الأطلسي ثم تركها وحيدة وبلا نقود ومن غير لغة وبدون اسم في بحر أنوار « برازيلو » . كانا يعانيان انعدام الأشياء المشتركة بينهما ، لأن شعورهما بالوحدة كان يتفاقم عندما يكونان سويّة ، ولكن لم يتجرأ أيّ منهما على الشكوى من مفاتن تلك العادة . واحتاجا الى اضطراب وطني عام لكي ينتبه الاثنان في نفس الوقت الى درجة الكره الذي كان يشعر به

أحدهما تجاه الآخر والى مستوى الرأفة في تعاملهما خلال سنوات طويلة . كان بمثابة طريق ، إذ ان قوس « كردونا » كان يستمع الى ثنائية الحبّ «لابوهيمي» بغناء « ليثيا ألباليـسي » و « بنيامينو جيجلي » ، عندما وصله خبر بالصدفة من جهاز الراديو الذي كانت « ماريّا دوس برازيرس » تستمع اليه في المطبخ . اقترب هو على أطراف أصابعه من المطبخ وأخذ يستمع . كان الجنرال « فرانثيسكو فرانكو » الدكتاتور الخالد لاسبانيا ، قد تحمل مسؤوليته وقرّر المصير النهائي لثلاثة من الانفصاليين الباسكيين إذ حكم عليهم بالموت ، تنفّس القوس الصعداء .

– إذن سوف يرمونهم بالرصاص بلا تراجع ، قال ، لأنّ القائد «فرانكو» رجل عادل .

ثبّتت « ماريّا دوس برازيرس » عليه عينيها المشتعلتين الشبيهتين بعيني أفعى الكوبرا الحقيقية وشاهدت حدقتيه الخاليتين من العاطفة وراء النظّارة الذهبية وأسنانه الشبيهة بأسنان القوارض ويديه الهجينتين وكأنهما لحيوان تعوّد على الرطوبة والعتمة ، وهكذا كان .

– عليك أن ترجو الله ألاّ يقع ذلك ، قالت له ، – لأنهم لو رموا واحداً منهم فقط ، لوضعت لك السّم في الحساء .

خاف القوس .

– لماذا ؟

– لأنّني أنا أيضاً بغيٌّ عادلة .

لم يعد قوس « كردونا » الى زيارتها مطلقاً ، وتأكدت « ماريّا دوس برازيرس » من أنّ الفصل الأخير من حياتها قد ختم تتوّه ، وفعلاً فانّها كانت حتى وقت قريب تضايق عندما كان الآخرون يتنازلون لها عن مقاعدهم في الحافلة أو كانوا يساعدونها على عبور الشارع أو يمسكون يدها لصعود السلالم ، ولكنها لم تعد تسمح به فقط ، وانّما تمنّاه كحاجة كريهة . حينذاك طلبت أن يعملوا لها لوحة قبر على طريقة الفوضويين ، بلا اسم ولا تأريخ وأخذت تنام في منزلها دون اقفال الباب لكي يتمكن « نوي » من الخروج بخبر وفاتها فيما إذا ماتت خلال نومها.

وفي أحد أيام الآحاد وبعد رجوعها من المقبرة ، التقت في بسطة السلّم بالطفلة التي كانت تسكن مع أبويها في الدار المواجهة لها ، وصاحبتها فقطعت معها عدة شوارع ، تتحدّث لها بطيب قلب الجدّات عن كلّ شيء ، بينما كانت ترقبها وهي تلعب مع « نوي » وكأنّهما صديقان قديمان وفي ساحة « بلاثاديل دياماني » اشترت لها بوظة حسبما كانت قد خطّطت .

– هل تعجبك الكلاب : سألتها .

– إنّني مفتونة جداً بالكلاب . قالت الطفلة .

آنذاك عرضت « ماريّا دوس برازيرس » عليها الاقتراح الذي كانت قد هيّأته منذ زمن طويل .

– لو حدث لي أيّ شيء في يوم ما ، تولّي أنت مسؤولية « نوي » ، قالت لها ، بشرط واحد ، وهو أن تتركيه حراً أيام الأحد ، دون أن تقلقي عليه أبداً ، انه يعرف ما ينبغي له أن يفعله .

فرحت الطفلة ، وعادت « ماريّا دوس براليرس » الى دارها مسرورة لشعورها بأنها قد عاشت الحلم الذي نضج في قلبها خلال سنوات عديدة . غير أنّ ذلك الحلم لم يتحقّق ليس بسبب تعب الشيخوخة ولا لتأخّر الموت ، ولا حتى نتيجة لقرار شخصي ، لقد أعادتها الحياة الى نفسها في احدى أمسيات نوفمبر (تشرين الثاني) القارسة ، عندما هبّت عاصفة مباغتة عندما خرجت من المقبرة . كانت قد كتبت الأسماء في اللوحات الثلاث ونزلت تمشي نحو محطّة الحافلات عندما بلّلتها بالكامل زخّات المطر الاولى وأسرعت الى الاحتماء بمداخل عمارات أحد الأحياء الخاوية الذي كان يبدو وكأنّه ينتمي الى مدينة أخرى والذي كان يشتمل على حانات خربة ومصانع مغبّرة وشاحنات حمل ضخمة ، كانت تزيد من رعب دويّ العاصفة . وبينما كانت «ماريّا دوس براليرس» تحاول تدفئة الكلب المبلول بجسدها ، كانت تشاهد مرور الحافلات المليئة بالركاب وسيارات الأجرة وقد أطفأت الضوء المميّز الذي يدلّ على كونها فارغة ، ولم ينتبه أحد الإشارات الاستغاثة التي كانت تقوم بها . وفجأة ، وعندما بدا لها مستحيلاً حصول أيّة معجزة ، مرّت سيارة فخمة بلون الفولاذ المشرق دون أن تحدث أيّ صوت تقريباً في الشارع المغمور بالماء وتوقّفت دون أن تتوقّع ورجعت الى الخلف حتى المكان الذي كانت تقف فيه . نزل زجاج

النافذة بفعل نفخة ساحر وعرض عليها السائق أن يأخذها الى المكان الذي تبغيه .

– اذهب الى مكان بعيد جداً ، قالت له « ماريّا دوس براليرس » بصراحة . – غير أنّي سأكون شاكرة فضلك لو أنّك قرّبتني قليلاً .

– قولي لي الى أين تذهبين ؟ ألحّ هو .

– الى « جراثيا » أجابته .

فتح الباب دون أن تمسّه .

– انّه في طريقي ، قال لها . – اصعدي .

كانت تنبعث في الداخل رائحة أدوية مبرّدة ، وتحوّل المطر الى حدث غير حقيقي ، وتغيّر لون المدينة وشعرت هي بوجودها في عالم غريب وسعيد ، حيث كان كلّ شيء ميسّراً منذ البداية . كان السائق يفتح طريقه وسط فوضى المرور بمهارة فيها شيء من السّحر . كانت « ماريّا دوس براليرس » مرتعبة ليس لفقرها المؤسي فحسب ، بل أيضاً لحالة الكلب التي يرثى لها والذي كان ينام في حضنها .

– هذه عابرة محيطات . قالت له لشعورها بأنّ عليها أن تقول شيئاً ذا بال . لم أشاهد مثلها من قبل ولا حتى في الأحلام .

– في الواقع ، إنّ الشيء السيء الوحيد هو أنّها ليست لي . قال

ذلك بلغة قطلونية ضعيفة ، وبعد برهة أضاف باللغة الاسبانية : - ان رواتبي التي استلمها طيلة حياتي لا تكفي لشراء هذه السيارة .

- أتصوّر ذلك . قالت بتحسّر .

نظرت اليه شزراً وكانت أضواء لوحة القيادة تنيره قليلاً ، ورأت بأنّه شاب في عمر المراهقة ، ذو شعر مجعّد وقصير ومنظر جانبي شبيه بتمثال برونزي روماني ظنّت بأنّه ليس جميلاً ولكن فيه سحراً مختلفاً ، بحيث انّ سترته الجلدية الرخيصة والمستهلكة ، كانت لائقة به ، وانّ أمّه لابدّ أن تكون سعيدة عندما تشعر بعودته الى البيت والمظهر بذيه فقط ، واللتين تشبهان يدي فلاح ، كان بالامكان تصديق انّ السيارة لم تكن له.

لم يعودا بعد ذلك الى التحدّث فيما تبقّى من الطريق ، غير أنّ «ماريّا دوس برازيرس » ، هي الأخرى شعرت بأنّه كان ينظر اليها شزراً عدة مرّات ، وشعرت من جديد بالمرارة لكونها مازالت حيّة بهذا العمر . ظنّت نفسها قبيحة وتبعث على الشفقة ، وهي تغطي رأسها بمنديل المطبخ الذي وضعته على شعرها كيفما اتّفق عندما بدأ المطر يتساقط ، وكذا معطف الخريف الذي يرثى له والذي لم ترغب في تغييره لأنّها كانت تفكّر بالموت . وعندما وصلا الى حيّ « جراثيا » بدأ المطر يتوقّف عن النزول ، وكان الوقت ليلاً وكانت أنوار الشارع مضاءة . أشارت « ماريا دوس برازيرس » على السائق بأن يتركها عند منعطف قريب ، ولكنّه أصرّ على ايصالها حتى باب بيتها ، ولم يفعل ذلك فحسب ، وانّما توقّف على الرصيف حتى تتمكّن من النزول دون أن تبتلّ . أطلقت الكلب وحاولت

الخروج من السيّارة بعزّة نفس في حدود ما يسمح لها به جسدها ، وعندما عادت لتشكره ، اصطدمت بنظرة الرجل التي جعلتها تحصر أنفاسها ، وأمسك بها لحظة دون أن تفهم من منهما كان ينتظر شيئاً من الآخر ، وبعد ذلك سألها بصوت ثابت وجريء :

- هل أصعد ؟

شعرت « ماريّا دوس برازيرس » بالذلّ .

- إنّني أشكر لك حسن صنيعك بجلبي الى هنا . قالت له . - ولكن لن أسمح لك بالسخرية منّي .

- ليس هناك أي سبب لكي أسخر من الآخرين . قال هذا بلغة اسبانية وبجديّة واضحة . - وبشكل خاص من امرأة مثل حضرتك .

كانت « ماريا دوس برازيرس » قد تعرّفت على الكثير من الرجال مثل هذا ، وأنقذت آخرين كثيرين من الانتحار كانوا اكثر جرأة من هذا ، ولكنها لم تشعر في حياتها الطويلة كلّها بمثل هذا الخوف لاتخاذ القرار . سمعته من جديد يلحّ ، دون أن تبدو على صوته أية علامة للتغيير :

- هل أصعد ؟

ابتعدت هي عن السيارة من غير أن تغلق الباب وأجابته باللغة الاسبانية لكي تتأكد من أنّه سوف يفهمها :

- افعل ما يحلو لك .

اندفعت الى مدخل العمارة الذي لم تكن أنوار الشارع الخرفة تصله الاّ بالكاد ، وشرعت بصعود الجزء الأول من السلّم وركبتاها ترتجفان ، وتمكن منها رعب ظنّت أنّ الانسان يمكن أن يشعر بمثله عند الموت فقط . وعندما توقّفت أمام باب بيتها تبحث عن المفاتيح في جيبها وهي ترتجف جزعاً ، سمعت صوت اغلاق بابي السيّارة على التوالي في الشارع ، وحاول « توي » الذي كان قد سبقها أن ينبح . « اسكت » ! قالت له بهمس محتضر . وبعدها بلحظات شعرت بالخطوات الاولى على درجات السلّم وخافت على قلبها من الانفجار . وخلال جزء من الثانية عادت الى التفكير بالحلم التحذيري الذي غيّر حياتها خلال ثلاث سنوات وفهمت بأنّه لم يكن سوى خطأ في التفسير .

– يالهي ! قالت بدهشة . – اذن ، لم يكن الموت !

عثرت أخيراً على ثقب القفل ، بينما كانت تسمع الخطوات المدوية في الظلام وصوت التنفّس لأحد ما ، والذي كان يتصاعد وكان يقترب وهو خائف مثلها ، وعندما أدركت بأنّ انتظارها خلال سنوات طويلة قد آتى أكله ، وكذا معاناتها الطويلة في الظلمات ، حتى ولو كان في سبيل أن تعيش تلك اللحظات فقط .

مايو (أيار) ١٩٧٩

١ – ملاحظات المترجم : « ماريا دوس برازيرس » اسم علم لأنثى ، ويعني باللغة البرتغالية : ماريا ، أمّ الملذّات أو صاحبة الملذّات .

٢ – التابير حيوان لبون يتواجد في آسيا وأمريكا الجنوبية ، وهو بحجم الخنزير البرّي وله مخطم طويل يشبه خرطوماً صغيراً . ولحمه يؤكل.

تسمّم سبعة عشر انجليزياً

إنّ الشيء الأول لاحظته السيّدة « برودنثيا لينيرو » عندما وصلت الى ميناء « نابولي » ، هو انّ هذا الميناء له نفس رائحة ميناء « ريوهاشا » في « كولومبيا » . لم تحك ذلك لأيّ أحد طبعاً ، لأنّها لو كانت قد فعلت ذلك لما كان قد فهمها أحد من مسافري تلك الرّحلة وجلّهم من المسنّين ، وكانت الباخرة مكتظّة بالايطاليين المقيمين في « بوينس آيرس » ، والذين يعودون الى وطنهم لأول مرّة بعد الحرب ، ولكنّها شعرت مع ذلك بأنّها أقلّ وحدة وأقلّ خوفاً وبعاداً بسنواتها الاثنين والسبعين وبعد رحلة بحرية شاقّة استغرقت ثمانية عشر يوماً ، وهي بعيدة عن أهلها وبيتها .

منذ ساعات الفجر الاولى ، كانت قد شاهدت بعض أنوار الأرض، استيقظ المسافرون مبكراً اكثر من أيّ يوم آخر ، لا بسين ثياباً جديدة وقلوبهم منقبضة بلقّهم القلق على ظروف الوصول ، مما جعل ذلك اليوم يبدو وهو آخر يوم أحد خلال الرحلة ، وكأنّه اليوم الحقيقي الوحيد في الرحلة كلّها . كانت السيّدة « برودنثيا لينيرو » من بين الاشخاص القلائل الذين حضروا الى القدّاس .وخلافاً للأيام السابقة حيث كانت ترتدي ملابس تصف حداد للتحرك داخل الباخرة ، فانّها لبست في ذلك

اليوم للنزول رداء داكناً من الكتان الخشن وتحزّمت بنطاق بنّي شبيه بما يستعمله الآباء الفرانشسكونيون من رهبانية « سان فرانتشسكودي أسيس ». ولبست في قدميها نعلاً مصنوعاً من جلد غير مدبوغ ، لم يبد لجدّته نعل شخص ذاهب لزيارة الأماكن المقدّسة . كان دفعاً مقدّماً : كانت قد نذرت للّه أن تلبس ثوب الرهبانية الطويل ذاك حتى موتها إذا استجاب لها واستطاعت أن تسافر الى « روما » لرؤية « الحبر الأعظم » ، ولهذا فانها اعتبرت طلبها قد استجيب . وبعد انتهاء القدّاس أشعلت شمعة لـ «روح القدس» للشجاعة التي ألهمها إياها في تحمّل عواصف « الكاريبي»، وصلّت صلاة واحدة لكل واحد من أجل أولادها التسعة وأحفادها الأربعة عشر ، والذين كانوا في تلك اللحظات يحلمون بها في ليل « ريوهاتشا » العاصف .

وعندما ارتقت الى سطح الباخرة بعد الفطور ، كانت الحياة في الباخرة قد تغيّرت . كان متاع السّفر قد تراكم في صالة الرّقص ، وكانت ضمن تلك الأمتعة كل انواع الحاجات السياحية التي اشتراها الايطاليون في الأسواق الساحرة في « لاس أنتياس » ،وكان فوق خزانة معرض الحانة قرد مكاك من « برنبوتو » موضوع في قفص حديدي مرصّع . كان صباحاً مشرقاً لأحد أوائل أيام شهر أغسطس (آب) . يوم أحد نموذجي لتلك الأصياف لما بعد الحرب ، حيث الضوء يبدو وكأنّه وحي يومي ، وكانت الباخرة الضخمة تتحرّك ببطء شديد، تلهث لهاث المريض في بحيرة شفافة . وأخذ الحصن المعتم لدوق « أنخوو » يظهر في الأفق بالكاد، غير أنّ المسافرين الذين كانوا يطلّون من جوانب السفينة ظنّوا

بأنّهم بدأوا يتعرّفون على الأماكن المعروفة لديهم ، وكانوا يشيرون اليها بدون تأكّد من حقيقة ذلك ، صارخين من الفرح بلهجة جنوبيّة . وعلى الرّغم من أنّ السّيدة « بروذنثيا لينيرو » كانت قد أقامت الكثير من علاقات الصداقة مع المسنّين على ظهر الباخرة ، ورعت الأطفال بينما كان آباؤهم يرقصون ، وحتى أنّها ثبّتت زراً في السترة العسكرية لكبير الضبّاط ، رغم ذلك كلّه وجدتهم فجأة غرباء ومختلفين ، فالروح الاجتماعية والحرارة الانسانية التي ساعدتها على تحمّل مشاعر الشوق الاولى في خمول المنطقة الاستوائية كانت قد اختفت ، وكان الحبّ الأزلي لأعالي البحار قد انتهى بمجرد رؤيتهم المياه . وظنّت السّيدة « بروذنثيا لينيرو » التي كانت تجهل المزاج المتقلّب للايطاليين ، بأنّ السوء لم يكن في قلوب الايطاليين ، بل في قلبها هي ، لكونها الوحيدة بين جموع المسافرين في رحلة ذهاب ، لأنّ الآخرين جميعا كانوا في رحلة عودة . هكذا ينبغي أن تكون جميع السّفرات ، فكّرت وهي تعاني لأول مرّة في حياتها من ألم الغربة ، بينما كانت تتأمّل من طرف الباخرة آثار العديد من العوالم الفانية في قعر المياه . وفجأة ذُعرت بسبب صرخة رعب صدرت عن فتاة في غاية الجمال كانت الى جانبها .

- يا ويلتي ! قالت مشيرة الى الماء . - انظروا هناك .

كان هناك غريق . رأته السيدة « بروذنثيا لينيرو » يطوف ووجهه نحو الأعلى بين موجتين ، وكان رجلاً ناضجاً وأصلع وعلى محيّاه علائم وجاهة طبيعية ونادرة ، وكانت عيناه مفتوحتين وفرحتين ولهما نفس لون السماء ساعة الشّروق . كان يرتدي بدلة فاخرة وصداراً من الديباج

وحزمة من الجلد اللمّاع ، ويحمل زهرة غردينيا حقيقية في طيّة صدر سترته ، وفي يده اليمنى علبة مربّعة ملفوفة بورق الهدايا ، وأصابعه الحديدية الضاربة الى السّواد ، كانت ممسكة بشريط العلبة ، وهو الشيء الوحيد الذي وجده للامساك به في لحظة الموت .

– لابدّ أنّه قد سقط من حفلة عرس ، قال أحد ضباط الباخرة . – انّ مثل هذا يحصل في الصيف بكثرة في هذه المياه .

لم تدم رؤية ذلك المشهد سوى لحظات ، لأنّهم كانوا في ذلك الوقت يدخلون الى الخليج ، كما أن أسباباً أخرى أقلّ حزناً جلبت انتباه المسافرين ، غير أنّ السيّدة « برودنثيا لينيرو » استمرّت مفكرة بالغريق ، الغريق المسكين الذي كانت سترته الطويلة تتموّج اثر الباخرة ، ولم تكد هذه تدخل الى الخليج ، حتى خرج زورق قطر هرم لاستقبالها ، وسحبها ليرسو ما بين حطام العديد من البواخر العسكرية المحطّمة خلال الحرب . وكلّما تقدّمت الباخرة ، فانّ الماء كان يتحول الى زيت ، وكانت تفتح طريقها بين الحطام الصّدئ ، وارتفعت الحرارة فتجاوزت حرارة «ريوهاتشا» في الساعة الثانية مساء . وعلى الجانب الآخر من المضيق المشرق بشمس الحادية عشرة ، بدت فجأة ، المدينة بكاملها ، بقصورها الخيالية وأكواخها القديمة ذات الألوان المتلبّدة على التلال . وانبعث من العمق الهائج رائحة شديدة لاتطاق ، ولم تكن غريبة على السيدة «برودنثيا لينيرو» ، لأنها كانت تسمّيها تنفّس السّرطان المتعفّن لفناء دارها.

وأثناء مناورة الاقتراب من الرصيف والتوقّف ، كان المسافرون يتعرّفون على أقربائهم ويعبّرون عن ذلك بانفعالات مثيرة ، وكانت الجموع مكتظّة على الرصيف وغالبيتها من السّيدات في خريف العمر ، ذوات صدور ملتهبة ومحصورات داخل بدلات الحداد ، مصحوبات بأطفال أشدّ جمالاً واكثر عدداً مما يوجد على الأرض ، وأزواج صغار ونشيطون من الصّنف الخالد الذين يقرؤون الصحف بعد زوجاتهم ، والذين يلبسون لباس كاتبي العرائض الصارمين على الرغم من الحرارة .

وفي وسط تلك الضجّة الاحتفالية ، كان هناك رجل عجوز جداً ذو مظهر حادّ يرتدي معطفاً خفيفاً ، وكأنّه الشحّاذ ، وكان يسحب بيديه من جيوبه بحفنات وحفنات من الكتاكيت الصغيرة ، ملأت الرّصيف في لحظات وهي توصوص بجنون في جميع الأرجاء ، ولأنّها كانت حيوانات سحريّة ، فانّ الكثير منها كان يستمرّ في الجري على الرغم من دوسات الجمهور اللامبالي بالمعجزة . وكان السّاحر قد وضع قبّعة على الأرض نحو الأعلى ، ولكن لم يرم له أحد من جانب الباخرة أيّة عملة لمساعدته .

وكانت السّيدة « برودنثيا لينيرو » التي أدهشتها تلك العجائب ، والتي بدت وكأنّها أقيمت على شرفها ، هي الوحيدة التي شكرت الساحر ، ولم تنتبه في أيّة لحظة مدّوا سقّالة السفينة ، فغزت موجة بشرية الباخرة بعوتها وهجومها المندفع وكأنّه هجوم القراصنة . وقد دهشت السّيدة لتلك السعادة ولرائحة البصل الكريهة والزنخة لهذا العدد من العوائل في الصيف ، ودُفعت من قبل عصابات الحمّالين الذين كانوا

يتنافسون على الأمتعة بالضرب ، فشعرت بأنّها مهددة بالموت ، نفس موت الكتاكيت على الرصيف والذي ليس فيه أيّة رائحة للمجد . آنذاك جلست فوق صندوقها الخشبي ذي الزوايا المعدنية المطليّة ، وبقيت في مكانها رابطة الجأش تصلّي حلقة مُفرغة من الصلوات ، دفعاً للوساوس والمخاطر في أرض الكفّار . وهناك وجدها كبير الضبّاط بعد انتهاء زلزال الاستقبال ، ولم يكن هناك أحد غيرها في الصالة المهجورة .

– لا ينبغي أن يكون هنا أيّ أحد في هذه السّاعة . قال لها الضابط ذلك بلهجة لا تخلو من الطيبة . – هل أستطيع مساعدة حضرتك ؟

– عليّ أن أنتظر القنصل . قالت له .

وهكذا كان ، فقبل يومين من مغادرة الباخرة ، أرسل ابنها الكبير برقية الى القُنصل في « نابولي » والذي كان صديقاً له ، يرجوه فيها أن يقوم بانتظار أمّه ومساعدتها في اجراءات السّفر الى « روما » . وكان قد بعث له اسم الباخرة وساعة الوصول ، وأضاف له أيضاً بأنّ بامكانه التعرّف عليها من ردائها المطابق لأردية رهبانية « سان فرانتيسكو » والذي سَتلبسه عند النّزول ، وأبدت هي حزماً شديداً في قوانينها ، بحيث أنّ كبير الضبّاط سمح لها بالانتظار هناك وقتاً آخر ، على الرغم من قرب ساعة الغداء بالنسبة للملاحين ، وكانوا قد وضعوا الكراسي فوق الموائد وبدؤوا يغسلون ظهر الباخرة بماء شديدة . واضطروا الى تحريك الصندوق مرات عديدة لكي لا يبتلّ ، وكانت هي تغيّر مكانها دون تأثّر ومن غير أن تقطع صلواتها ، حتى أخرجوها من صالات التنزّه ، وانتهت الى

الجلوس في حرّ الشمس بين قوارب الانقاذ ، وعاد كبير الضباط الى رؤيتها هناك قبل الثانية مساء بقليل ، تكاد تختنق بالعرق داخل رداء التّوبة ، وهي تصلّي سلسلة صلوات وفي غاية اليأس ، لفزعها وحزنها وصبرها القاسي على البكاء .

– انّ ادامة الصلوات لا تنفع ، قال لها الضابط بلهجة تخلو من الطيبة الأولى حتى الرّب يذهب في اجازة في شهر أغسطس (آب) .

شرح لها بأنّ نصف ايطاليا تكون على الشواطئ في ذلك الوقت ، وخاصة في أيام الأحد . ومن الممكن ألاّ يكون القنصل في اجازة لظروف عمله ، غير أنّ الشيء الأكيد هو أنّه لن يفتح مكتبه قبل يوم الاثنين . والشيء المعقول الوحيد هو أن تذهب الى فندق للارتياح بهدوء ، والاتصال في اليوم التالي بالقنصلية التي يمكن العثور على تلفونها في دليل الهاتف . وهكذا فقد وجدت السّيدة « بروديتيا ليتيرو » نفسها مضطرّة الى القبول بهذا الرأي ، وساعدها الضابط في اجراءات الدخول والجمارك وتصريف العملة ، ووضعها داخل سيارة أجرة مرفوقة بتوصية مشؤومة بأن يحملها الى فندق مناسب .

كانت سيارة الأجرة العجوز الشبيهة بعربة جنائزية ، تسير متعثّرة في الشوارع الخالية ، وفي احدى اللحظات خطرت ببال السّيدة «بروديتيا ليتيرو» فكرة أنّها هي والسائق هما الكائنان الحيّان الوحيدان في مدينة أشباح معلّقة في أسلاك وسط الشوارع ، ولكنّها فكّرت أيضاً بأنّ انساناً يتحدّث بتلك الكثرة وباندفاع كبير ، ليس لديه وقت لالحاق الضّرر بامرأة مسكينة وحيدة ، تحدّت مخاطر المحيط لرؤية « البابا » .

وفي نهاية متاهة الشوارع لاح البحر من جديد ، واستمرّت سيارة الأجرة تعثّر على طول شاطىء متوهج بالحرارة ووحيد ، حيث كان يوجد العديد من الفنادق الصغيرة ذات الألوان الصّارخة ، ولكنّه لم يتوقّف عند أيٍّ منها ، بل ذهب مباشرة الى أقلّها بهاء ، وكان قريباً من إحدى الحدائق العامّة التي تشتمل على أشجار نخيل كبيرة ومقاعد خضراء . وضع السائق الصندوق على الرّصيف المظلّل ، وأكدّ للسيدة « برودنثيا لينيرو » التي بدت عليها علامات الرّيبة ، بأنّ ذلك الفندق هو من اكثر فنادق « نابولي » ملاءمة .

تقدّم حمال وسيم ولطيف ووضع الصندوق على ظهره وأخذ زمام المبادرة فقادها حتى مصعد مؤقت ومصنوع من شبكات معدنيّة وموضوع في فتحة السّلم ، وشرع بغناء مقطع من أوبروا « بوجيني » بأعلى صوته وبتصميم يبعث على القلق . كان بناء عريقاً يتكوّن من تسعة طوابق مجدّدة ، وكان يوجد في كلّ طابق فندق مختلف . وفي لحظة معينة شعرت السّيدة « برودنثيا لينيرو » فجأة بالانبهار ، إذ وجدت نفسها داخل قفص وكأنّه خاص بالدّجاج ، وكان يرتفع ببطء خلال مركز السّلم المغطّى بمرمر متألق ، ويفاجىء النّاس داخل البيوت بشكوكهم الحميمية وملابسهم الداخلية الممزّقة وجشائهم الحامضي . توقّف المصعد في الطابق الثالث بغتة وسكت الحمال عندها عن الغناء ثم فتح الباب ذا الطيّات وبيّن للسيّدة « برودنثيا لينيرو » باشارة احترام بأنها كانت في دارها .

شاهدت هي مراهقاً ضعيفاً وراء الطاولة الخشبيّة المرصّعة بالزجاج الملّون الموضوعة عند المدخل ، وكذا نباتات الظلّ الموضوعة في أصص

نحاسيّة . أعجبها في الحال لأنّه كان له نفس الخصلات الجميلة لحفيدها الصغير . وأعجبها أيضاً اسم الفندق بحروفه المحفورة على لوحة برونزيّة ، وأعجبتها رائحة الحامض الفنيك والنباتات العالقة والصّمت وزهور الزّنبق الذهبية المرسومة على ورق الجدران . وبعدها تقدمت خطوات خارج المصعد وشعرت بانقباض في قلبها . وكانت هناك مجموعة من السّياح الانجليز من لابسي السراويل القصيرة وأحذية الشاطىء الخفيفة ، غافين على كراس منخفضة تستعمل في قاعات الانتظار وموضوعة في طابور طويل . كانوا سبعة عشر ، وكانوا يجلسون في نظام هندسي ، كما لو كانوا شخصاً واحداً ، تمّ تكراره مرّات كثيرة في رواق مليء بالمرايا . رأتهم السّيدة « برودنثيا لينيرو » دون أن تميّزهم بنظرة خاطفة ، وانّ الشيء الوحيد الذي أثار انتباهها هو الصفّ الطويل من الرّكب الموردة التي بدت وكأنّها أجزاء من لحم الخنزير المعلّق في كلا ليب مجزرة . لم تجرؤ على التقدم خطوة أخرى من الطاولة بل تراجعت فزعة ودخلت الى المصعد من جديد .

– لنذهب الى طابق آخر ، قالت .

– إنّه الفندق الوحيد الذي به مطعم ، أيتها السّيدة . قال الحمّال .

– لا يهمّ أضافت هي .

لم يعترض الحمّال فسدّ باب المصعد وغنّى الجزء المتبقي من الأغنية حتى الفندق الموجود بالطابق الخامس . وكان كل شيء هناك يبدو أقلّ صرامة ودقّة ، وكانت صاحبة الفندق سيّدة ربيعية تتحدّث اللغة الاسبانية

بشكل جيّد ، ولم يكن هناك من ينام القيلولة على كراسي الانتظار بمدخل الفندق . لم يكن هناك مطعم ، فعلاً ، غير أنّ الفندق كان قد اتّفق مع أحد المطاعم القريبة لتقديم الطعام لزبائنه بأسعار خاصّة . وهكذا فقد قرّرت السّيدة « بروديثيا لينيرو » البقاء لليلة واحدة ، مقتنعة بفصاحة ولطف صاحبة الفندق ، وكذا لارتياحها لعدم وجود أي انجليزي ذي ركبتين موردّتين ينام في المدخل .

كانت شمسيات نوافذ غرفة النوم مغلقة على الساعة الثانية بعد الظّهر ، وكان الظلّ يحافظ على البرودة المنعشة للمكان ، أمّا الصّمت المخيّم فكأنّه صمت غابة منعزلة ، مما يجعلها ملائمة للبكاء . وما أن بقيت السّيدة « بروديثيا لينيرو » وحيدة ، حتى أغلقت قفلي الباب ، وتبوّلت للمرة الاولى منذ الصباح بشكل متقطّع وصعب ، ممّا سمح لها باستعادة هويتها المفقودة خلال الرّحلة . وبعدها خلعت خفّيها ونزعت حزام رداء الراهبة وتمدّدت على جانبها الأيسر فوق السّرير الواسع والوحيد لها وحدها ، وأراقت دموعها الباقية المتأخرة .

لم تكن المّرة الاولى التي تخرج فيها من « ريوهاشا » فحسب ، بل كانت من المّرات القليلة التي تخرج فيها من بيتها بعد زواج أبنائها ومغادرتهم المنزل وبقائها وحيدة مع إثنين من الهنديات الحافيات لرعاية جسد زوجها الخالي من الروح . لقد أحرقت نصف حياتها في غرفة النوم مقابل حُطام الرجل الوحيد الذي أحبّته ، والذي بقي في حالة سبات لما يقرب من ثلاثين عاماً متمدّداً على السّرير ، سرير حُبّ مرحلة الشباب ، فوق فرشة مصنوعة من جلد الجدي .

وفي شهر اكتوبر (تشرين الأول) الماضي ، فتح المريض عينيه في ومضة مفاجئة للصّحو وعرف أهله ثمّ طلب منهم أن يحضروا مصوّراً . أحضروا اليه مصوّر المتنزّه العجوز مع جهازه الضّخم بغطائه وكُمّه الأسود ووعاء المغنيسيوم الكبير للصور المنزلية . نظّم المريض نفسه الصور ، واحدة لـ « بروديثيا » للحبّ والسعادة التي منحتها لي في الحياة » ، قال ذلك فعملوها مع الوهج الأول للمغنيسيوم . « والآن ، صورتين لابنتيّ العزيزتين ، « بروديثيتا » و « ناتاليا » » ، أضاف ذلك فعملوها أيضاً . « واثنين لولديّ اللّذين هما مثال للعائلة لودّهما وتعقّلهما » . وهكذا حتى انتهاء الورق ، حيث اضطرّ المصوّر بعدها الى الذهاب الى بيته لجلب ورق أكثر . وفي الساعة الرابعة مساء ، حيث لم يعد بالامكان التنفسّ في غرفة النوم بسبب دخان المغنيسيوم وجلبة الأقرباء والأصدقاء والمعارف الذين حضروا لاستلام نسخهم من الصّور ، أخذ المريض يضمحلّ في فراشه ، وبدأ بتوديع الجميع بحركة من يده وكأنّه سيزول من العالم من على حافّة باخرة .

لم يكن موته بالنسبة لأرملته مبعث ارتياح كما كان يتوقع الجميع، بل على العكس فقد ألمّ بها الحزن الى حدّ كبير مما دفع أبناءها الى الاجتماع والاستفسار عن الطريقة التي يمكنهم بها ادخال السّرور الى قلبها ، فردّت هي عليهم بقولها إنّها لم تكن ترغب في شيء آخر سوى الذهاب الى روما للتعرّف على « البابا » .

– سأذهب وحيدة ، لابسة رداء رهبانية « سان فرانثيسكو » ، قالت لهم . – انّ ذلك نذر في عنقي .

انّ الشيء الجميل الوحيد الذي بقي لها من أعوام السّهر تلك ، هو متعة البكاء ، ففي الباخرة ، حيث كانت تتقاسم غرفة النوم مع اثنتين من الراهبات ، اللتين نزلتا في « مرسيليا » ، فانّها كانت تتأخر في الخروج من الحمام للبكاء دون أن يراها أحد ولهذا فانّ غرفة الفندق كانت المكان الوحيد المناسب للبكاء على راحتها منذ أن خرجت من « ريوهاشا » . وكانت على استعداد للبكاء حتى اليوم التالي ، عندما سيغادر قطار «روما» ، لولا أنّ صاحبة الفندق دقّت عليها الباب في السابعة مساء لتبلغها بأنّ عليها الذهاب الى المطعم في الوقت المحدّد وإلاّ ستبقى بدون طعام . صاحبها عامل الفندق ، وأخذت تهبّ نسمة هواء باردة قادمة من البحر ، وكان قد بقي على الشاطئ بعض محبّي السباحة ، تحت شمس السابعة الشّاحبة . تبعت السّيدة « بروديثيا ليبرو » عامل الفندق خلال منحنيات الشوارع المرتفعة والضيّقة التي استفاقت لتوّها من قيلولة الأحد، ووجدت نفسها فجأة تحت تعريشة ظليلة حيث كانت بعض موائد الطعام المغطاة بشراشف بها رسومات مربّعة وحمراء وعليها علب مخلّل تمّ استعمالها كمزهريات وبها زهور ورقيّة ، والمواكلون الوحيدون في هذه السّاعة المبكرة كانوا عمّال المطعم أنفسهم ، بالاضافة الى راهب شديد الفقر كان يأكل الخبز والبصل في ركن منزو . وعند دخولها ، شعرت بأنّ الجميع ينظرون اليها بسبب ردائها البنّي ، ولكنّها لم تقلق لأنّها كانت تعي أن السّخرية تشكل جزءاً من التوبة أو الكفّارة . في حين أنّ عاملة المطعم أثارت شفقتها قليلاً ، لأنها كانت شقراء وجميلة ، وكانت تتحدّث كما لو أنّها تغنّي ، فظنّت هي بأنّه لابدّ أن تكون الامور في ايطاليا سيئة للغاية بعد فترة الحرب ، لتجد هذه الصبية نفسها مضطرة الى

الخدمة في مطعم ، ولكنّها شعرت بارتياح في ذلك الجوّ الزّهري المعرّش المفعم برائحة أوراق الغار المستخدمة في الطعام ، وتفتّحت شهيتها المرجأة بسبب قلق النّهار ، ولأول مرة ومنذ زمن طويل ، لم تشعر برغبة في البكاء .

ومع ذلك فانّها لم تستطع تناول طعامها براحة ، لأنها من ناحية وجدت صعوبة في التفاهم مع عاملة المطعم الشقراء ، على الرغم من كونها لطيفة وصبورة ، ومن ناحية ثانية لأنّ اللّحم الوحيد الذي كان عندهم كان لحم طائر مغرّد اعتادوا على تربيته في أقفاص في « ريوهاشا » . حاول الراهب الذي كان يأكل في أحدى الزوايا والذي تحوّل الى مترجم بين الاثنين ، أن يفهمهابأنّ ظروف العوز والحاجة بسبب الحرب لم تنته في اوروبا بعد ، وان عليها أن تعتبر توفّر عصافير جبلية للأكل بمثابة معجزة ، ولكنّها مع ذلك رفضت أكلها ، وقالت :

– أن آكل هذه العصافير ، كأنني آكل ابناً لي .

وهكذا فقد اكتفت بتناول شوربة شعريّة وصحناً من القرع المقليّ وقطعاً مستطيلة من شحم الخنزير القديم ، وقطعة من الخبز التي بدت وكأنّها من مرمر . وبينما كانت تأكل ، اقترب منها الراهب ليطلب منها صدقة بأن تدفع عنه فنجان قهوة ، ثم جلس معها . كان يوغسلافياً ، الاّ انّه كان ضمن حملات التبشير في « بوليفيا » ، وكان يتحدث لغة اسبانية ضعيفة ولكن معبّرة . بدا للسيّدة « بروديثيا ليبرو » كرجل مبتذل ليس به أيّ أثر للحلم ، ولا حظت أيضاً بأنّ لديه يدين قذرتين بأظفار محطّمة

ووسخة ، وكانت تنبعث من تنفسه رائحة البصل القويّة والحادّة التي بدت وكأنّها صفة ملازمة له . ولكن رغم هذا كلّه ، فانّه كان في خدمة الخالق ، وكانت متعة جديدة بالنسبة لها أن عثرت على من يمكن التفاهم معه بعيداً جداً عن بيتها ، تحادثا على مهلهما ، غريبين عن الضجّة الكثيفة التي هي أشبه بصخب الزرائب والتي أخذت تحاصر المكان بصورة متزايدة حسب ازدياد الآكلين الذين أخذوا يشغلون بقية الموائد. كانت قد تكونت عند السيّدة « برودنثيا لينيرو » فكرة حاسمة عن ايطاليا : انّها لا تُعجبها . ولم يكن ذلك بسبب تحسّف الرجال نوعّما ، وإن كان هذا ليس بالقليل ، ولا لأنّهم كانوا يأكلون العصافير ، وهو أمر فائق ويتجاوز الحدود ، بل لسوء طبعهم لترك الغرقى يعومون مع التيّار .

حاول الراهب الذي تناول على حسابها بالاضافة الى القهوة كأساً من العرق أن يجعلها تتبيّن عقّة عقله . ففي خلال الحرب كان قد أسس خدمة في غاية الفعاليّة تقوم باخراج جثث الغرقى والكشف عن هويّتها ودفنها في أرض مقدّسة ، وكان الكثير منهم يصبحون عائمين في خليج « نابولي » .

– منذ قرون ، أضاف الراهب ، والايطاليون قد أدركوا بأنه ليست هناك سوى حياة واحدة ، وهم يحاولون التمتّع بها على أفضل وجه ممكن . وجعلهم هذا نفعيّين متقلبين ، ولكنّه شفاهم أيضاً من القسوة .

– حتى الباخرة لم يوقفوها ، قالت هي .

– انّ الذي يغطونه هو اعلام مسؤولي الميناء بالراديو ، قال الراهب، والآن لابدّ أنّهم قد أخرجوه ودفنوه باسم الخالق .

غيّرت المحادثة مزاج الاثنين ، وكانت قد انتهت من الطعام لتوّها ، ولم تنتبه إلّا حينذاك بأنّ جميع الموائد كانت مشغولة . وكان شاغلو الموائد القريبة يأكلون بصمت ، وكان عليها سيّاح شبه عارين . بينهم أزواج من العاشقين الذين كانوا يتبادلون القبلات بدلاً من تناول الطعام . وعلى الموائد الموجودة في عمق المطعم تحلّق سكان الحيّ الذين كانوا يلعبون النّرد ويشربون نبيذاً بلا لون . فكّرت السيّدة « برودنثيا لينيرو » بأنّه ليس هناك سوى سبب واحد لوجودها في ذلك البلد التّعيس .

– هل تظنّ حضرتك بأنّ من الصعب الالتقاء بـ « البابا » ؟ سألت الرّاهب فأجابها الراهب بأنّه ليس هناك أسهل من هذا في فصل الصيف . كان « البابا » يقضي اجازته في « كاستيلغاندولفو » ، وفي أماسي الأربعاء كان يلتقي في مقابلة عامة مع الزوّار القادمين من جميع أرجاء العالم . وكانت بطاقة الدخول رخيصة جداً : عشرون ليرة . فسألته هي :

– وكم ليرة يتقاضى عندما يعترف أحد أمامه .

– لا يعترف أمام « الأب المقدّس » أيّ أحد ، قال الراهب بشيء من الاستنكار ، عدا الملوك طبعاً . ردّت عليه قائلة :

– لا أرى سبباً في أن يرفض خدمة كهذه لامرأة مسكينة جاءت من مكان بعيد جداً .

– حتى بعض الملوك ، مع كونهم ملوكاً ، ماتوا ينتظرون ، قال لها الراهب . ولكن ، قولي لي : لابدّ أن يكون ذنب حضرتك هائلاً ، بحيث عملت هذه السفرة الشاقة لمجرّد الاعتراف أمام « الأب المقدّس » .

فكّرت السيّدة « برودنثيا لينيرو » في قلقك لوهلة ، وشاهدها الراهب تبتسم لأول مرّة وتقول :

– سلام على السيّدة مريم الطاهرة . تكفيني رؤيته . ثمّ أضافت متحسّرة وكأنّ حسرتها قد خرجت من عمق روحها : إنّه حلم حياتي .

والواقع أنّها كانت ماتزال خائفة وحزينة ، وانّ الشيء الوحيد الذي كانت تريده هو الذّهاب في الحال ، ليس من هذا المكان فحسب ، بل من ايطاليا . فكّر الراهب بأنّ تلك المخدوعة لم يكن عندها بعد ما تمنحه ، وهكذا فقد تمنّى لها حظاً سعيداً وذهب الى مائدة أخرى يرجو الصدّقة بأن يدفعوا عنه فنجان قهوة .

وعندما خرجت السيّدة « برودنثيا لينيرو » من المطعم ، وجدت المدينة قد تغيّرت . دهشت لضوء الشمس في التاسعة ليلاً ، وأخافتها الجموع العاجّة التي غزت الشوارع لتنفّس النّسيم الجديد . ولم تكن الحياة ممكنة مع فرقعات هذا العدد الهائل من الدّراجات النارية المجنونة . التي يقودها رجال لا يلبسون القمصان ، وخلفهم نساء جميلات يمسكن بهم من خصورهم ، وكانوا يفتحون طرقهم قافزين كالافاعي المتعرّجة ، بين الخنازير المعلّقة وموائد البطّيخ .

كان الجوّ المهيّم جوّاً احتفالياً ، ولكنّه بدا للسيّدة « برودنثيا لينيرو » مأساوياً . لقد أضاعت طريقها فوجدت نفسها فجأة في شارع غير لائق ، به نساء مكفهرّات جالسات على أبواب دورهنّ المتشابهة ، وقد سبّبت لها أنوار تلك الدور الحمراء والتي تشتعل بشكل متقطّع فزعاً هائلاً . تبعها رجل حسن الهندام وفي اصبعه خاتم ذهبي كبير وفي ربطته ماسة ، على مرّ شوارع عديدة يقول لها بعض العبارات بالايطالية أولاً ثمّ بالانجليزية والفرنسيّة . وبما أنّه لم يتلق منها أيّ جواب ، أراها بطاقة بريدية كانت في علبة بجيبه ، ولم تحتج هي الا الى نظرة خاطفة لتدرك بأنّها كانت وكأنّها تعبر الجحيم .

فرّت فزعة ، وفي آخر الشارع عادت الى رؤية البحر الغسقي الذي له نفس الرائحة الكريهة للسّمك المتعفّن لميناء « ريوهاتشا » ، وعاد قلبها الى مكانه . تعرّفت على الفنادق ذات الألوان الصارخة المواجهة للشاطئ الخاوي ، وسيارات الأجرة الجنائزية وماسة النجمة الاولى في السّماء الفسيحة . وفي عمق الخليج ، كانت الباخرة التي جاءت بها وحيدة الى جانب الرّصيف . كانت ضخمة وكان سطحها مضاءاً وانتبهت الى انّها لم تعد لها أيّة صلة به . هناك دارت الى اليسار ولكنّها لم تستطع الاستمرار ، لأنّه كانت هناك مجموعة من الفضوليين الذين تقوم قوات الدّرك بمنعهم من التقدّم ، وصفّ من سيارات الاسعاف المفتوحة الأبواب أمام بناء فندقها .

مدّت عنقها فوق أكتاف الفضوليين فعادت السيدة «برودنثيا لينيرو» الى رؤية السيّاح الانجليز . كانوا يخرجونهم على الحمّالات واحداً

بعد الآخر ولم يكن أي منهم يتحرّك ، وكان يبدو عليهم الوقار ، ومازالوا يبدون وكأنّهم تكرار لنفس الشخص ، وهم يلبسون اللباس الموحد للعشاء : سروال قطني ورباط مخطّط بخطوط مائلة وسترة غامقة عليها شعار « ترينتي كوليج » ، مطرّزاً على جيب الصدر . كان الجيران يطلّون من شرفات دورهم والفضوليون يملؤون الشارع وكانوا يعدّون السيّاح بصوت مرتفع كورالي كما لو كانوا في ملعب رياضي ، كلّما أخرجوا واحداً جديداً كانوا سبعة عشر . أدخلوهم في سيارات الاسعاف اثنين اثنين وذهبوا بهم على دويّ منبّه سيارات الاسعاف الهائل .

صعدت السيدة « برودنثيا لينيرو » وهي في غاية الذهول المصعد المزدحم بالزبائن المقيمين في الفنادق الأخرى والذين كانوا يتحدّثون بلغات غامضة . أخذوا ينزلون في جميع الطوابق عدا الثالث الذي كان مفتوحاً ومناراً ، غير أنّه لم يكن هناك أحد عند المنضدة ولا على كراسي المدخل ، حيث تباعدت الرّكب المورّدة للانجليز السبعة عشر النائمين . كانت صاحبة الطابق الخامس تعلّق على الكارثة بانفعال يصعب التحكّم فيه .

– ماتوا جميعاً ، قالت للسيدّة « بروذنثيا لينيرو » باللغة الاسبانية .
– لقد تسمّموا بحساء المحار في العشاء . – محار في شهر أغسطس تصوّري ! سلّمتها مفتاح الغرفة دون أن تعيرها اهتماماً زائراً ، في حين أنّها كانت تقول بلهجتها للزبائن الآخرين : « لعدم وجود مطعم هنا ، فانّ كلّ من ينام فانّه سوف يستفيق حيّاً في الصباح التالي ! » . ومن جديد شعرت السيّدة « بروذنثيا لينيرو » وكأنّ الدموع على وشك أن تخنقها ،

فأغلقت الباب ، وبعدها دفعت منضدة الكتابة والكراسي ذا المسند وراء الباب ، ووضعت أخيراً الصّندوق وكأنّه متراس ليس من السهل تجاوزه ، لتحمي به من فظاعة هذا البلد الذي تحدث فيه كلّ تلك الأشياء في نفس الوقت ، وبعدها ارتدت ثوب الأرملة وتمدّدت على ظهرها في السّرير وصلّت سبع عشرة مرّة للاستقرار الأبدي لأرواح الانجليز السبعة عشر المسمّمين.

أبريل (نيسان) ١٩٨٠

ريح الشمال

رأيته مرّة واحدة فقط في « بوكّاسيو » ، الكاريّة الحديث في «برشلونة » قبل ساعات قليلة من موته المشؤوم . كان محاصراً من طرف زمرة من الشبّاب السّويديين الذين كانوا يحاولون الذهاب به في الثانية بعد منتصف الليل لانهاء الحفلة في « كاداكيس » . كانوا أحد عشر ، وكان من الصعب التمييز بينهم لأنّ ذكورهم وإناثهم كانوا يتشابهون : جميلون ، ذوو خصور نحيلة وشعر ذهبي طويل . أما هو فانّ عمره لم يكن على الأكثر يتجاوز العشرين عاماً ، وكان رأسه مغطى بشعر ذهبي مجعّد وبشرته معتمة وصقيلة لأهالي الكاريبي الذين عودتهم أمهاتهم على السّير في الظلّ ، ونظرته عربيّة كما لو كان يريد اثارة القلق في نفوس السويديّات وربّما في نفوس بعض السويديين . كانوا قد أجلسوه على الطاولة وكأنّه دمية تتحدّث من بطنها ، وكانوا يغنون له بعض الأغاني الحديثة المصحوبة بالضرب على الأكفّ لاقناعه بالذهاب معهم ، بينما كان هو يشرح لهم فزعاً أسباب رفضه ، تدخّل احد ما صارخاً يطلب منهم أن يتركوه بسلام ، غير أنّ أحد السويديين تعرّض له وهو يكاد يموت ضحكاً .

– انه لنا ، صرخ . لم نعثر عليه في صندوق القمامة .

كنت قد دخلت قبل ذلك بقليل مع مجموعة من الاصدقاء بعد الحفلة الموسيقية الأخيرة التي أقامها « دافيد أومستراك » في قصر الموسيقى ، والشعرُ يدني لقسوة وجحود السويديين ، إذ انّ أسباب الشاب كانت مقدّسة . كان يعيش في « كاداكيس » حتى الصيف الماضي ، حيث تعاقدوا معه لتقديم ألحان من جزر الأنتيل في حانة من آخر طراز ، حتّى هزمته ريح الشمال . استطاع الفرار في اليوم التالي وقرّر عدم العودة الى هناك بأيّ شكل كان سواء مع ريح الشمال أو بدونه ، متيقناً من أنّ الموت سيكون في انتظاره فيما لو عاد مرّة الى هناك . كانت تلك قناعة كاريبية لا يمكن زن تفهمها زمرة من الاسكندنافيين الذين لا يرضون بغير العقل حكماً ، المتهيّجين بفصل الصيف والنبيذ القطلوني القويّ لذلك الوقت ، من الذين كانوا يزرعون آراء مخالفة للأعراف في قلوب الآخرين.

لم يكن هناك من يفهم هذا الشاب مثلي . كانت « كارداكيس » واحدة من المدن الأكثر جمالاً في ساحل « كوستابرافا » ، وتمّ الحفاظ على معالمها جيداً . وكان هذا يعود من ناحية الى انّ الطريق المؤدّي اليها عبارة عن قمة ضيّقة ومتعرّجة على حافة واد عميق بلا قاع ، حيث كان من اللازم أن تكون روح السائق ثابتة جيّداً في مكانها لكي يستطيع القيادة بسرعة خمسين كيلومتراً في الساعة . كانت بيوتها منذ زمان بيضاء ومنخفضة ، مبنيّة على الطريق التقليدية الشبيه بقرى صيادي حوض البحر المتوسط . أمّا الدّور الجديدة فقد صمّمها معماريون معروفون ، احترموا

فيها التناسق مع المنظر الأصلي العام . وفي فصل الصيف ، عندما كانت الحرارة تبدو وكأنّها قادمة من صحاري أفريقيا المواجهة ، كانت «كاداكيس» تتحوّل الى « بابل » جهنميّة ، مليئة بالسّياح القادمين من جميع « اوروبا » والذين كانوا يتزاحمون خلال ثلاثة أشهر على جنّة أهالي المنطقة وكذا الأجانب الذين حالفهم الحظّ في شراء دار بسعر جيد عندما كان هذا ممكناً ومع كون ربيع وخريف «كاداكيس» مرغوبين ، فانّه لم يكن هناك من يستطيع أن ينسى الخوف من ريح الشمال ، وهي ريح أرضية قاسية وعنيدة والتي تحمل معها ، حسب ظنّ سكان المنطقة وبعض الكتاب ذوي الخبرة ، بذور الجنون .

كنت أنا منذ حوالي خمسة عشر عاماً واحداً من زائري تلك المدينة المواظبين ، حتى اقتحمت ريح الشمال علينا حياتنا هناك . شعرت بها قبل وصلها في أحد أيام الأحد في ساعة القيلولة حيث تنبأت بشكل يصعب على التفسير بأنّ أمراً سوف يحدث . هبطت معنوياتي وشعرت بالحزن من غير سبب ، وتولّد لديّ انطباع أوحى اليّ بأنّ أولادي الذين كانوا آنذاك دون العاشرة ، كانوا يتبعونني بنظراتهم العدوانية في كل أرجاء البيت . دخل البوّاب بعد قليل وهو يحمل صندوق أدوات وحبالاً بحريّة لاحكام سدّ الأبواب والنوافذ ولم يستغرب من حالة الخوف التي كنت أعاني منها .

– انّها ريح الشمال ، قال لي ، ستكون هنا في أقلّ من ساعة .

كان بحاراً قديماً ، وكان مسنّاً جداً ، ومن بين الأشياء التي ورثها عن مهنته معطفه المطريّ وقبعته وغليونه وجلده المكوي بأملاح بحار

العالم . وفي ساعات فراغه ، كان يمارس لعبة الكرات الخشبية في الساحة العموميّة مع العديد من الجنود القدماء في حروب خاسرة ، وكان يتناول القبْلات مع السيّاح في حانات الشاطئ ، إذ كان يتمتّع بحسنة القدرة على التفاهم بأيّة لغة من خلال لغته القطلونية المدغمة . وكان يفاخر بمعرفته لجميع موانئ الكون ، دون أن يعرف أيّة مدينة من الداخل . « ولا حتّى باريس على الرغم من أهميتها » ، كان يقول . ولم يكن يؤمن بأيّة واسطة نقل مالم تكن من وسائط النقل البحري .

وفي السنوات الأخيرة بان عليه الشيب المفاجئ لم يعد يخرج الى الشارع ، وكان يمضي الجزء الأكبر من وقته في الحجيرة المخصّصة للبوّاب ، ولم يكن حاضراً سوى بروحه فقط كما ألف الحياة . كان يطبخ طعامه بنفسه في قدر وعلى موقد كحولي ، وكان هذا يكفي لابهاجنا جميعاً لتألّقه بالطعام القوطي . ومنذ الصباح الباكر كان يشتغل بالمستأجرين شقّة بعد أخرى ، ولم أرَ في حياتي رجلاً خدوماً مثله ، بكرمه اللاّ إرادي وحنانه القطلونيّ الخشن . كان قليل الكلام ، غير انّ اسلوبه كان مباشراً وسديداً وعندما لم يكن يجد ما يفعله كان يقضي الساعات الطويلة يملأ فيها يا نصيب كرة القدم التي لم يكن يقدمها الى مكتب التسجيل الاّ نادراً . وفي ذلك اليوم ، حيث كان يحكم سدّ الأبواب والنوافذ حذراً من الكارثة ، تحدّث لنا عن ريح الشمال وكأنّها امرأة مقيتة غير أنّ حياته لم تكن تعني شيئاً بدونها . ودهشت من أنّ رجلاً من رجال البحر ينعت بتلك الصفة ريحاً أرضيّة .

– انّ هذا اشدّ قدماً ، قال .

ولم تكن السّنة لديه ، على مايبدو ، مقسّمة الى أيام وشهور ، بل الى عدد مرّات قدوم ريح الشمال . وقال لي مرّة : « في العالم الماضي وبعد ثلاثة أيام من ريح الشمال الثانية ، عانيت من أزمة مغص » . وكان هذا ربّما يفسّر اعتقاده بأنّ الواحد منّا يكون قد ازداد عمره عدة أعوام بعد كلّ عاصفة من ريح الشمال . وكانت هواجسه حادّة الى درجة أنّه بعث في نفوسنا قلقاً ورغبة في التعرّف عليها كما لو أنّها كانت زائرة قاتلة ومرغوب فيها .

لم ننتظر كثيراً ، إذ لم يكد البوّاب يخرج حتى سمع صوت صفير أخذ يزداد حدّة وكثافة بالتدريج وتحوّل الى دويّ عارم وكأنّه هزّة أرضية حينذاك بدأت العاصفة ، وكانت في البداية متقطّعة تفصلها فترات هدوء حتى صارت متواصلة وثابتة دون أي انقطاع أو راحة ، بكثافة وقوة خارقتين للطبيعة ، كانت شقّتنا على العكس مما هو مألوف في «الكاريبي» تواجه الجبال ، وكان هذا يعود ربّما الى الذوق القطلوني القديم والغريب في حبّ البحر ولكن دون رؤيته . وهكذا فانّ الريح كانت تقدم الينا من الأمام وتهدّدنا بتحطيم أمراس النوافذ .

الاّ انّ الشيء الذي أثار انتباهي هو أنّ الطقس استمرّ بجماله الذي لا يكرّر ، بشمسه الذهبية وسمائه الثابتة بحيث أنّني قرّرت الخروج الى الشارع مع الأطفال لمشاهدة حالة البحر . والأطفال ، على كلّ حال ، كانوا قد نشؤوا بين زلازل « المكسيك » وبراكين « الكاريبي » ، اضافة الى أنّ الريح لم تبد لنا كسبب يبعث على القلق . مررنا على حافة أقدامنا من أمام حجرة البوّاب ورأيناه جامداً أمام صحن من الفاصوليا مع

السجق، يتأمّل الريح من النافذة ، ولم يشاهدنا عند خروجنا ، تمكنّا من السّير ما دمنا محميّين بالبيوت من الريح ، ولكنّنا عند الخروج الى الزاوية المفتوحة ، وجدنا أنفسنا مضطرين الى معانقة أحد الأعمدة كيلا يجرفنا التيار القويّ للريح . بقينا هكذا نتأمل البحر الثابت والشفّاف في وسط الكارثة ، لغاية وصول البوّاب مع بعض الجيران لانقاذنا . حينذاك فقط اقتنعنا بأنّ الشئ المعقول الوحيد هو البقاء محبوسين في البيت حتى يشاء الله . ولم يكن أي أحد يعلم الى متى سيشاء .

وبعد مرور يومين تولّد لدينا انطباع بأنّ تلك الريح المرعبة لم تكن ظاهرة أرضية بل انتقام شخصي يقوم به أحد ضدّ شخص معيّن . كان البوّاب يزورنا عدّة مرّات في اليوم ، قلقاً على حالتنا المعنوية ، وكان يحمل الينا فاكهة الموسم والفاصوليا للأطفال . وفي وقت الغداء ليوم الثلاثاء أهدى الينا رائعة الحقل القطلوني ، المعدّة في قدر طبخة : أرنب بالقواقع ، وكانت حفلة في وسط الرّعب . وكان يوم الأربعاء الذي لم يحدث فيه شيء آخر غير الريح ، أطول يوم في حياتي ، لابّد انّ كان شيئاً شبيهاً بعتمة الفجر ، لأنّنا استفقنا جميعاً بعد منتصف الليل وفي نفس الوقت ، متضايقين من الصّمت المطبق الذي لا يمكن أن يكون سوى صمت الموت . لم تكن اوراق الاشجار المواجهة للجبل تتحرّك ، وهكذا فقد خرجنا الى الشارع ولم تكن غرفة البوّاب قد أنيرت بعد ، وتمتّعنا بمنظر سماء الفجر بنجومها المشتعلة جميعها والبحر الفسفوري ، وعلى الرغم من أنّ الساعة لم تكن قد وصلت الخامسة ، فانّ الكثير من السّياح كانوا يتمتّعون بالتنفّس على أحجار الشاطئ ، واخذوا يعدّون القوارب الشراعية بعد ثلاثة أيام من العقاب .

لم ننتبه عند الخروج الى عدم اشتعال النّور في غرفة البوّاب ، ولكنّنا عند العودة الى الدار ، كانت الرّيح تمتاز بنفس فسفورية البحر ، وكانت غرفته مازالت مظلمة . دققت عليه مستغرباً مرتين ، ولّما لم ألقَ أيّة اجابة ، دفعت الباب . وأظنّ ان الاولاد هم الذين رأوه أولاً فانطلقت منهم صرخة رعب . كان البوّاب العجوز الذي يرتدي سترته البحرية وعلى صدرها الاوسمة التي منحت له لكونه بحّاراً ممتازاً ، كان معلقاً من رقبته في حبل الى رافدة السقف الوسطى ، وما زال يهتزّ بفعل النفخة الأخيرة لريح الشمال .

وفي وسط النقاهة مصحوبين بشعور الحنين السابق لأوانه ، غادرنا تلك البلدة قبل الوقت المقرّر ، عازمين بشكل أكيد على عدم العودة مطلقاً. كان السّياح مّرة أخرى في الشوارع ، وكانت الموسيقى تعزف في ساحة الجنود القدماء الذين كان حماسهم بالكاد يبيح لهم ضرب كرات الخشب . ومن خلال الزجاج المغبّر لمقهى « ماريتيم » استطعنا مشاهدة بعض الأصدقاء الذين سلموا من الكارثة والذين إستأنفوا حياتهم من جديد في الربيع المشرق لريح الشمال ، ولكنّ ذلك كلّه صار ينتمي الى الماضي .

ولهذا ، ففي الفجر الحزين لـ « بوكاسيو » ، لم يكن هناك أحد مثلي يستطيع أن يفهم شخصاً يرفض العودة الى « كاداكيس » لأنّه كان متيقناً من موته . ومع هذا فانه لم يكن هناك أيّ سبيل لاقناع السويديين الذين أخذوا الشاب أخيراً بالقوّة متعلّلين بالدعوة الاوروبية ادعلوه وهو يرفس برجليه في ساحة صغيرة مليئة بالسكاري وسط تصفيق واستهزاء

الزبائن المتقسمين ، ويخوّوا في تلك الساعة وحلتهم الطويلة الى « كادا كيس » .

في صباح اليوم التالي أيقظني صوت التلفون . كنت قد نسيت اغلاق الستائر عند العودة من الحفلة ، ولم اكن أعرف أيّ شيء عن الوقت، غير أنّ الغرفة كانت غارقة في بهاء الصّيف . أيقظتني نبرة الصوت المتهالك القادم من التلفون ، والذي لم أميّزه للوهلة الاولى :

– هل تتذكّر الشاب الذي أخذوه في الليل الى « كاداكيس » ؟ .

لم أكن في حاجة الى سماع اكثر من هذا الاّ أنّه لم يكن كما تخيلته ، بل أشدّ مأساويّة . أمام فزع العودة الأكيدة ، استغلّ الشاب انشغال السويديين المتوحين ورمى بنفسه خارج الشاحنة التي كانت تسير على عجل ، محاولاً الهرب من موت محقّق .

يناير (كانون الثاني) ١٩٨٢

صيف السّيدة « فوربيس » السّعيد

في المساء ، عند العودة الى الدّار ، وجدنا أفعى بحريّة هائلة قد سمّرت من عنقها في اطار الباب ، وكانت سوداء فسفوريّة ، تبدو وكأنّها رقية غجريّة ، بعينين مازالتا تنبضان بالحياة وأسنانها المنشاريّة في فكّيها المتباعدين . كنت في حدود التاسعة من عمري وشعرت بفزع شديد أمام ظهور ذلك العمل الجنوني فانحبس صوتي . أما أخي الذي كان يصغرني بعامين ، فانّه رمى بعلبة الأوكسجين والأقنعة وأجنحة السّباحة وفرّ هارباً وهو يصرخ بفزع . سمعته السيدة « فوربيس » التي كانت على السّلم المتعرج المبني من الحجر الذي يتسلّق الشّعاب من المرفأ حتّى الدّار ، فجاءتنا لاهثة وقد تغيّر لونها ، غير أنّ نظرة واحدة منها نحو الحيوان المصلوب على الباب كانت كافية لجعلها تفهم سبب فزعنا . كانت هي قد تعوّدت على تكرار قولها بأنّ اثنين من الأطفال عندما يكونان سويّة ، فانّ كليهما مذنب ومسؤول عمّا يفعله كل واحد منها لوحدة . لذا فانّها وبختنا نحن الاثنين على صراخ أخي واستمرّت في معاتبتنا لعدم السيطرة على أنفسنا . تكلّمت باللغة الالمانية لا بالانجليزية حسبما كانت تحدّده بنود العقد معها كمعلمة أطفال ، وذلك ربّما يعود

الى انّها كانت هي الاخرى خائفة ولا تعترف بذلك . ولم تكد تلتقط أنفاسها حتى عادت الى انكليزيتها المتعثرة والى هاجسها التربوي .

– انها مريناهيلينية ، قالت لنا . هكذا تسمّى لأنّها كانت حيواناً مقدساً لدى الاغريق القدماء .

ظهر « أورستي » الفتى ابن البلد الذي كان يعلّمنا على السباحة في المياه العميقة ، ظهر فجأة وراء صخيرات الكبّار . كان يحمل قناع الغوص على جبهته ، وكان يرتدي سروال السّباحة الصغير وفي وسطه حزام جلدي به ستّ سكاكين بأشكال وأحجام مختلفة ، لأنّه لم يكن يفهم أو يعرف طريقة أخرى للصيد تحت الماء ، غير التي يتواجه بها مع الحيوانات يداً بيد . كان عمره في حدود العشرين وكان يقضي ساعات طويلة في أعماق البحر تفوق ساعات تواجده على الأرض الثابتة ، وكان هو نفسه يبدو وكأنّه حيوان بحري بجسده الملطخ دائماً بزيت المكائن . وعند ما رأته السيّدة « فوربيس » للمرّة الاولى ، كانت قد قالت لأبوينا إنّه ليس بالامكان العثور على كائن أشدّ جمالاً منه . ومع ذلك فانّ جماله لم يكن يشفع له أو ينقذه من الصرامة : كان عليه هو أيضاً أن يتحمل توبيخاً باللغة الايطالية لأنّه علّق المرينا على الباب دون أن يكون هناك تفسير معقول لعمله ذلك سوى تخويف الأطفال وبعدها أمرت السيّدة «فوربيس» بأن ينزلها مراعياً الاحترام اللازم لكائن اسطوري ، ثم طلبت منّا أن نلبس ثيابنا استعداداً للعشاء .

فعلنا ذلك في الحال ، محاولين عدم اقتراف أيّ خطأ ، لأننا بعد

مدّة اسبوعين كنّا قد تعلمنا في ظلّ النظام الصارم للسيّدة « فوربيس » ، بأنّه لم يكن هناك شيء أصعب من العيش . وبينما كنّا نغتسل في الحمام المعتم ، انتبهت الى أنّ أخي كان ما يزال يفكّر بالمرينا . « كانت لها عينان كعيون الناس » ، قال لي . وكنت متفقاً معه ، غير أني جعلته يعتقد بما هو مخالف لذلك ، واستطعت تغيير الموضوع حتى انتهيت من الاستحمام . ولكني عندما خرجت من حوض الغسيل ، طلب مني أن أبقى هناك لمرافقته .

– ما زال الوقت نهاراً ، قلت له .

فتحت الستائر ، وكنّا في عزّ شهر أغسطس (آب) ، ومن خلال النافذة كانت ترى السهول القمرية المشتعلة حتى الطرف الآخر من الجزيرة ، والشمس ثابتة في وسط السماء .

– ليس هذا هو السبب ، قال أخي . – أخشى أن يتولّد لديّ الخوف. ومع ذلك فانّه بدا هادئاً عندما وصلنا الى المائدة ، وكان قد نفّذ واجباته بكل دقّة واعتناء فاستحقّ عليها تهنئة خاصة من السيّدة « فوربيس » ، وحاز على نقطتين اضافيتين في حساب حسن السيرة للاسبوع . وعلى العكس من ذلك فقد خصمت منّي نقطتين من النقاط الخمس التي كنت قد كسبتها ، لأنّني تركت الحبل على القارب في اللحظة الأخيرة وأسلمت نفسي للاستعجال فوصلت الى المائدة لاهثاً . كانت خمسون نقطة متراكمة تمنحنا الحقّ في نصيب مضاعف من الحلوى ، ولكنّ أيّاً من الاثنين لم يكن قد تجاوز الخمس عشرة نقطة . وكان ذلك مؤسفاً حقاً ،

لأنّنا لم نعثر في حياتنا على حلويات بلذّة الحلوى التي كانت السيّدة «فوربيس» تعدّها .

وقبل البدء بالعشاء ، كنّا نصلّي واقفين أمام الصحون الفارغة . لم تكن السيّدة « فوربيس » كاثوليكية ، غير أنّ العقد معها كان ينصّ على أن تجعلنا نصلّي ستّ مرات في اليوم ، وكانت قد تعلّمت صلاتنا لتنفيذ شروط العقد . وبعدها كنّا نجلس نحن الثلاثة ، كاتمين أنفاسنا ، في حين أنها كانت تتحقّق من التفاصيل الأكثر دقّة في سلوكنا ، ولم تكن تحرّك الجرس الذي في يدها الاّ بعد أن تتأكد من أنّ كل شيء في غاية التمام والكمال . حينذاك تدخل « فلقيا فلاميتا » ، الطبّاخة ، تحمل الشوربة الأزليّة لذلك الصيف البغيض . في البداية ، عندما كنّا وحيدين مع أبوينا ، كانت ساعة الطعام بمثابة احتفال كانت « فلقيا فلاميتا » تقوم على خدمتنا وهي تطوف حول المائدة مسرورة ويحدوها حبّ شديد الى عملها مع شيء من الفوضى التي كانت تدخل البهجة على النفوس ، وفي النهاية كانت تجلس معنا ثم تشرع بالأكل قليلاً من صحون الجميع . غير اننا وبعد أن أصبحت السيّدة « فوربيس » مسؤولة عن مصائرنا ، أخذت الطباخة تخدمنا بصمت مظلم الى الحدّ الذي كنّا فيه نسمع غليان الشوربة في القدر . كنّا نتعشّى وعمودنا الفقري مستند الى ظهر الكرسي ، وكنّا نمضغ الطعام عشر مرّات في كلّ طرف من طرفي الفم ، دون أن نزيح أبصارنا عن المرأة الحديديّة الواهنة والخريفية ، والتي كانت تلقي علينا من الذاكرة محاضرة في الأخلاق . وكانت شبيهة بقدّاس يوم الأحد ، ولكن من دون سلوى غناء الناس . وفي اليوم الذي عثرنا فيه على المرينا معلقة

على الباب ، تحدثت لنا السيّدة « فوربيس » عن الواجبات تجاه الوطن . وفي جوّ غريب بفعل صوتها ، قدّمت لنا « فلقيا فلاميتا » على جناح السرعة وبعد صحن الشوربة ، شريحة مشويّة على الفحم من لحم أبيض ذي رائحة لذيذة . روّح ذلك عن نفسي لأنّه أيقظ في نفسي ذكرى دارنا في « غواكامايال » حيث لم أكن أفضل على السّمك أيّ شيء آخر من نتاج الأرض أو السماء ، غير أنّ أخي رفض الصحن من غير أن يذوقه ، وقال :

– لا يعجبني .

قطعت السيّدة « فوربيس » محاضرتها ، وقالت له :

– أنت لا تعرف إن كان يعجبك أم لا لأنّك لم تجرّبه .

وجّهت نحو الطّباخة نظرة تحذيرية ، ولكنّها جاءت متأخرة جداً .

– المرينا من أجود أنواع السمك في العالم ، يابنيّ ، قالت له « فلقيا فلاميتا » . – جرّبه وسترى .

لم تغضب السيّدة « فوربيس » وقصّت علينا بأسلوبها الذي لا يرحم بأنّ المرينا كانت من لذائذ طعام الملوك في القديم وبأنّ المحاربين كانوا يتنافسون على مرارتها لأنّها كانت تنفخ فيهم شجاعة خارقة للعادة، ثم أعادت علينا قولها الذي ألفت تكراره مرات عديدة في وقت قصير والذي يفيد بأنّ الذوق الجيّد ليس ملكة فطرية . كما انّه لا يمكن تعلمه في أيّ عمر ، وانما لابدّ من فرضه منذ الطفولة . وهكذا فانّه لا يوجد

أيّ سبب معقول لعدم تناول الطعام . وأنا الذي كنت قد جرّبت المربتا قبل أن أعرف ماذا تكون ، انتابني حتى النهاية شعور بالتناقض : كان لها مذاق سلس وإن كان ممزوجاً بشيء من الكآبة ، غير أنّ صورة الأفعى هي مسمّرة على الباب ، كانت اكثر تحكّما من شهيّتي ، بذل أخي جهداً جباراً مع اللّقمة الاولى ، ولكنّه لم يتمكّن من أن يطيقه : تقيأ .

– اذهب الى الحمّام ، قالت له السيّدة « فوريس » دون أن تتهيّج ، اغسل جيداً وعد لتناول الطعام .

شعرت بقلق كبير عليه ، لأنّي كنت أعلم مقدار معاناته وهو يقطع الدّار كاملة بعد أن خيّمت خيوط الظلام الاولى والبقاء وحيداً في الحمام خلال الوقت اللازم للغسل . الاّ انّه عاد بسرعة وهو يرتدي قميصاً آخر نظيفاً ، كان شاحب اللّون ، ولم تكن تبدو عليه الاّ بالكاد أمارات اضطراب خفيّ ، واستطاع أن يواجه جيداً امتحان النظافة القاسي . حينذاك قطعت السيّدة « فوريس » جزءاً من المربتا وأعطت أمرها بالمتابعة، فاستطعت أنا أن أبتلع بصعوبة كبيرة لقمة ثانية ، في حين أنّ أخي لم يمسك حتى بالشوكة وقال :

– لن آكل .

كان قراره حاسماً الى الحدّ الذي جعل السيّدة « فوريس » تتفادى المواجهة معه .

– حسناً ، قالت ، ولكنك لن تأكل الحلوى .

ألهمتني حسن عاقبة أخي شجاعة فوضعت الشوكة والسكين متقاطعتين في الصّحن على الطريقة التي علمتنا بها السيّدة « فوريس » عند الانتهاء من الطعام ، وقلت :

– أنا أيضاً لن آكل الحلوى .

– ولن تريا التلفزيون ، أضافت هي .

– ولن نرى التلفزيون ، قلت أنا .

وضعت السيّدة « فوريس » الفوطة فوق المائدة ونهضنا نحن الثلاثة للصلاة ، ثم أرسلتنا الى غرفة النوم ، محذّرة ايانا بأنّ علينا أن ننام خلال الوقت الذي تحتاجه هي للانتهاء من الطعام . ألغيت جميع نقاطنا الايجابيّة ، ولم تسمح لنا بتناول حلوياتها اللذيذة الاّ بعد أن تراكمت لدينا عشرون نقطة ، من حلوى القشطة والفانللا والبسكويت المصنوع مع البرقوق ، والتي لم نعد الى تناول حلوى تشبهها فيما تبقى لنا من حياة .

كنّا سنصل الى حالة الطلاق هذه عاجلاً أم آجلاً . كنا ننتظر بشوق عارم وخلال سنة كاملة ، ذلك الصيف الحرّ في جزيرة « بانتيلاريا » ، في الطرف الجنوبيّ لـ « صقليّا » ، وهكذا كان في الواقع في الشهر الأوّل، حيث كان أبوانا معنا خلاله . ومازلت أتذكّر وكأنّه حلم ، ذلك السهل الشمسي المليء بالصخور البركانيّة ، البحر الأزليّ والدار المطليّة بالجير الحي حتى الحجارة المصفوفة التي كنّا نرى من خلال نوافذها وفي الليالي الساكنة ، كنا نرى أنوار أذرعة فنارات « أفريقيا » . وبينما كنّا نتفحص

مع أبي الأعماق الهاجعة حول الجزيرة ، اكتشفنا سلسلة من الطوربيدات الصفراء التي كانت قد ارتطمت بالشاطئ منذ الحرب الأخيرة ، وأنقذنا دورقاً يونانياً يبلغ ارتفاع حوالي المتر وبه نباتات عتاقة متحجّرة ، وكانت ترقد في قعره لسمات لبيد محنّق وسامّ ، وسبحنا في منخفض مائي ينبعث منه الأخان ، كانت مياهه كثيفة الى حدّ انّه كان بالامكان السّير فوقها تقريباً . غير انّ الاكتشاف الأشدّ ابهاراً بالنسبة لنا كان التعرّف على « فلفيا فلامينيا » . كانت تشبه أسقفاً سعيداً ، كانت تمشي دائماً مع قطيع من القطط الكسلى التي تعيق سيرها . وتقول بأنّها لم تكن تحملها حبّاً فيها ، بل لكيلا تأكل الفئران . وفي الليل ، وبينما كان أبواي يشاهدان برامج التلفزيون المخصصة للكبار ، كانت « فلفيا فلامينيا » تأخذنا معها الى بيتها الذي لم يكن يبعد سوى في حدود المائة متر من بيتنا ، وكانت تعلمنا على التّمييز بين الأصوات البعيدة المشوشة والأغاني والنشيج المتقطّع للرياح القادمة من تونس . كان زوجها يصغرها كثيراً ، وكان يعمل في الصيف في الفنادق السياحيّة في الطرف الآخر للجزيرة ، ولم يكن يعود الى البيت الاّ للنوم . وكان « أورستي » يسكن مع أبويه في مكان أبعد ، ويظهر في الليل دائماً وهو يحمل كميات من السّمك المربوط في خيوط وسلالاً من جراد البحر الذي تمّ اصطياده للتوّ ، وكان يعلّقها في المطبخ لكي يقوم زوج « فلفيا فلامينيا » ببيعها في الفنادق في اليوم التالي ، وبعدها كان يعلّق مصباح الغوص على جبهته ويأخذنا لاصطياد فئران الجبل الكبيرة وكأنها أرانب ، والتي كانت ترقب بقايا طعام المطابخ . وكنّا أحياناً نعود الى الدار بعد أن يكون والداي قد ناما ، ولا نستطيع النوم الاّ بصعوبة بسبب ضجّة الفئران التي كانت تتصارع

على بقايا الطعام في الفناء . ولكن حتى هذا العائق أصبح عنصراً ساحراً في صيفنا السعيد .

انّ قرار التعاقد مع معلمة أطفال ألمانية لم يكن بالامكان أن يطرأ على بال أحد آخر غير أبي ، وهو الكاتب الكاريبي الذي فيه من الخيلاء أكثر من الموهبة . كان أبي للمعجب برماد المجد الأوروبي يبدو شديد الحرص على جعل الآخرين ينسون أصله ، سواء في كتبه أو في حياته الواقعية ، محاولاً فرض خيال صعب التحقيق وهو ابعاد كل أثر لحياته وماضيه الخاص عن أبنائه . أمّا والدتي فقد استمرّت على تواضعها كما اعتادت عليه أثناء عملها كمعلمة مشرّدة في أعالي « غواخيرا » ، ولم تتصوّر مطلقاً بأنّ زوجها يمكن له أن يعتقد بفكرة لا تكون الارادة الربانية مصدراً لها . لذا يبد أنّ أياً من الاثنين لم يتساءل بصدق عما ستكون عليه حياتنا مع شاويش من « هور لند » ، تصرّ على تلقيننا بالقوّة عادات المجتمع الاوروبي التي اكل الدهر عليها وشرب ، في حين انّهما كانا يشاركان أربعين من كتاب « المواد » في رحلة بحرية لدوم خمسة أسابيع في جزر بحر « ايجة » .

وصلت السيّدة « فوربيس » في يوم السبت الأخير من شهر يوليو (تموز) في الباخرة العاديّة من « باليرمو » ، وأدركنا منذ رؤيتنا الاولى لها بأنّ الحفلة قد انتهت . جاءت بحذائها العسكري وفستانها ذي الطيّات المتقاطعة في ذلك الطقس الجنوبي الساخن ، وبشعرها القصير كما لو كان شعر رجل تحت قبّعة من اللّبد ، وكانت تنبعث منها رائحة كأنّها رائحة القرود . « هكذا هي رائحة الاوروبيين جميعاً » قال لنا أبي ، « انّها رائحة

الحضارة » . ولكن على الرغم من مظهرها العسكري ، فانّ السيّدة فوربيس لم تكن سوى كائن هزيل ، وربّما كانت ستثير عطفنا لو كنّا أكبر منّا أو لو كان فيه أثر للحنان ، تغيّر العالم في نظرنا ، وتحوّلت ساعات السباحة الستّ التي كانت لنا من البداية بمثابة حلم مستمرّ ، الى ساعة واحدة في اليوم ومتشابهة وكأنّها ساعة مكرّرة وعندما كنّا مع أبوينا ، كان الوقت كلّه لنا للسباحة « اورستي » الذي كان يدهشنا بما لديه من فنّ وشجاعة لمواجهة الاخطبوط في بيئته الطبيعية المكدّرة بسائله الخاص وبالدم ، من غير سلاح عدا سكاكينه التي يخاصم بها . وبعدها أخذ يصل الساعة الحادية عشرة في قاربه ذي المحرّك كالعادة ، غير أنّ السيّدة « فوربيس » لم تكن تسمح له البقاء معنا دقيقة أكثر من الضروري لدرس السباحة والغوص ، ومنعتنا من العودة الى دار « فلفيا فلاميتيا » لأنّ في ذلك رفعاً للكلفة زائداً عن الحدّ في علاقاتنا مع الخدم ، وكان علينا أن نخصّص الوقت الذي كنّا نقضيه في صيد الفئران لقراءة « شكسبير » التحليلية . ونظراً لتعوّدنا على سرقة ثمار الشجر من فناءات الدور وقتل الكلاب بضربها بالحجارة في شوارع « غواكامايال » المشتعلة بالحرارة ، لم يكن بمقدورنا فهم ذلك العذاب القاسي لحياة الأمراء تلك .

ولكنّنا انتبهنا بسرعة الى انّ السيّدة « فوربيس » لم تكن صارمة مع نفسها كما كانت تفعله معنا ، وكان هذا الخلل الأوّل الذي لاحظناه في شخصيتها . كانت في البداية تبقى على الشاطئ تحت المظلّة الملونة ، لابسة قبّحها وتقرأ القصائد القصصية الغنائية لـ « شيلر » ، في الوقت الذي كان « أورستي » يعلمنا الغوص ، وبعدها كانت تعطينا دروساً

نظرية في حسن السلوك في المجمع لمدة ساعات وساعات حتى استراحة الغداء .

وفي أحد الأيام طلبت من « أورستي » أن يأخذها في قاربه ذي المحرّك الى الدكاكين السياحية في الفنادق ، وعادت بلباس سباحة من قطعة واحدة بلون أسود لامع متموّج مثل جلد القطة ، ولكنّها لم تدخل الى الماء مطلقاً كانت تتعرض الى الشمس بينما كنا نسبح ، وكانت تجفّف عرقها بالمنشفة من غير أن تغتسل تحت المرشّة بعد ذلك ، وهكذا فانّها كانت تبدو بعد ثلاثة أيام وكأنّها جرادة بحر مسلوخة وصارت رائحة حضارتها شديدة الى درجة لم يكن التنفّس معها ممكناً .

كانت تستغلّ لياليها للترويح عن نفسها ، ومنذ استلامها للمسؤولية شعرنا بأنّ أحداً ما كان يسير في ظلام البيت ، ومحرّكاً ذراعيه في العتمة ، مما سبّب لأخي قلقاً لتخيّله بأنّ ما كان يراه لم يكن سوى اشباح الغرقى الضائعين الذين تحدّثت لنا عنهم كثيراً « فلفيا فلاميتيا » . ولم نتأخر كثيراً في اكتشاف انّ السيّدة « فوربيس » هي التي كانت تمضي لياليها وتعيش حياتها واقعية لامرأة وحيدة ، كانت هي نفسها ترفض بالتأكيد مثل تلك الحياة خلال النهار . وفي فجر أحد الأيام فاجأناها في المطبخ وهي في ثوب النوم الذي تلبسه عادة طالبات المدارس الثانوية ، وهي تهيئ حلوياتها اللذيذة ، وكان جسدها كلّه ملطخاً بالطحين حتى الوجه ، وكانت تتناول كأساً من النبيذ البرتغالي وهي في حالة من التشوّش العقلي الذي كان بالامكان آن يكون فضيحة حقيقية للسيدة « فوربيس » الأخرى التي عرفناها من قبل . وكنّا نعلم حينذاك

بأنها لم تكن تذهب الى غرفة نومها بعد نومنا نحن ، وانّما كانت تنزل لتسبح سراً ، أو انّها كانت تبقى في الصالة حتى ساعة متأخرة ، لتشاهد بدون صوت أفلام التلفزيون الممنوعة على غير البالغين ، وتأكل كميات هائلة من الحلوى وتشرب قنينة كاملة من النبيذ الخاصّ الذي كان أبي قد احتفظ به بحرص شديد للمناسبات الاستثنائية . وخلافاً لدعواها بضرورة التقشّف على عكس القيم التي كانت تدعو اليها ، كانت تغصّ بالطعام دون مهاودة ، مدفوعة برغبة لاحدّ لها . وبعدها كنا نسمعها وهي تتكلم مع نفسها وحيدة في غرفتها ، كنّا نسمعها وهي تقرأ من الذاكرة وبلغتها الالمانية الرخيمة مقاطع كاملة من « وصيفة أورليانس » ، أو تغنّي أو تنشج في السّرير حتى الصباح ، وبعدها كانت تظهر في ساعة الافطار وعيناها منتفختان من البكاء ، وهي أشدّ كآبة وتسلّطاً . لم نعد لا أنا ولا أخي الى الشعور بمثل تلك التعاسة ، غير أنّي كنت مستعداً لتحملها حتى النهاية ، لأنّي كنت أعلم بأنّ رأيها وقرارها لابدّ غالب على رأينا في كلّ الاحوال . في حين أنّ اخي تراجهه معها بكل شدّة مزاجه وتحول صيفنا السعيد الى جحيم . وكان فصل المرينا الحدّ الاخير . وفي نفس تلك الليلة، وبينما كنّا نستمع الى تحركاتها التي لا تنقطع في البيت النائم، اطلق اخي دفعة واحدة كل شحنة الحقد التي كانت تحقّن في نفسه.

– سوف أقتلها ، قال .

أصابتني الدهشة ، ليس بسبب قراره ، وانّما لتصادف هذا القرار مع ما كنت أنا أفكر به منذ ساعة العشاء ، ومع ذلك فقد حاولت ثنيه عن عزمه.

– سيقطعون رأسك ، قلت له . فأجابني :

– في « صقلّية » لا توجد مقصلة . ثم أنّه لن يعلم أحد من الفاعل.

كان يفكّر بالدورق الذي أنقذناه من المياه ، حيث مازالت ترقد رواسب النبيذ القاتل . كان أبي قد احتفظ به لأنّه كان يرغب في اخضاعه الى تحليل اكثر دقّة للتحقّق من طبيعة سمومه ، الا انّه ليس من المعقول أن يكون نتيجة لمجرّد مرور الزمن . واستعماله ضدّ السيّدة «فروبيس» كان أمراً في غاية السهولة ، ولم يكن هناك أي احتمال في أن يفكر أحد بأن موتها لم يكن حادثاً أو انتحاراً . وهكذا فاننا عندما وجدناها في الصباح وهي على وشك السقوط بسبب انهاك السّهر الصاخب ، صببنا نبيذ الدورق في قنينة الخمر الخاص التي كانت لأبي . وحسبما كنّا سمعنا بأنّ تلك الجرعة كافية لقتل حصان .

كنّا نتناول وجبة الافطار في المطبخ على الساعة التاسعة بالضبط ، وكانت تقدّمه لنا السيّدة « فوربيس » بنفسها من الخبز الحلّى الذي كانت تتركه « فلفيا فلاميتيا » في ساعة مبكرة جداً فوق الفرن ، وبعد يومين من تبديل النبيذ ، نبّهني آخي في ساعة الافطار الى أنّ القنينة لم تمسّ في الخزانة . كان ذلك في يوم جمعة ، واستمرّت القنينة على حالها في نهاية الاسبوع ، غير انّ السيّدة « فوربيس » شربت نصف الكمية ليلة الثلاثاء ، بينما كانت تشاهد أفلام التلفزيون الا باحيّة .

ومع ذلك فانّها حضرت الى وجبة الافطار كالعادة في الوقت المحدّد المضبوط صباح الأربعاء . كان وجهها كالعادة يوحي بأنّها قضت ليلة

سيئة ، وكانت عيناها تعبران عن القلق الذي تُلقاه فيهما وراء زجاجتي النظارة السّميكتين ، وازداد قلقها حين رأت في سلّة الخبز رسالة من والماليا الى جانب الخبز . قرأتها وهي تتناول القهوة على عكس ما كانت تقوله لنا عن سوء هذه العادة ، وأثناء القراءة كانت تمرّ على ملامح وجهها ومضات من نور تشعّ الكلمات المكتوبة وبعدها نزعت الطوابع من على الظرف ووضعتها في السلّة مع باقي الخبز لتضمّها الى مجموعة زوج وفاليا فلاميناه . وعلى الرغم من سوء تجربتها البدائية لذلك اليوم ، فانّها رافقتنا لاكتشاف أعماق البحر ، وبقينا نهيم في بحر من المياه الضّحلة حتى أخذ اوكسجين العلب ينفد فعدنا الى الدار دون أن تعطينا درس حسن السلوك.

لم تكن معنوية السيّدة « فوربيس » خلال ذلك النهار عالية فحسب ، وانما بدت في ساعة العشاء اكثر حيوية من أيّ وقت مضى . ولم يكن أخي يتحمل من جانبه حالة القنوط تلك ، ولم تكد تستلم أمر البدء ، حتى أبعد صحن تنورية الشعرية بحركة استفزازية قائلاً :

– لم أعد أطيق هذا السائل الذي هو أشبه بماء مليء بدود الأرض .

كان وقع كلماته كما لو أنّه رمى بقنبلة يدوية للحرب فوق المائدة. تغيّر لو السيّدة « فوربيس » وصار شاحباً وتصلّبت شفتاها حتى بدأ دخان الانفجار يتبدّد وتبلّل زجاج نظارتها بالدّموع . نزعتها بعد ذلك وجفّفتها بالفوطة ، وقبل أن تنهض وضعتها فوق المائدة وهي تشعر بمرارة الاستسلام الخالي من أي نصر .

– افعلا ما يحلو لكما ، قالت ، أنا غير موجودة .

حبست نفسها في غرفتها منذ السّاعة السابعة ، غير أننا ساعدناها تمرّ بلباس النوم الخاصّ بطالبات الثانوية قبل منتصف الليل عندما ظنّت بأننا كنّا نائمين ، وقد حملت الى غرفة النوم قطعة حلوى كبيرة مصنوعة من الشكولاته وقنينة النبيذ التي كان فيها ما يزيد على أربعة أصابع من الخمر المسموم ، شعرت برجفة الأسى وقلت :

– مسكينة هي السيّدة « فوربيس » .

لم يكن أخي سامحها مسالماً وقال :

– نحن المساكين إن لم تمت هذه الليلة .

وفي فجر ذلك اليوم عادت الى التحدّث مع نفسها لوقت طويل وأنشدت قصائد « شيلر » بصوت عال مستلهمة جنوناً مسعوراً وختمت بصرخة أخيرة ملأت كلّ أرجاء البيت . وبعدها تنهّدت من أعماق روحها مرات كثيرة ، ثمّ استسلمت مصدرة صفيراً حزيناً ومتواصلاً مثل قارب يسير على غير هدى ، وعندما استيقظنا ونحن في غاية الانهاك بسبب توتّر السّهر ، كانت أشعة الشمس تدخل كالسكاكين من خلال شمسيّة النافذة ، غير أنّ الدار كانت تبدو وكأنّها غارقة في بحيرة حينذاك انتبهنا الى أنّ الساعة قد قاربت العاشرة دون أن توقظنا السيّدة «فوربيس» جرياً على عاداتها الصباحية الرتيبة. لم نسمع صوت صرف ماء المرحاض في الساعة الثامنة ولا صوت حنفية المغسلة أو أصوات رفع شمسية النافذة ولا صخب حذوات حذائها أو الضربات الثلاثة القاتلة على الباب بوسط كفّها الشبيه بكفّ نخّاس ، ألصق أخي أذنه على الجدار

وحبس أنفاسه على أمل استقبال أدنى علامات الحياة في الغرفة المجاورة ، وأخيراً تنهّد بارتياح وقال :

– انتهى الأمر ! انّ الشيء الوحيد الذي يسمع هو صوت البحر . أعددنا وجبة الافطار قبل الحادية عشرة بقليل ثم نزلنا الى الشاطئ وحملنا معنا إسطوانتي اوكسجين لكل واحد منّا واثنين للاحتياط وذلك قبل مجيء « فلقيا فلامينيا » مع قطيع القطط لتنظيف الدّار . كان أورستي « حينئذ عند رصيف الشاطئ ينزع أحشاء سمكة سيبوريّة تزن ستة أرطال ، كان قد اصطادها لتوّه . قلنا له بأنّنا قد انتظرنا السيّدة « فوربيس » حتى الحادية عشرة ، وبما أنّها كانت مستمرّة في نومها ، قرّرنا النّزول وحدنا الى البحر . وقصصنا عليه أيضاً بأنّها في الليلة الماضية تعرّضت الى حالة من الكآبة على المائدة ، وربّما لم تنم جيداً ففضلت البقاء في السّرير . لم يهتمّ « أورستي » كثيراً بهذه التفاصيل كما كنا نتوقّع ورافقنا لنطوف في أعماق البحر خلال وقت يزيد على الساعة بقليل . وبعدها أشار علينا بالذهاب الأ الدار لتناول طعام الغداء وذهب هو في قاربه ذي المحرّك ليبيع السمكة في الفنادق السياحية . ومن السلالم الحجرية أشرنا اليه بإشارة الوداع لحمله على الاعتقاد باننا كنّا ذاهبين الى الدّار ، حتى اختفى وراء الجروف الصخريّة . حينئذاك ركّبنا اسطوانات الاوكسجين وبدأنا نسبح بدون رخصة من أحد .

كان يوماً غائماً يسمع فيه صخب رعد مظلم في الأفق ، غير أنّ البحر كان مستوياً وشفافاً ، وكان يشعّ بنوره الخاصّ . سبحنا فوق سطح الماء حتى خطّ فنار « بانتيلاريا » ، ودرنا بعدها نحو اليمين لمسافة

تقارب المائة متر ثمّ غطسنا في المكان الذي قدّرنا بأنّنا عثرنا فيه على طوربيدات الحرب في بداية الصيف .

كانت هناك : انّها ستّة مطلية باللون الأصفر الشمسي وعليها أرقامها المسلسلة كاملة ، راقدة في القعر البركاني في نظام تامّ ليس من بنات الصّدفة ، وبعدها بقينا ندور حول الفنار ، باحثين عن المدينة الغاطسة التي تحدثت لنا عنها بكثرة وباعجاب شديد « فلقيا فلامينيا » ، غير أننا لم نعثر لها على أيّ أثر . وبعد ساعتين حين اقتنعنا بأنّه لم يكن هناك أيّ سرّ جديد لنكتشفه ، خرجنا الى سطح الماء مع آخر جرعة من الأوكسجين .

كانت قد نزلت عاصفة مطرية صيفية أثناء غوصنا ، وكان البحر هائجاً ، وكانت أسراب من الطيور آكلة اللحوم تحوم ناعقة بشراسة فوق جيوف الأسماك المحتضرة عند الشاطئ . غير انّ نور المساء بدا وكأنّه قد استوى لتوّه وبدت الحياة طيبة بدون السيّدة « فوربيس » . ولكنّنا عندما صعدنا سلالم الجرف بصعوبة بالغة ، شاهدنا أناساً كثيرين في الدار وسيارتين للشرطة أمام الباب ، وحينذاك أدركنا وللمرّة الاولى ما كنّا قد فعلناه . بدأ أخي يرتعش وأراد الرجوع .

– أنا لن أدخل ، قال .

أما أنا فقد جاءني الهام غامض أوحى اليّ بأننا سنكون بعيدين عن كلّ شكّ بمجرد رؤية الجثّة .

– اهدأ ، قلت له ، وتنفّس بعمق ثم فكّر بشيء واحد فقط : انّنا لا نعرف شيئاً . لم ينتبه الينا أحد . تركنا الاسطوانات والأقنعة و الأجنحة في المدخل ومرقنا من خلال الممّر الجانبي ، حيث كان يوجد رجلان يدخنان ، جالسين على الأرض الى جانب نقّالة جرحى . انتبهنا حينذاك الى وجود سيّارة اسعاف عند الباب الخلفي والعديد من العسكريين المسلّحين بالبنادق . وفي الصالّة كانت النساء من بيوت الجيران يصلين بالدراجة وهن جالسات على كراسي موضوعة الى جانب الجدار ، بينما كان أزواجهن متجمهرين في الفناء يتكلمون عن أشياء عديدة لاصلة لها بالموت . ضغطت بقوّة أكبر على يد أختي التي كانت صلبة وباردة ودخلنا الى البيت من خلال الباب الخلفي . كانت غرفة نومنا مفتوحة وعلى نفس حالتها التي تركناها في الصباح ، وفي غرفة السيّدة «فوربيس» المجاورة ، كان يوجد دركيٌ مسلّح يراقب الدخول والخروج ، وكان الباب مفتوحاً . مددنا عنقينا نحو الداخل بقلب منقبض ولكنّ الوقت لم يسعفنا لاتمام ذلك ، لأنّ « فلفيا فلامينيا » خرجت من المطبخ كالبرق وأغلقت الباب وهي تطلق صرخة فزع :

– اكراماً للخالق ، يا أبنائي ، لا تنظروا اليها !

جاء ذلك متأخراً ، ولن نستطيع أن ننسى مطلقاً فيما تبقى لنا من حياة ما شهدناه في تلك اللحظة السريعة . كان هناك رجلان بالملابس المدنيّة يقيسان المسافة التي تفصل ما بين السرير والجدران بشريط قياس متريّ ، بينما كان رجل ثالث يأخذ الصور في آلة عليها غطاء أسود ، شبيه بالتي يستعملونها في المتنزهات . لم تكن السيّدة « فوربيس » فوق

السرير الذي تعلوه الفوضى ، بل كانت مطروحة على جنبها على الأرض، عارية وفي وسط بركة من الدّم الناشف الذي صبغ أرضية الغرفة بكاملها ، وكان جسدها مغربلاً من كثرة الطعنات بسبعة وعشرين جرحاً قاتلاً ، وكان يلاحظ من خلال عدد الضربات وقسوتها بأنّها قد صوبّت في ظلّ هياج حبٍّ لا يعرف السكون ، وبأنّ السيّدة « فوربيس » كانت قد تلقّتها بنفس الحماس ، حتى دون أن تصرخ أو تبكي ، قارئة من الذاكرة قصائد « شيلر » بصوتها العسكري الرائع ، مدركة بأنّ ذلك هو الثمن الحتمي لصيفها السعيد .

١٩٧٦

النور كالماء

في أعياد الميلاد، عاد الطفلان الى طلب زورق بمجاذيف .

– حسناً ، قال الأب ، سنشتريه عند عودتنا الى « كارتخينا » .

كان « توتو » ذو الأعوام التسعة و « خويل » بأعوامه السبعة ، اكثر تصميماً مما كان الوالدان يظنّان .

– لا ، قالا بصوت واحد ، نحتاجه الآن وهنا .

– بدءاً ، قالت الأمّ ، لا توجد هنا مياه صالحة للملاحة غير التي تخرج من الدّوش .

كانت هي وزوجها على حقّ ، ففي بيتهم في « كرتخينادي الدياس » بـ « كولومبيا » كان يوجد فناء ذو رصيف يطلّ على الخليج وملجأ ليختين كبيرين . أمّا هنا في مدريد ، فانّهم كانوا يحشون متزاحمين في شقّة بالطابق الخامس في الرقم ٤٧ من شارع « لا كاستيانا » . غير أنّ أيّا من الاثنين لم يستطع في النهاية رفض الفكرة ، لأنهما كانا قد وعداهما بالزورق ذي المجاذيف مع آلة السّدس لقياس ارتفاع الكواكب بالاضافة الى البوصلة ، فيما اذا حصلا على جائزة المستوى الثالث من

المدرسة الابتدائية ، وقد حصلا عليها بالفعل . وهكذا فقد اشترى الأب كلّ ذلك دون أن يقول شيئاً لزوجته التي كانت ترفض دفع نقود للألعابه كان زورقاً رائعاً من الألومنيوم ، به خيط مذهّب عند الحدّ الذي يفصل الجزء الغاطس في الماء .

– الزورق في الكراج . كشف الأب ذلك ساعة الغداء . – المشكلة هي أنّه لا توجد طريقة للصعود به ، لا في المصعد ولا عن طريق السلّم ، وفي الكراج لا يوجد مكان فارغ .

ومع ذلك ، فانّ الطفلين دعوا مساء السّبت التالي زملاءهما للصعود بالزورق عن طريق السّلم واستطاعوا حمله الى غرفة الخدم .

هنيئاً ، قال لهما الأب ، والآن ماذا ستفعلان ؟

– لا شيء الآن ، قال الطفلان . – انّ الشيء الوحيد الذي كنّا نريده هو أنْ يكون الزورق في الغرفة وكفى .

وفي ليلة الأربعاء ككل يوم أربعاء ذهب الوالدان الى السينما ، وصار الطفلان صاحبين وسيدين في المنزل ، فأغلقا الأبواب والنوافذ وكسر المصباح المشتعل في احدى ثريّات الصالة ، فبدأ يخرج من المصباح المكسور شعاع ذهبي طازج كالماء فتركوه يسيل حتى ارتفع أربعة أشبار عن الأرض . بعد ذلك قطعا التيار الكهربائي وأخرجا الزورق وشرعا بالملاحة في لذّة بين جزر المنزل .

كانت هذه المغامرة الخرافية نتيجة لتهوّري عندما شاركت في

الحلقة الدراسية الخاصة بالشّعر الذي يتناول اللوازم البيتية . سألني « توتو » عن الكيفية التي كان الضّوء يشتعل فيها بمجرّد الضغط على الزرّ ، ولم أتجرّأ أنا على التفكير بذلك مرتين فأجبته :

– النّور كالماء : تفتح الحنفيّة فيخرج .

وهكذا فانّهما استمرّا بالملاحة في ليالي الأربعاء ، يتعلّمان استعمال آلة السّدس والبوصلة لغاية عودة الأبوين من السّينما حيث يجدانهما نائمين مثل ملكين على أرض ثابتة . وبعد شهور ، مدفوعين برغبة ملحّة للذهاب أبعد من ذلك ، طلبا عدّة الصّيد تحت الماء كاملة : الأقنعة والأجنحة واسطوانات الأوكسجين وبنادق الهواء المضغوط .

– انه أمر سيء أن يكون عندكما زورق ذو مجاذيف في غرفة الخدم والذي لا يصلح لأيّ شيء ، قال الأب . – ولكنّ الأسوأ من ذلك هو أن تطلبا بالاضافة الى ذلك عدّة الغوص .

– واذا حصلنا على الجائزة الذهبية للنصف الأول من العام الدراسي؟ قال جويل .

– لا ، أجابته الأم فزعة . – ليس هناك أيّ شيء آخر .

عاتبها الوالد على عنادها .

– إنّ هذين الطفلين لن يحوزا حتّى على مسمار لأداء واجباتهما ، قالت هي ، ولكنّهما قادران على كسب كرسي الاستاذ بدافع النّزوة .

لم يحب الأبوان في النهاية لا بالسلب ولا بالايجاب ، غير أنّ «توتو» و « خوئيل » اللذين كانا في السنتين الأخيرتين في آخر قائمة الناجحين ، حازا في يوليو (تموز) على جائزتين ذهبيتين والشكر العلني للمدير . وفي مساء ذلك اليوم ، ومن غير أن يعود الى طلب العدد ، وجدا في غرفة نومهما لوازم الغوص في صناديقها الأصليّة . وهكذا فانهما قاما يوم الأربعاء التالي ، عندما كان الأبوان يشاهدان فيلم « آخر تانغو في باريس » ، بملء الشقّة الى ارتفاع ذراعين وغاصا مثل سمكتي قرش وديعين تحت قطع الأثاث والاسرّة وأنقذا من الأعماق ، أعماق النّور الأشياء التي كانت قد ضاعت في الظلمات خلال سنوات .

وفي التقدير الأخير ، تمّ اعتبار الأخوين مثالاً نموذجياً للمدرسة ومنحا شهادة امتياز . وفي هذه المرّة لم يحتاجا الى طلب أيّ شيء ، لأنّ الأبوين سألاهما عمّا يريدانه . كانا منطقيين الى الحدّ الذي لم يطلبا فيه سوى القيام بحفلة في البيت لاكرام زملاء الدراسة .

كان الأب مع زوجته وحيدين وكان مشرق الوجه . وقال :

– انّها علامة النضوج .

– ليسمعك الربّ ، قالت الأمّ .

وفي يوم الأربعاء التالي ، وبينما كان الأبوان يشاهدان « معركة الجزائر» ، رأى الناس المارّون بشارع « لاكاستيانا » شلالاً من نور يتساقط من بناء قديم مختف بين الأشجار . كان يخرج من بين الشرفات ويصبّ

وفيراً على الواجهة ثم ينصرف في الشارع الكبير مشكّلاً تياراً ذهبياً أنار المدينة حتى « غواداراما » (١) .

استدعي رجال الاطفائية على عجل فحطّموا باب شقة الطابق الخامس ووجدوا بأنّ البيت طافح بالنّور حتى السّقف . كانت الأريكة والمقاعد المغلّفة بجلد النّمر الأرقط تطوف في الصالة على مستويات مختلفة بين قناني النبيذ والبيانو بغطائه المستورد من « مانيلا » والذي كان يتموّج مثل شفنين ذهبيّ . كانت لوازم البيت في قمّة تحلّقها الشعري تطير بأجنحتها الخاصّة في سماء المطبخ . وكانت آلات موسيقى الحرب التي كان الأطفال يستعملونها للرقص تعوم مع التيّار بين الأسماك الملوّنة الطليقة التي تحرّرت من حوض الأسماك للأمّ، الأسماك وحدها كانت تسبح حيّة وسعيدة في ذلك المستنقع الواسع النير . وفي الحمّام كانت تطفو على سطح الماء فراشي أسنان الجميع وكبابيت الأب وأوعية الدهونات والأسنان الاصطناعية للأم ، وكذا تلفزيون الغرفة الرئيسية الذي كان يطفو على جنبه والذي كان ما يزال مشتعلاً يعرض الجزء الأخير من فيلم منتصف الليل الممنوع على الأطفال .

وفي نهاية الممرّ ، عائماً بين موجتين ، كان « توتو » جالساً في مؤخرة الزورق ، ماسكاً بالمجذافين ولابساً القناع ، يبحث عن فنار الميناء الى الحدّ الذي أسعفه فيه أوكسجين الاسطوانات ، وكان « خوئيل » طافياً في مقدّمة السفينة، مازال يتحقّق في ارتفاع النجم القطبي بآلة السّدس ، وكان زملاء الدراسة السبعة والثلاثون يعومون في كلّ أرجاء البيت ، مخلّدين في اللحظة التي بالوا فيها في أصص زهور الغرنوق وغناء نشيد

المدرسة بعد تغيير كلمات أبياته بكلمات تسخر من المدير ، وبعد أن شربوا سراً كأساً من البراندي من قنينة الأب . لقد كانوا أشعلوا الكثير من الأنوار في نفس الوقت حتى فاضت الدار ومعها جميع المستوى الرابع الابتدائي لمدرسة « سان خوليان إل هوسبيتلاريو» حيث اختنق طلابه في الطابق الخامس من الرقم ٤٧ بشارع « لا كاستيانا » . في « مدريد » باسبانيا وهي مدينة بعيدة ذات صيف مشتعل وشتاء جامد ، من غير بحر أو نهر ، ولم يكن سكانها الأصليون الذين ألفوا الأرض الثابتة ، لم يكونوا يوماً أساتذة في علم الملاحة في النور .

دیسمبر (كانون أول) ١٩٧٨

١ – ملاحظة المترجم : غوادارّاما : سلسلة جبلية تفصل اقليم « سيغوبيا » عن «مدريد».

آثار دمك على الثلج

عند الوصول الى الحدود . كانت جيوش الظلام قد زحفت على الأرض حينذاك انتبهت « نينا داكونتي » الى انّ اصبعها الذي فيه خاتم الزواج كان ما يزال ينزف . تفحّص الحرس المدني الذي كان يضع بطانية من الصوف الخشن على قبعته الجلدية ذات الزوايا الثلاث ، تفحّص جوازي السّفر على ضوء مصباح الكربيد اليدوي ، باذلاً جهداً كبيراً كيلا تسقطه الريح العاصفة التي كانت تهبّ من جبال « لوس بيرينيوس » . ومع أنّ جوازي السّفر كانا دبلوماسيين وصالحين ، فانّ الحرس المدني رفع المصباح اليدوي ليتأكد من أنّ صورتي الجوازين شبيهتان بوجهيهما . كانت « نينا داكونتي » مثل طفلة بعيني طائر سعيد وبشرة عسلية ما زالت تشعّ ببريق « الكاريبي » في ذلك المساء الكئيب لشهر يناير (كانون الثاني) ، وكانت متدثرة بمعطفها حتى العنق ، ذلك المعطف المصنوع من جلد رقاب السّمور والذي لم يكن من السهل شراؤه برواتب جميع طاقم الحامية الحدودية لسنة كاملة . « بيلّي سانجث دي أبلا » ، زوجها الذي كان يقود سيّارة ، كان أصغر منها بسنة واحدة وكان بمثل وسامتها تقريباً . كان يلبس سترة بمربعات اسكتلندية وقبّعة لاعب كرة . وعلى العكس من زوجته ، كان طويلاً بجسم رياضي وفكّين حديديين لقاتل

خجول . غير أنّ الشيء الذي كان يدلّ بشكل أفضل على حالتها هي السيارة ذات اللون البلاتيني والتي كانت تصدر من داخلها رائحة تنفّس بهيمة حيّة ، ولم يكونوا قد رأوا من قبل سيّارة مثلها في تلك الحدود الفقيرة . كانت المقاعد الخلفية مكتظّة بحقائب جديدة للغاية وبالكثير من علب الهدايا التي لم تفتح بعد . وكان هناك بالاضافة الى ذلك السكسفون الصادح الذي كان خلال زمن العاطفة المتحكّمة بحياة « نينادا كونتي » قبل أن تستسلم للحبّ المتناقض لرفيق نادي السّباحة اللطيف .

وعندما أعاد الحارس المدني جوازي السّفر مختومين ، سأله « بيلّي سانجث » أين يمكنهما العثور على صيدلية لمعالجة إصبع زوجته ، فصرخ الحارس المدني ضدّ اتجاه الريح قائلاً بأنّ عليهما أن يسألا في « هندايا » ، في الجانب الفرنسي ، غير أنّ حرس « هندايا » كانوا جالسين الى منضدة ولا تكسوا أبدانهم غير القمصان وهم يلعبون بورق الشدّة ، ويأكلون في نفس الوقت الخبز المنقوع في طاسات النبيذ ، داخل غرفة زجاجية دافئة ومنارة بشكل جيّد ، وقد كفتهم رؤية حجم السيارة ونوعها لكي يبينوا لهم بالاشارة بأن يدخلوا في فرنسا زمّر لهم « بيلي سانجث » عدة مرات ببوق السيارة ، غير أنّ الحرّاس لم يفهموا بأنّه كان يناديهم ، لذا فانّ واحداً منهم فتح زجاج النافذة وصرخ فيهم بغضب يفوق غضب الرّيح :

– لتذهبا الى الجحيم !

حينذاك خرجت « نينا داكونتي » من السيارة متدثّرة بالمعطف حتّى أذنيها وسألت أحد الحراس بلغة فرنسية سليمة عن صيدليّة . فردّ الحارس

كعادته وفمه مليء بالخبز بأنّ ذلك ليس من شأنه ، وخاصة في مثل تلك العاصفة ، ثمّ أغلق النافذة . غير أنّه ركّز فيما بعد انتباهه على الفتاة التي كانت تمصّ اصبعها الجريح الملفوف ببريق جلد السّمّور الطبيعي ، ولا بدّ انه توهم بها فظنّها كائناً ساحراً في تلك الليلة المفزعة ، اذ تغيّر مزاجه في الحال . شرح لهما بأنّ أقرب مدينة من ذلك المكان هي « بياريتث » ، غير أنّه في عزّ الشتاء وفي مثل تلك الرياح الذئبية ، ربّما لم يكن من السهل العثور على صيدلية مفتوحة حتى مدينة « بايونا » ، بعد المدينة السابقة بقليل .

– هل هو شيء خطير ؟ سألهما .

– لا ، ابتسمت « نينا داكونتي » وأرته اصبعها الذي فيه الخاتم المرصّع بالماس والذي لم يكن الجرح الذي سببته أشواك الوردة في أنمله يرى الاّ بالكاد .

– إنّه مجرّد وخزة .

وقبل الوصول الى « بايونا » تهاطلت الثلوج من جديد ، ولم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة ، غير أنهما وجدا الشوارع مقفرة وأبواب المنازل مغلقة حذراً من غضب العاصفة ، وبعد أن دارا عدّة دورات دون العثور على صيدلية ، قرّرا الاستمرار في سفرهما . سرّ « بيلّي سانجث » بهذا القرار اذ كان عنده شغف لا يرتوي بالسيارات الغريبة ووالد شديد الشعور بالذنب تجاه الأبناء وأموال طائلة لاشباع رغبات ابنه ، ولم يكن من قبل قد قاد سيارة شبيهة بتلك ، « بنتلي » ذات غطاء قابل للطيّ ،

قدّمت له كهدية للزواج . كانت نشوته في التحكّم بمقود السيارة كبيرة الى الحدّ الذي كان شعوره بالتعب يتناقص كلّما استمرّ بالقيادة . كان على استعداد للوصول في هذه الليلة حتى « بوردو » التي كانوا قد حجزوا لهم فيها جناحاً في فندق «سبلندد» ، ولم تكن هناك عواصف مضادة ولا ثلوج كافية في السماء لتمنعه من ذلك . بينما كانت « نينا داكونتي » منهكة وعلى الخصوص في الجزء الأخير من الطريق الذي بدأ في « مدريد » والذي هو عبارة عن منحدرات وقمم تقطنها الماعز والتي كانت تهطل عليها الثلوج . وهكذا فانّها لفّت منديلاً على بنصرها وضغطته جيداً لوقف الدّم الذي كان مازال ينزف ، ثمّ نامت بعمق . ولم ينبهها « بيلّي سانجث » الأ في حدود منتصف الليل ، بعد أن توقف سقوط الثلج وسكن الهواء فجأة بين أشجار الصنوبر وصارت سماء تلك السهول البريّة القاحلة مليئة بالنجوم الجامدة . كان قد مرّ من أمام الأنوار النائمة لمدينة «بوردو» ، ولكنّه لم يتوقف الأ في محطة لملئ خزان سيارته بالبنزين ، إذ انّه كان ما يزال يجد في نفسه حماساً للاستمرار حتى «باريس » من غير استراحة. كان شديد السعادة بلعبته الكبيرة التي كلّفت خمسة وعشرين ألف جنيه استرليني ، ولكنّه لم يكلّف نفسه عناء التساؤل إن كانت تلك الفتاة المتألقة التي تنام الى جانبه سعيدة مثله ببنصرها المربوط والمغمور بالدّم والتي كانت أحلام المراهقة لديها تمرّ لأول مرّة من خلال سحب من الشكّ . كانا قد تزوّجا قبل ثلاثة أيام على بعد عشرة آلاف كيلو متر من ذلك المكان ، في «كرتخيناذي هندياس» في ظلّ دهشة أبوية وخيبة أمل أبويها والتبريكات الشخصية لرئيس الاساقفة . لم يكن هناك أحد غير المتوقّعة . كان قد بدأ قبل العرس بثلاثة أشهر ، في يوم أحد

مناسب للسباحة ، عندما دخلت زمرة « بيلّي سانجث » الى غرف تبديل الملابس للنساء في أحد مسابح مدينة « مربيا » . كانت « نينا داكونتي » قد أتمّت لتوها الثامنة عشرة وكانت عائدة من القسم الداخلي « شاتيلينيي» في « سانيت بلايس » بـ « سويسرا » ، وكانت تتكلّم أربع لغات بشكل مضبوط وتعزف بأستاذية على آلة السكسفون الكبير، وكان ذلك اليوم هو أول يوم أحد تذهب فيه للسباحة بعد عودتها . كانت قد تعرّت بالكامل لكي ترتدي لباس السباحة عندما بدأت ضجّة الفزع والصراخ لهجوم الغرف المجاورة ، ولم تفهم ما كان يجري الى أن سقط مزلاج باب غرفتها على شكل شظايا فوجدت واقفاً أمامها الصعلوك الاكثر وسامة والذي لم تكن تتخيّل مثله . لم يكن يلبس غير سروال تحتي مخطّط من جلد النّمر الاصطناعي، وكان ذا جسم وديع معتدل ومرن وبشرة مذهّبة لأناس البحر. كان يحمل في معصمه اليمين سواراً معدنياً لمصارع روماني وكانت بيده سلسلة حديدية كانت بمثابة سلاح قاتل ، وفي عنقه ميداليا ليس بها صورة قدّيس كانت تخفق في صمت مع خفقان القلب الخائف

كانا زميلي دراسة في المدرسة الابتدائية ، وقد حطّما آنذاك الكثير من قوالب الحلوى التي كانت تعلّق في حفلات أعياد الميلاد ، وكانا ينتميان الى السلالة القرويّة التي كانت تتحكم حسب ارادتها في مصائر المدينة منذ العهد الاستعماري ، ولكنهما لم يلتقيا منذ سنوات طويلة ممّا أدّى الى عدم تعرّف أحدهما على الآخر في النظرة الأولى ، بقيت « نينا داكونتي » واقفة دون حركة ومن غير أن تفعل أي شيء لاخفاء عريها ، حينذاك أكمل « بيلّي سانجث » طقسه الصباني : أنزل سرواله التحتي المصنوع من جلد النّمر وأراها حيوانه المنتصب المحترم . نظرت هي اليه

مواجهة دون أن تصاب بالدهشة وقالت وقد أخذ الفزع يتسرّب الى نفسها :

– شاهدت ما أكبر وأشدّ ثباتاً ، لذا عليك أن تفكّر جيداً بما سوف تفعله وأن تتصرّف معي أفضل من تصرّف العبيد .

وفي الواقع . لم تكن « لينا داكونتي » عذراء فحسب ، بل انها لم تكن قد رأت حتى تلك اللحظة رجلاً عارياً ، الاّ أنّها تحدّته وكانت النتيجة فعّالة ، وانّ الشيء الوحيد الذي فعله « بيلي سانجث » هو توجيه لكمة غضب الى الجدار بيده التي كان قد لفّ عليها السلسلة الحديدية مما أدّى الى تشظي عظام يده . أخذته هي بسيارتها الى المستشفى وساعدته لتحمل فترة النقاهة ، وأخيراً تعلما على ممارسة الحبّ بأفضل طريقة . قضيا الامسيات الصعبة لشهر يوليو (حزيران) في الشرفة الداخلية للبيت الذي كانت قد ماتت فيه ستّة أجيال من أعيان عائلة « نينا داكونتي » ، بينما كانت هي تعزف أغاني «الموضة» على السكسفون ، وهو بيده المجبّرة يتأملها من أرجوحة النوم بذهول متواصل . كانت في البيت نوافذ عديدة بحجم الجدران ، تطلّ على البحيرة المتعفّنة للخليج ، وكان واحداً من أكبر البيوت وأقدمها في حيّ « لامانغا » وأشدها قبحاً بدون شكّ . غير انّ الشرفة ذات البلاطات الشطرنجيّة حيث كانت « لينا داكونتي » تعزف على السكسفون ، كانت تمتاز بالاعتدال وسط حرارة الساعة الرابعة ، وكانت تطلّ على فناء مظلّل به أشجار المانجو والموز والتي كان تحتها قبر عليه لوحة من دون اسم ، كان أقدم من البيت ومن ذكرى العائلة . وحتى الذين لم يكونوا يفهمون الا قليلاً في الموسيقى ، كانوا يظنّون بأنّ صوت

السكسفون لا يناسب منزلاً على هذا القدر من أصالة المحتدّ . « له صوت باخرة » هذا ما قالته جدّة « نينا داكونتي » عندما سمعته لأوّل مرّة ، وكانت أمّها قد حاولت معها لتعزف بطريقة أخرى مختلفة عما اعتادت عليه لشعورها براحة أكبر ، حيث كانت ترفع تنّورتها حتى عضلتي الساقين وتبعد ما بين ركبتيها وبنوع من الشهوانية التي لم تكن تراها الأم ضرورية للموسيقى. « لا تهمّني الآلة الموسيقية التي تعزفين » ، كانت تقول لها أمّها « المهمّ أن تطبقي ساقيك عند العزف » . غير أن أجواء الوداع في البواخر وتجسّد الحبّ هما اللذان سمحا لـ « نينا داكوانتي » في تحطيم قشرة « بيلي سانجث » المرّة . وتحت ذلك العيب الحزين بكونه حقيناً والذي بدا وكأنّه أمر ثابت لديه بسبب تأثير اللقبين العائليين ، فانّها اكتشفت يتيماً خائفاً وحزيناً ، تعرّفا على بعضها بعمق بينما كانت عظام يده تلتحم بحيث دهش هو نفسه لذلك بسبب سلاسة وطبيعية هذا الحبّ، وخاصّة عندما قادته هي الى سريرها الفتيّ في احدى الامسيات الممطرة عندما كانا وحيدين في البيت . وفي كلّ الأيام وفي نفس الساعة خلال ما يقرب من اسبوعين ، تعانقا عاريين تحت النظرات الحائرة لصور محاربين مدنيين وجدّات شرهات من الذين سبقوهم في جنّة ذلك السّرير التاريخي . وحتى في فترات الاستراحة التي كانت تتخلّل أوقات ممارسة الحبّ ، كانا يبقيان عاريين والنوافذ مفتوحة ، يتنفّسان نسائم حطام بواخر الخليج ورائحته التي هي أشبه برائحة الغائط ، يستمعان في صمت السكسفون الى الضجّة اليومية للفناء والنغمة الوحيدة لضفدع الأعشاب تحت أشجار الموز وقطرة الماء في القبر المجهول والخطوات الطبيعية للحياة التي لم يجدوا لها من قبل وقتاً للتعرّف عليها .

وعندما عاد والدا « نينا داكونتي » الى البيت ، كان قد طرأ على الشابين تقدّم كبير في الحبّ بحيث ملأ عليهما كل حياتهما ، وكانا يمارسانه في كل وقت وفي أيّ مكان ، محاولين اختراعه من جديد في كل مرّة كانا يفعلانه . فعلاه في البداية على أحسن ما استطاعا في العربات الرياضية التي كان والد «بيلّي سانجث» يحاول التكفير بها عن عقد ذنبه الخاصّة ، وبعدها حينما شعر بأنّ ممارسته في العربات هي في غاية السهولة ، أخذا يدخلان الى الغرف الفارغة في « مريّا » حيث جمعهما القدر لأوّل مرّة . كما أنهما دخلا متنكرين خلال حفلات الكرنفال في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) في الغرف المستأجرة في حيّ العبيد القديم بـ « خثيماني » بحماية الأمهات – القدّيسات اللاتي كنّ قبل ذلك بشهور قليلة يعانين من زمرة « بيلّي سانجث » المسلحة بالسلاسل .

استسلمت « نينا داكونتي » الى ذلك الحبّ الطارئ بنفس الاندفاع المجنون الذي كانت قد صرفته من قبل نحو السكسفون الى الحد الذي جعلت صعلوكها الأليف يفهم ما كانت تريد أن تقوله له بأنّ عليه أن يتصرّف معها كعبد . استجاب « بيلّي سانجث » لها دائماً وبشكل جيّد وبنفس الغبطة . وبعد زواجهما أدّيا واجبهما نحو الحبّ ، بينما كانت المضيفات نائمات في منتصف الطريق فوق المحيط الأطلسي عندما أغلقا على نفسيهما باب دورة مياه الطائرة بصعوبة كبيرة وماتا من الضحك وليس من اللّذة . وكانا هما الوحيدين اللذين عرفا بعد حفلة الزواج بيوم واحد ، بأنّ « نينا داكونتي » كانت حبلى منذ شهرين .

وهكذا فانهما عندما وصلا الى مدريد ، كانا يشعران بأنهما أبعد ما يكونان عن أن يكونا عاشقين مرتويين ، وكان عندهما احتياطي كبير ليجعلهما يسلكان وكأنهما حديثا الزواج تماماً . كان والدا الاثنين قد توقعا كل ذلك . وقبل النزول من الطائرة ، صعد أحد موظفي التشريفات الى مقصورة الدرجة الأولى ليسلّم « نينا داكونتي » معطف السمّور الأبيض ذا الحواشي السوداء اللامعة والذي كان هديّة والديها للعرس . وسلّموا « بيلّي سانجث » سترة من جلد الخروف ، وكانت آنذاك من مستجدّات ذلك الشتاء ، ومفاتيح لا تفصح عن نوع السيارة المفاجأة التي كانت تنتظره في المطار .

استقبلته البعثة الدبلوماسيّة لبلده في القاعة الرّسمية . ولم يكن السفير وزوجته صديقين دائمين لعائلة الاثنين فحسب ، بل كان هو الطبيب الذي حضر ولادة « نينا داكونتي » ، لذا فانّه انتظرها وهو يحمل لها باقة من الورود النضرة والطازجة ، وحتى قطرات الندى العالقة بها كانت تبدو اصطناعية . حيّت الاثنين بقبلات ساخرة لعدم ارتياحها من ظرفها ذاك لزواجها المبكر ، ثم استلمت الورد ، عند الامساك بها وخزتها شوكة كانت في غصن احدى الاوراد ، غير انها تفادت الحادث باسلوب لبق قائلة :

– فعلت ذلك عن قصد لكي تنتبهوا الى خاتمي .

وفعلاً فقد أعجبت البعثة الدبلوماسية كلها بالخاتم الذي قد يعادل ثمنه ثروة ، ليس لنوعية الماسات ، بل لقدمها وحسن صيانتها . ولكن

أحداً لم ينبهها الى أنّ اصبعها بدأ ينزف وتوجه انتباه الجميع نحو السيارة الجديدة . ولطيب مزاج السفير فانّه كان قد أخذ السيارة الى المطار وغلّفها بورق السيلوفان ووضع فوقها شريط مذهّب كبير . لم يقدّر « بيلّي سانجث » ألمعيته وكان في غاية الشوق لمعرفة نوع السيارة مما دفعه الى تمزيق الورق في جرّة واحدة وعندها انقبضت أنفاسه . كانت « بنتلي » ذات غطاء منطو لنفس العام، وكانت مفروشة من الداخل بجلد أصيل . كانت السماء تبدو وكأنّها غطاء رمادي ، وكانت سلسلة جبال، غوادارامار تبعث ريحاً قاطعة وجامدة، ولم يكن البقاء في العراء مريحاً ، ولكن « بيلّي سانجث » لم يكن يشعر بعد بالبرد واضطرّ البعثة الدبلوماسية على البقاء في ذلك المكان المكشوف دون أن يعي بأنهم كانوا يتجمدون من البرد بسبب المجاملة ، حتى تعرّف على أكثر تفاصيل السيارة خفاء . وبعدها جلس السفير الى جانبه لكي يدلّه على الاقامة الرسمية التي كان من المقرّر تناول طعام الغداء فيها ، وفي الطريق أخذ يشير الى معالم المدينة البارزة ، غير انّ « بيلّي » كان يبدو مشغولاً بسحر السيّارة .

كانت تلك هي المرّة الاولى التي خرج فيها من بلاده ، وكان قد مرّ بجميع المدارس الأهلية والرسميّة ، مكرّراً بشكل دائم المستوى نفسه حتى أصابه ملل كبير وشعور بالضياع . انّ النظرة الاولى الى مدينة مختلفة عن مدينته والعمارات ذات البيوت الرمادية المشتعلة الأنوار في عزّ النهار والاشجار العارية بعيداً عن البحر . كلّ ذلك زاد من شعوره بالانقطاع والوحدة غير أنّه كان يجهد نفسه لعزل ذلك الشعور على هامش قلبه ، غير أنّه سقط بعد ذلك بقليل في الفخّ الأول للنسيان ، إذ

هبّت عاصفة مفاجئة وصاخبة ، وكانت الاولى في ذلك الفصل . وعند خروجهما بعد الغداء من بيت السفير ليبدء رحلتها نحو فرنسا ،وجدا المدينة مغطاة بطبقة من الثلوج المتألقة ، فنسي «بيلّي سانجث» في تلك اللحظة سيارته ، وفي حضور الجميع ، أخذ يطلق صرخات فرح ويرمي حفنات من الثلج على رأسه وتمرّغ في وسط الطريق ، مرتدياً كامل لباسه بما في ذلك معطفه .

انتبهت « نينا داكونتي » لأول مرّة بان اصبعها كان ينزف عندما خرجا من « مدريد » في ذلك المساء الذي عاد شفافاً وصافياً بعد العاصفة. وقد استغربت ذلك لأنها كانت قد عزفت آلة السكسفون لصاحبة زوجة السفير التي كانت تهوى الأغاني الاوبرالية بالايطالية والتي غنّت بعد الغداء الرسمي ، ولم تشعر « نينا » حينها بأي إزعاج في بنصرها . بعدها، وبينما كانت تدلّ زوجها على أقصر الطرق نحو الحدود ، كانت تمصّ اصبعها بطريقة لاشعورية كلّما كان ينزف ، ولم تتذكرّ أمر البحث عن صيدلية الا بعد وصولها الى جبال « لوس بيرينيوس » . وبعدها استسلمت لنعاسها المتراكم من الأيام الأخيرة ، وعندما صحت من نومها على أثر كابوس تصوّرت فيه بأنّ السيارة كانت تمشي وسط المياه ، لم تتذكر لوقت طويل المنديل المربوط في اصبعها . رأت في الساعة المشعّة للوحة القيادة بأنّ الوقت قد تجاوز الثالثة فعملت حساباتها الذهنية وأدركت بأنهما قد تركا « بوردو » خلفها وكذا « أنغواليما » و « بواتيرس » ، وانهما كانا يمرّان الى جانب سدّ « لويرة » الغارقة بسبب السيول . كان نور القمر ينفذ من خلال الضباب ، وكانت أشباح القصور بين أشجار الصنوبر

تبدو وكأنّها من صنع الخيال . حسبت « نينا داكونتي » التي كانت تعرف تلك المنطقة من الذاكرة ، بأنهما كانا على بعد ثلاث ساعات من باريس تقريباً ، وكان « بيلّي سانجث » ما يزال رابط الجأش أمام مقود السيارة .

– انّك وحش ، قالت له . – مازلت تسوق منذ احدى عشرة ساعة دون أن تأكل شيئاً .

وكان هو ما يزال يحلّق ثملاً بفعل السيارة الجديدة . وعلى الرغم من أنّه نام في الطائرة قليلاً وبشكل غير مريح ، فإنه كان يشعر بالصحو وبامتلاك طاقات للوصول الى « باريس » عند الفجر .

– مازلت مكتفياً بغداء السفارة ، قال لها ثم أضاف كلماته الخالية من المنطق : على كلّ حال ، ان الناس في « كارتخينا » يخرجون الآن من السينما، ولابدّ ان تكون الساعة هناك في حدود العاشرة .

ومع ذلك ، فإنّ « نينا داكونتي » كانت تخاف من أن ينام وهو يقود السيّارة . فتحت واحدة من علب الهدايا الكثيرة التي قدّمت لهما في « مدريد» وحاولت أن تطعمه قطعة من البرتقال المغطّى بالسكّر ، غير انّه امتنع عن تناولها وقال :

– إنّ الفحول لا يأكلون الحلويات .

وقبل الوصول الى « اورلينانس » بقليل ، اختفى الضباب وأنار قمر كبير المزروعات المغطّاة بالثلوج ، غير أنّ المرور صار أشد صعوبة لكثرة

الشاحنات الضخمة التي كانت تنقل البقول والخضار وكذا حاويات النبيذ التي كانت متّجهة الى « باريس » . وكانت « نينا داكونتي » ترغب في مساعدة زوجها في السياقة ، الاّ أنّها لم توح اليه بذلك لأنّه كان قد حذّرها منذ المرّة الاولى لخروجهما معاً الى أنّه ليس هناك ذلّ أكبر للرجل من أن يتركه امرأة تقوده . وكانت هي تشعر بالصحو بعد ما يقارب خمس ساعات من النوم الهنيء وبالسّرور لعدم توقفهما في أحد فنادق الأقاليم الفرنسية التي كانت تعرفها جيداً منذ صغرها في السفرات الكثيرة التي قامت بها مع أبويها . « ليست هناك مناظر في العالم أجمل منها » قالت ، « ولكن الانسان يمكن أن يموت من العطش دون العثور على أحد يعطيه كأس ماء بالمجّان » . وكانت متأكدة تماماً من أنها قد وضعت في اللحظة الأخيرة في حقيبة يدها قطعة من الصابون ولفّة من ورق التواليت ، لأنّها كانت تعرف بأنّ الفنادق الفرنسية لم تكن توفّر الصابون في حماماتها ، وان الورق الموجود في مراحيضها هو عادة ورق الصّحف للاسبوع السابق ، مقطعاً على شكل مربّعات ومعلّقاً في كلاّب . وانّ الشيء الوحيد الذي كانت تأسف له في تلك اللحظة ، هو ضياع تلك الليلة كاملة دون ممارسة الحبّ . كان جواب زوجها مباشراً :

– كنت أفكر الآن بأنّ للمضاجعة على الثلج لابدّ أن تكون في غاية المتعة ، قال لها ثم أضاف : في هذا المكان لو أردت .

فكّرت « نينا داكونتي » في ذلك بجدية . كانت الثلج يبدو الى جانب الطريق وتحت ضوء القمر منفوشاً ودافئاً . وكانت حركة السّير تزداد ازدحاماً كلّما ازدادا اقتراباً من ضواحي « باريس » ، وكانا يشاهدان

مراكز شركات ومعامل متيرة والعديد من العمال على الدراجات الهوائية . ولو لم يكن الفصل شتاء ، لكانوا في عزّ النّهار .

– من الأفضل أن ننتظر حتى « باريس » ، قالت نينا داكونتي » .

– متدفّين وفي سرير بشراشف نظيفة مثل الناس المتزوجين .

– انّها المّرة الاولى التي لا تستجيبين فيها اليّ . قال لها .

– طبعاً ، قالت هي ، انّها المّرة الاولى ونحن متزوجان .

وقبل أن تبين خيوط الصباح الاولى بقليل ، غسلا وجهيهما وتبوّلا في مقهى على الطريق ، وشربا القهوة مع فطيرة ساخنة على طاولة المقهى حيث كان سائقوا الشاحنات يتناولون فطورهم مع النبيذ الأحمر . انتبهت « نينا داكونتي » في الحمّام الى بقع الدّم التي كانت تلطّخ بلوزها وتنّورتها ولكنّها لم تحاول غسلها . رمت في القمامة المنديل المشرّب بالدم وحوّلت خاتم الزواج الى اليد اليسرى وغسلت اصبعها الجريح جيّداً بالماء والصابون . كانت الوخزة لا تكاد ترى ، غير أنّه بمجرّد عودتهما الى السّيارة عاد ينزف من جديد ، فأخرجت «نينا داكونتي » ذراعها من نافذة السيارة لاقتناعها بأنّ الرّيح الجامدة التي تهبّ من الحقول فيها فضائل علاجيّة ، غير انّها كانت وسيلة فاشلة أخرى، ومع ذلك فانّها لم تصب بالقلق ، « إذا اراد احد أن يعثر علينا ، فسيكون ذلك سهلاً عليه » ، قالت ذلك بفتنتها الطبيعية . « ليس عليه سوى أن يتبع آثار دمي على الثلج » . وبعدها فكّرت جيداً فيما قالته وأشرق محيّاها مع الاشراقة الاولى للنهار وقالت :.

– تصوّر ، آثار دم على الثلج من « مدريد » حتى « باريس » ، ألا يبدو لك ذلك جميلاً لأغنية ؟

لم يسعفها الوقت للعودة الى التفكير ، ففي ضواحي « باريس » كان اصبعها مثل نافورة لاتكبح وشعرت هي حقاً بأنّ روحها تكاد تخرج من ذلك الجرح . لقد حاولت وقف النزف بواسطة لفّة ورق التواليت التي كانت تحملها في حقيبتها ، غير أنّها كانت تتأخر في لفّ اصبعها بقطع الورق اكثر مما كانت تصرفه من وقت لرمي بقايا الورق الملطخ بالدم من نافذة السيّارة . وأخذت ملابسها تتلطخ بالدم شيئاً فشيئاً: المعطف وكذا مقاعد السيارة وبشكل يصعب تنظيفه . خاف « بيلّي سانجث » بجدّ وألحّ على ضرورة البحث عن صيدلية ، غير آنها كانت تعلم بأنّ الأمر لم يكن بالامكان حلّه في صيدلية .

– نحن على أبواب « اورلياتس » تقريباً ، قالت له . – استمرّ نحو الأمام من خلال شارع « الجنرال لكليرك » ، وهو من أوسع الشوارع وبه الكثير من الأشجار ، وبعدها سأقول لك ما ينبغي أن تفعله .

كان ذلك الجزء من أشدّ أجزاء الطريق صعوبة لأنّ شارع « الجنرال لكليرك » كان قد تحوّل الى عقدة جهنميّة أذ تراكمت فيه السيارات الصغيرة والدراجات النارية وازدحمت في كلا الاتجاهين ، وكذا الشاحنات الضخمة التي كانت تحاول الوصول الى الأسواق المركزية . أصيب « بيلّي سانجث » بتوتر شديد بسبب أبواق السيارات العديمة الجدوى مما دفعه الى أن يتبادل الشتائم صارخاً بلغة الشوارع مع العديد من

السائقين الى درجة أنّه حاول النزول من السيّارة للتشاجر مع أحدهم ، غير أنّ « نينا داكونتي » استطاعت أن تقنعه بأنّ الفرنسيين هم من أكثر الناس صلافة وجلفاً في العالم ، ولكنهم لا يتشاجرون بالايدي مطلقاً . وكان هذا دليلاً على تعقّلها ، لأنّها كانت في تلك اللحظات تحاول جاهدة ألاّ تفقد وعيها .

ولأجل الخروج من ساحة « ليون دي بلفورت » إحتاجا أكثر من ساعة. كانت المقاهي والدكاكين مضاءة ، كما لو كانوا في منتصف الليل وكان ذلك اليوم يوم ثلاثاء تقليدي من شهر يناير (كانون الثاني) في باريس ، وكانت تلك الحلات مغطاة ووسخة وكان الرذاذ عنيداً ومتواصلاً ، غير أنّه لم يكن يبلغ درجة الانجماد . كان شارع « دنفيرت – روشيرو » أقلّ ازدحاماً ، وبعد تجاوز بعض الشوارع الفرعيّة ، أشارت « نينا داكونتي » على زوجها بأنّ عليه أن ينحرف نحو اليمين ثم توقّف أمام مدخل مستشفى للطوارئ ضخم ومكفهرّ .

احتاجت « نينا » الى مساعدة للخروج من السيارة ، غير أنّها لم تفقد اتّزانها وصحوها .

وقبل وصول الطبيب المناوب ، وبينما كانت منطرحة على النقّالة ذات العجلات ، أجابت على الأسئلة الروتينية للممرضة حول هويّتها وسوابقها الصحيّة . حمل لها « بيلي سانجث » حقيبتها اليدويّة وأمسك يدها اليسرى حيث كان خاتم الزواج وشعر بأنّ يدها كانت خاملة وباردة وبأنّ شفتيها قد فقدتا لونيهما . بقي الى جانبها ويده في يدها

حتى وصل الطبيب المناوب الذي فحص اصبعها على عجل . كان شاباً وكانت بشرته بلون النحاس القديم ورأسه حليقاً . لم يُعر الطبيب انتباه « نينا داكونتي » وتوجهت نحو زوجها بابتسامة حزينة .

– لا تخف ، قالت له بمزاحها الطبيعي الذي لا يتغيّر . – انّ الشيء الوحيد الممكن حدوثه هو أن يقطع آكل اللحوم البشرية هذا يدي ليأكلها .

أنهى الطبيب فحصه وحينذاك فاجأهما بلغته الاسبانية السليمة وإن كان بنبرة آسيوية غريبة قائلاً :

– لا أيّها الشاب . إنّ آكل اللحوم البشرية هذا يفضّل الموت جوعاً على قطع يد بهذا الجمال .

أصابهما الانبهار غير أنّ الطبيب هدّأهما بإشارة منه لطيفة . وبعدها أمر بأن توجه النقّالة وأراد « بيلي سانجث » أن يتبعها ممسكاً يد زوجته ، إلاّ انّ الطبيب أمسك بذراعه وقال له :

– حضرتك لا ، سيأخذونها الى قسم الاعتناء المركز .

ابتسمت « نينا داكونتي » لزوجها من جديد واستمرّت تودّعه بيدها حتى غابت النقّالة في نهاية الممر . تأخرّ الطبيب للاطلاع على المعلومات التي سجّلتها الممرضة في احدى اللوحات ، فناداه « بيلي سانجث » قائلاً :

– دكتور ، انّ زوجتي حامل .

– منذ متى ؟

– منذ شهرين .

لم يمنح الطبيب الأمر الاهتمام الذي كان ينتظره « بيلّي سانجث » . « حسناً فعلت لابلاغي بذلك » ، قال له ثم ذهب وراء النقّالة . بقي ، بيلّي سانجث، واقفاً في الصّالة الحزينة التي تنبعث منها رائحة عرق المرضى ، دون أن يعرف ما الذي عليه إن يفعله ، ناظراً الى الممرّ الخاوي الذي أدخلوا « نينا داكونتي » منه ، وبعدها جلس على المقعد الخشبي حيث كان ينتظر آخرون . لم يعرف كم من الوقت قضى هناك ، غير أنّه عندما قرّر الخروج من المستشفى، كان الليل قد حلّ من جديد وكان المطر مستمرّاً ولم يكن يدري كيف عليه أن يتصرّف ، مهموماً بثقل العالم .

دخلت « نينا داكونتي » الى المستشفى يوم الثلاثاء على الساعة التاسعة والنصف صباحاً والموافق لليوم السابع من يناير (كانون الثاني) ، هذا ما تحقّق منه بعد سنوات من ذلك في أرشيف المستشفى . وفي تلك الليلة نام « بيلّي سانجث » في السّيارة الواقفة أمام مستشفى الطوارئ ، وفي ساعة مبكّرة من صباح اليوم التالي تناول ستّ بيضات مسلوقة وفنجانين من القهوة مع الحليب في أقرب مقهى عثر عليه ، لأنّه لم يكن قد أكمل وجبة كاملة منذ « مدريد » . وبعدها عاد الى قاعة الطوارئ لرؤية «نينا داكونتي » ، الاّ أنّهم أفهموه بأنّ عليه أن يتّجه الى الباب الرئيسي . وهناك عثروا أخيراً على رجل من «أستورياس» الاسبانيّة من الذين يعملون في خدمات المستشفى والذي ساعده على التفاهم مع البّواب الذي

استطاع أن يتأكد بالفعل من انّ اسم « نينا داكونتي » كان مسجلاً ضمن قائمة نزلاء المستشفى ، الاّ أنّه أبلغه بانّ الزيارات مسموحة أيام الثلاثاء فقط ، من التاسعة وحتى الرابعة ، أي بعد ستة أيام من ذلك . حاول أن يرى الطبيب الذي يتكلّم الاسبانية ، والذي وصفه للآخرين بقوله : إنّه أسود حليق الرأس . غير أنّه لم يحصل على أيّ جواب شاف من خلال هاتين الميزتين البسيطتين .

وبعد أن هدّأه خبر وجود اسم « نينا داكونتي » في قائمة النزلاء ، عاد الى المكان الذي ترك فيه السّيارة فأجبره أحد مراقبي المرور على التوقّف على بعد شارعين نحو الأمام ، في زقاق شديد الضيق وعند الرصيف المحاذي للأرقام الفردية ، وفي الجهة المقابلة كان هناك بناء قد تمّ اصلاحه وعليه لوحة « فندق نيكولي » . كان ذا نجمة واحدة وبه صالة استقبال صغيرة جداً لم يكن فيها سوى كنبة واحدة وبيانو عمودي قديم . غير أنّ صاحبه ذا الصّوت النديّ ، كان يستطيع التفاهم مع الزبائن بأيّة لغة كانت بشرط أن يكونوا قادرين على الدّفع ، نزل « بيلّي سانجث » مع حقائبه الاحدى عشرة وعلب الهدايا التّسع في الغرفة الفارغة الوحيدة التي كانت عليّة معلّقة في الطابق التاسع ، وكان الصعود اليها من سلّم حلزوني شاقّ والذي كانت تنبعث منه رائحة رغوة قرنبيط مغليّ. وكانت جدرانها مغطاة بورق كئيب ، ولم تكن تدخل من نافذتها الوحيدة سوى الضوء العكر للفناء الداخلي . كان بها سرير لشخصين ودولاب كبير وكرسي بسيط وحوض للاستحاء متنقّل وابريق لغسل الأيدي مع وعائه. وانّ الحالة الوحيدة الممكنة للبقاء في الغرفة هو أن يكون الشخص منطرحاً

في الفراش . وكل ما كان هنالك كان قديماً وتعيساً ، غير انه كان نظيفاً جداً وذا مظهر صحّي معقّم حديثاً .

لم تضطرّ الحياة « بيلي سانجث » على فكّ الغاز هذا العالم المبنيّ على موهبة التقتير ، ولم يفهم مطلقاً سرّ ضوء السلّم الذي كان ينطفئ قبل وصوله الى طابقه ، ولم يكتشف طريقة اشعاله من جديد . واحتاج الى قضاء نصف ساعات الصباح ليتعلّم استعمال المراحيض الموجودة في فسحة السلّم بكلّ طابق والتي كانت مزوّدة بخزان ماء وسلسلة . وقد قرّر استعمالها في العتمة حتى اكتشف بالصدفة بأنّ ضوءها يشتعل عند اغلاق قفلها من الدّاخل لئلاّ ينسى أحد اطفاءها بعد الخروج منها . أمّا الحمام الذي كان في آخر الممّر والذي كان يصرّ على استعماله مرتين في اليوم كما اعتاد في بيته ، فانّه كان يدفع على حدة ومقدماً ، وان الماء الساخن كانوا يتحكمون به من الادارة وكان ينتهي بعد ثلاث دقائق من بدء الغسل . ومع ذلك فانّ « بيلي سانجث » كان يتمتع بما يكفي من رصانة العقل ليدرك بأنّ ذلك النظام المختلف عن نظامه هو على كلّ حال أفضل من البقاء في العراء في شهر يناير (كانون الثاني) ، ثم انّه كان يشعر بارتباك ووحدة شديدين بحيث لم يفهم كيف انّه استطاع في بعض الأحيان أن يعيش بدون حماية « نينا داكونتي » .

وبعد صعوده الى الغرفة صباح يوم الأربعاء ، انطرح في الفراش على وجهه دون أن يخلع معطفه ، مفكراً في ذلك الكائن العجيب الذي مازال ينزف في الطرف الآخر للشارع ثم استسلم بسرعة للنوم وبشكل طبيعي ، بحيث انه عندما استيقظ كانت الساعة تشير الى الخامسة ، الا

انه لم يستطع التحقق ممّا اذا كانت الخامسة مساء أم فجراً ، ولم يعرف في أي يوم من أيام الاسبوع كان ولا في أيّة مدينة زجاجية معاقبة بالرياح والمطر . انتظر في الفراش وهو يفكّر دائماً بـ « نينا داكونتي » ، حتى تأكدّ من أنّ الوقت كان صباحاً . وحينها خرج لتناول فطوره في نفس مقهى اليوم السابق وهناك عرف بأن ذلك اليوم كان يوم خميس . كانت أنوار المستشفى مشتعلة وكان المطر قد توقّف ، وهكذا فانه بقي مستنداً على جذع شجرة كستناء في مواجهة المدخل الرئيسي من حيث كان يدخل الأطباء والممّرضات ذوو الصدريات البيضاء ، على أمل العثور على الطبيب الأسيوي الذي استقبل « نينا داكونتي» . لم يعثر له على أثر ولا في المساء بعد تناول الغداء لذا فانّه تخلّى عن الانتظار لأنّه شعر ببرد شديد . تناول فنجان قهوة مع الحليب آخر على الساعة السابعة واكل بيضتين مسلوقتين أخذهما بنفسه من خزانة المقهى ، وهكذا فانه بقي يأكل نفس الأشياء لمدة ثمان وأربعين ساعة وفي نفس المكان ، وعند عودته الى الفندق للنوم ، وجد بأنّ سيارته كانت وحيدة عند ذلك الرصيف حيث تركها وانّ جميع السيارات الأخرى كانت عند الرصيف المقابل ، ووجد تحت ماسحة الزجاج اعلاماً بالغرامة . شرح له بوّاب الفندق « نيكولي » بصعوبة بالغة أنّ بامكانه أن يضع سيارته في الأيام الفرديّة من الشهر عند الرصيف المحاذي للأرقام الفرديّة ، وفي الأيام الزوجيّة عند الأرقام الزوجية وكان هذا الكمّ من المناورات المعقولة بالنسبة الى « سانجث دي أبيلا » الخالص ، شيئاً غير مفهوم ، هذا الذي دخل قبل ذلك بسنتين فقط الى سينما الهواء الطلق بأحد الأحياء بسيارة حكومية للعمدة مسبّباً موت بعض الأشخاص أمام الشرطة الهادئة . وتشوّش عقله اكثر عندما نصحه

بواب الفندق بأن يدفع الغرامة دون أن يغيّر مكان السيارة في تلك الساعة، لأنه سيكون عليه تغييرها من جديد على الساعة الثانية عشرة . وفي فجر ذلك اليوم ، وللمرّة الاولى ، لم يفكّر بـ « نينا داكونتي » فحسب ، بل فكّر في لياليه هو تلك الليالي الكئيبة في حانات الشاذين جنسياً في السّوق العمومي بـ « كرتخينا » بـ « الكارايبي » . كان يتذكّر طعم السّمك المقليّ ورزّ جوز الهند في مطاعم الميناء حيث كانت ترسو سفن جزيرة « أوروبا » الكاريبية . تذكّر بيته بجدرانه المغطاة بورق ورود البنفسج ، حيث تشير الساعة هناك الى السابعة من مساء اليوم السابق ، ورأى أباه بيجامته الحريرية وهو يقرأ الصحيفة في هواء الشرفة العليل .

تذكّر أمّه التي لم يكن يعلم أين تكون في أيّة ساعة من ساعات اليوم ، تلك الأيام المشهيّة طويلة اللسان ، بفستان يوم الأحد والوردة في أذنها منذ أول المساء وهي تكاد تختنق من الحرارة للاكثار من لبس الأثواب الممتازة . وفي احدى الأماسي عندما كان عمره سبع سنوات ، دخل فجأة الى غرفتها فوجدها عارية في السّرير مع أحد عشّقها الطارئين . تلك الحادثة التي لم يتكلّما عنها أبداً خلقت بينهما علاقة مشاركة في الجريمة وكانت أفضل من علاقة الحبّ والحنان . ومع ذلك فانه لم يكن واعياً تمام الوعي بكل ذلك ، ولا بأشياء كثيرة أخرى رهيبة بسبب وحدته كابن وحيد ، حتى تلك الليلة التي وجد نفسه فيها يتقلّب في السّرير في عليّة كئيبة « باريس » ، من غير أن يعثر على أحد ليبث شكواه، يشعر بغضب شرس ضدّ نفسه لأنّه لم يكن يستطيع مقاومة الرغبة في البكاء .

كان سهراً مفيداً ، وقد نهض يوم الجمعة متزعجاً بسبب الليلة السيئة التي أمضاها ، ولكنّه كان عازماً على تغيير واقع تلك الحياة . فقرّر كسر قفل أحدى الحقائب ليغيّر ملابسه ، وذلك لأنّ مفاتيحها جميعاً كانت في الحقيبة اليدوية لـ « نينا داكونتي » مع الجزء الأكبر من النقود وكذا دفتر التلفون الذي كان بامكانه ربّما العثور على رقم تلفون أحد المعارف في « باريس » . واتجه الى المقهى الذي اعتاد على الذهاب اليه الى انه تعلّم أن يحيي باللغة الفرنسية وأن يطلب شطائر مع لحم الخنزير والقهوة مع الحليب ، وكان يعلم أيضاً بأنه لن يستطيع طلب الزّبدة أو البيض بأي حال من الأحوال ، لأنّه لن يتعلّم اسماءهما، غير أنه الزّبدة كانت تقدّم مع الخبز ، وانّ البيض المسلوق كان يوجد في خزانة بالمقهى وكان يؤخذ من مكانه ولا يطلب . وبالاضافة الى ذلك ، فانّ عمال المقهى بعد ثلاثة أيام ، كانوا قد ألفوه وكانوا يساعدونه للتعبير عمّا يريد . وهكذا فانّه يوم الجمعة في ساعة الغداء ، وبينما كان يحاول تنظيم أفكاره، طلب شريحة من لحم البقر مع البطاطس المقليّة وقنينة من النبيذ . عند ذلك شعر بارتياح كبير وطلب قنينة أخرى شرب منها حتى النّصف وقطع الشارع وهو عازم على الدخول الى المستشفى عنوة . لم يكن يعرف أين يمكنه العثور على «نينا داكونتي » ، غير انّ صورة الطبيب الآسيوي الذي ظهر لليوم الأول بتدبير إلهي ، كانت ثابتة في ذهنه وكان متأكداً من أنه سيعثر عليه . لم يدخل من الباب الرئيسي ، بل من باب الطوارئ الذي بدا له مراقبا أقلّ من الآخر ، غير أنه لم يستطع الولوج الى مسافة اكثر من المكان الذي ودّعته فيه « نينا داكونتي » بيدها . توجه له حارس يلبس صدريّة ملطّخة بالدم ببعض الكلمات عند مروره ، الآ انه لم يهتّم به .

تبعه الحارس وهو يكرّر نفس السؤال باللغة الفرنسية ، وأخيراً أمسك به من ذراعه بقوّة هائلة جعلته يتوقّف في مكانه . حاول « بيلّي سانجث » أن يسحب ذراعه على طريقة المشهورين فصبّ عليه الحارس أقسى اللعنات ولوى ذراعه الى ظهره بحركة مصارع نشيط ، دون أن ينقطع عن السبّ وسحبه وهو معلّق تقريباً الى الباب وهو يصرخ من شدّة الألم ورمى به مثل كيس بطاطس في وسط الطريق .

وفي ذلك المساء ، بدأ « بيلّي سانجث » المتألم من تلك العبرة ، يصير اكثر بلوغاً ونضوجاً . قرّر اللجوء الى سفير بلده ، ولو كانت « نينا داكونتي » بدلاً منه لفعلت نفس هذا الشيء . كان بوّاب الفندق على الرغم من مظهره الفظّ خدوماً جداً وشديد الصبر مع اللّغات ، وعثر على رقم الهاتف وعنوان السفارة في دليل التلفونات وكتبهما له في ورقة . ردّت عليه امرأة لطيفة عرف « بيلّي سانجث » من خلال صوتها المتقطّع والعادي نبرتها الخاصة بأهالي «لوس أنديس» . بدأ كلامه معها متلفظاً اسمه الكامل ، متأكداً من أنّه سوف يجعلها تهتّم عند سماعها لقبيه العائليين ، الاّ انّ صوتها لم يتغيّر من خلال الهاتف . وسمعها تقول من الذاكرة المحاضرة التي تعلن فيها عن عدم وجود السفير في تلك الساعة في مكتبه وانّه لن يحضر حتى اليوم التالي ، وانّه على كلّ حال لن يستقبل أحداً الاّ بموعد سابق ولحالات الضرورة . فهم « بيلي سانجث » حينذاك بأنّ ذلك الطريق لن يوصله هو الآخر الى « نينا داكونتي » فشكرها على المعلومات بنفس اللطافة التي عاملته بها ، وأخذ بعدها سيارة أجرة وذهب الى السفارة .

كانت في الرقم ٢٢ بشارع « إليسو » في أحد أكثر أحياء باريس هدوءاً ، غير أنّ الشيء الوحيد الذي أثار مشاعر « بيلّي سانجث » حسبما رواه هو لي بعد سنوات من ذلك في « كارتخينادي انديياس » ، هو أنّ شمس ذلك اليوم كانت في غاية الاشراق مثل « الكاريبي » لأوّل مرّة منذ وصوله ، وان «برج ايفل» كان يرتفع فوق المدينة تحت شمس برّاقة . كان الموظف الذي استقبله بدلاً من السفير يبدو وكأنّه قد نجا من مرض مميت ، ليس لبدلته المصنوعة من الكتّان الأسود ولرقبته المضغوطة وربطة الحداد فحسب ، بل لهدوء اشاراته ولرقّة صوته . فهم أسباب جزع « بيلي سانجث » ولكنّه ذكّره ، دون أن يفقد حلاوة حديثه ، بأنّهما موجودان في بلد متحضّر وان أصول هذا البلد الصارمة تقوم على مفاهيم قديمة وحكيمة على العكس من « أمريكا اللاتينية » المتوحشة ، حيث يكفي تقديم رشوة الى البوّاب لدخول المستشفيات ، « لا ، يا عزيزي الشاب » ، قال له . ليس هناك أيّ حل سوى الخضوع الى امبراطورية العقل والانتظار حتى يوم الثلاثاء . وأضاف قائلاً :

– على كلّ حال لم تبق سوى أربعة أيام ، وفي انتظار ذلك يمكنك أن تزور « اللوفر » ، انّه جدير بالزيارة .

وعند الخروج وجد « بيلّي سانجث » نفسه تائهاً لا يدري ماذا يفعل في ساحة « كونكورديا » . شاهد « برج ايفل » من فوق سطوح العمارات وبدا له قريباً جداً فحاول الوصول اليه ماشياً بمحاذاة شاطئ النّهر . ولكنّه انتبه بسرعة الى انّه كان أبعد مما توقّع ، ثم انّه كان يتغيّر من موقع الى آخر كلّما ازداد بحثه عنه . وهكذا فانّه أخذ يفكّر في « نينا داكونتي » وهو

يجلس على مقعد على شاطئ نهر «سينا». شهد مرور سفن القطر من تحت الجسور، ولم تبدُ له مثل سفن، بل بدت وكأنّها بيوت شريدة ذات سقوف ملّونة ونوافذ بها أصص زهور في حافاتها وحبال علّقت عليها ملابس لتجفّ في اللوحات الجانبية. تأمّل خلال وقت طويل صياداً لا يتحرّك وصنارته الثابتة بخيطها الثابت وسط التيّار، وتعب من انتظار تحرّك شيء ما حتى بدأ يحلّ الظلام فقرّر أخذ سيارة أجرة للعودة الى الفندق. حينذاك فقط انتبه الى انّه كان يجهل اسم الفندق وعنوانه وانّه لم يكن يعرف في أيّ جزء من «باريس» يقع المستشفى. ومرتبكاً من شدّة الفزع دخل الى أوّل مقهى عثر عليه وطلب كأساً من «الكونياك» وحاول تنظيم أفكاره. وبينما كان يفكّر، رأى نفسه مكرّراً كثيراً ومن زوايا مختلفة في المرايا الكثيرة المعلقة على الجدران وشعر بالخوف والوحدة وفكّر لأوّل مرة منذ ولادته بواقع الموت. غير أنّه شعر مع الكأس الثانية بتحسّن وجاءته بتدبير ربّاني فكرة العودة الى السفارة. بحث عن الورقة في جيبه لتذكّر اسم الشارع واكتشف بأنّ اسم الفندق وعنوانه كانا مطبوعين على الوجه الآخر للبطاقة. هذه التجربة المُرّة تركت في نفسه أثراً سيئاً بحيث قرّر عدم الخروج خلال آخر الاسبوع من غرفته الاّ للأكل أو لتبديل مكان السيّارة من رصيف الى آخر حسب الأيام. سقطت خلال ثلاثة أيام بلا توقّف نفس الأمطار الوسخة التي استقبلتهم صباح يوم وصولهما. تمنّى «بيلّي سانجث» الذي لم يقرأ في حياته كتاباً كاملاً، أن يكون لديه واحد لئلاّ يملّ وهو منطرح في السّرير، غير انّ الكتب الوحيدة التي وجدها في حقائب زوجته كانت بلغات أخرى غير الاسبانية. وهكذا فإنّه استمرّ ينتظر يوم الثلاثاء متأملاً الطواويس المكرّرة في ورق

الجدران دون أن يتخلّى عن التفكير ولو للحظة واحدة في، نينا داكونتي.

وفي يوم الاثنين نظّم الغرفة قليلاً لأنّه تخيّل ما يمكن أن تقوله هي فيما إذا رأتها على تلك الحالة، واكتشف حينذاك بأنّ معطفها المصنوع من جلد السّمور كان ملطخاً بدم جافّ، فأمضى المساء في غسله بالصابون المعطّر الذي وجده في حقيبة يدوية، حتى استطاع أن يعيده من جديد الى حالته الاولى عندما صعدوا به الى الطائرة في «مدريد». كان الطقس يوم الثلاثاء عكراً وبارداً جداً ولكن بدون رذاذ ونهض «بيلّي سانجث» منذ السادسة وانتظر عند باب المستشفى مع جموع من أقارب المرضى الذين يحملون علب الهدايا وباقات الزّهور. دخل مع الأفواج وهو يحمل المعطف الجلديّ دون أن يسأل شيئاً ومن غير أن يعلم أين يمكن أن تكون نينا داكونتي، يحدوه أمل العثور على الطبيب الآسيوي. مرّ من خلال فناء داخلي كبير جداً فيه زهور وعصافير بريّة وكانت توجد على جانبيه ردهات المرضى: النساء على اليمين والرجال على اليسار. تبع الزائرين ودخل الى ردهة النّساء فوجد صفّاً طويلاً من المريضات الجالسات على الأسرّة، لابسات ثوب المستشفى الرديء، مضاءات بأنوار النوافذ الكبيرة. مما حدا به الى التفكير بأنّ كلّ ذلك هو اكثر سروراً مما يمكن للإنسان أن يفكّر فيه من الخارج. وصل حتى طرف الممر ثمّ عاد في الاتجاه المعاكس الى أن اقتنع بأنّ «نينا داكونتي» لم تكن بين هؤلاء المريضات. وبعدها مرّ من خلال الرّواق الخارجي وهو ينظر من خلال النوافذ الى ردهات الرجال الى أن ظنّ بأنّه عثر على الطبيب الذي كان يبحث عنه.

انّ هو فعلاً . كان مع أطبّاء آخرين ومع العديد من الممرضات يفحص أحد المرضى دخل « بيلّي سانجث » الردهة وأبعد احدى الممرضات من المجموعة ووقف وجهاً لوجه الى الطبيب الآسيوي الذي كان منحنياً على المريض . ناداه فرفع الطبيب عينيه الحزينتين وفكّر للحظة وتذكره :

– ولكن في أي ساعة كنت ؟ قال له .

– في الفندق ، أجابه ، هنا عند المنعطف .

علم حينذاك بأنّ « نينا داكونتي » كانت قد ماتت على الساعة السابعة وعشر دقائق من مساء يوم الخميس الموافق للتاسع من يناير (كانون الثاني) بعد سبعين ساعة من الجهود غير المجدية لأفضل الأطباء الاختصاصيين في «فرنسا» ، وكانت صاحية حتى اللحظة الأخيرة وهادئة وأعطت بعض المعلومات للبحث عن زوجها في فندق « بلازا أثينا» حيث كانت عندهما غرفة محجوزة وأعطتهم بعض التفاصيل لكي يتصلوا بأبويها . وكانت السفارة قد تمّ اعلامها يوم الجمعة ببرقيّة عاجلة أرسلها مكتب السياسة الخارجية يخبر فيها بأنّ والدي « نينا داكونتي » في طريقهما الى « باريس » . تكفّل السفير شخصياً باجراءات تحنيط الجثّة والتشييع وبقي على اتصال مع مديرية الشرطة للبحث عن « بيلي سانجث » . وأذيع نداء مستعجل منذ ليلة الجمعة وحتى مساء يوم الأحد في الراديو والتلفزيون ، وردت فيه معلومات شخصية تتعلق بـ « بيلي » ، وصار خلال الأربعين ساعة تلك اكثر انسان مبحوث عنه في كل «فرنسا» . وصارت صورته التي عثروا عليها في حقيبة « نينا داكونتي »

معروضة في كلّ مكان ، وعثروا على ثلاث سيارات من نوع « بنتلي » ذات الغطاء المنطوي ، الاّ أنه أيّاً منها لم تكن المقصودة . كان أبوا «نينا داكونتي» قد وصلا يوم السبت في وسط النهار وسهروا مع الجثّة في كنيسة المستشفى منتظرين حتى آخر لحظة على أمل العثور على « بيلّي سانجث» . وتمّ ابلاغ أبويه هو أيضاً وكانا جاهزين للسفر الى « باريس » ، غير أنهما تخليا عن ذلك بسبب فوضى البرقيات . تمّ تشييع الجنازة يوم الأحد على الساعة الثانية بعد الظهر على بعد مائتي متر من الغرفة القذرة للفندق الذي كان « بيلّي سانجث » يحتضر فيه من الوحدة وبسبب حبّ « نينا داكونتي » . وقال لي موظف السفارة الذي كان قد استقبله ، قال لي ذلك بعد سنوات طويلة ، بأنّه استلم البرقية من مكتب السياسة الخارجية بعد ساعة من خروج « بيلّي سانجث » من دائرة السفارة ، وانه قد بحث عنه في حانات « فابورغ سان هونوريه » الصامتة ، واعترف لي بأنّه لم يعره أيّة أهمية عندما استقبله لأنّه لم يتصوّر بأنّ ذلك الشاب الساحليّ المرتعب من جديد « باريس » واللابس معطفاً من جلد الخروف وبمظهر بائس ، هو من أصل سام الى هذا الحدّ وفي يوم الأحد ليلاً ، وبينما كان هو يصارع رغبته في البكاء من الغضب ، تخلّى أبوا « نينا داكونتي » عن البحث عنه وأخذا الجثة المحنّطة في تابوت معدني والذين شاهدوا ذلك يكررون ولسنوات طويلة بأنّهم لم يروا امرأة أجمل منها لا في حياتها ولا في موتها . وهكذا فان « بيلّي سانجث » عندما دخل أخيراً الى المستشفى صباح يوم الثلاثاء ، كان الجثمان قد تمّ دفنه في مقبرة « بامانغا » الكئيبة على بعد أمتار قليلة من البيت الذي اكتشفوا فيه الألغاز الاولى للسعادة. أراد الطبيب الآسيوي الذي عرّف « بيلي سانجث »

بتفاصيل المأساة أن يعطيه في ردهة المستشفى بعض الحبّات المهدّئة ، ولكنّه رفضها . غادر دون أن يودّع أو يشكر ، مفكّراً بأنّ الشيء الوحيد الذي يحتاج اليه بشكل عاجل هو العثور على أحد ما ليحطم أنفه ضربةً ولينسى مصيبته الخاصّة . وعندما خرج من المستشفى لم ينتبه الى الثلوج المتساقطة من السماء ولكن دون أثر للدّم . كانت حبيباته ناعمة ونقيّة تشبه ريش الحمام ، وكانت شوارع باريس تعلوها أجواء احتفالية لأنها كانت اكبر عاصفة للجيّة خلال العشر سنوات الاخيرة .

١٩٧٦